جَفّتِ الدُّمُوع

يوسُف السّباعى

٢



يوسف السباعي

جفت الدموع

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

٢٨

فى الطريق الأبيض

تركت العربة وراءها دور دمشق ، وانطلقت براكبيها فى طريق بيروت ، وعبرت بضعة المقاهى المعلقة على يمين الطريق بمياهها المتساقطة من أعلى السفح ، وبدا مجرى النهر على اليسار وقد أحاطت به الأشجار وجرت مياهه ترتطم بالحصى والصخور .

وأخذ الطريق يتصاعد بين السفوح البيض .. وبدت الجبال على جانبيه كأنما قد سكب عليها الحليب .. بيضاء ناعمة بلا صخور ولا حصى ولا جروف ، فقد لفها الثلج بوشاح منبسط ممدود أخفى من وجه الأرض كل ما به من ندوب .. ولم يعد يرى من نتوءاته سوى منحنيات ملساء مبسوطة كأنها « الكريمة » تغرق سطح الحلوى .. أو الخمار الأبيض على وجه الحسناء .

وبدت الأشجار على سفح الجبل وقد كلل الثلج هاماتها .. كأنما كللت بالزهر الأبيض .

وأحس « سامى » وهو ينطلق فى ذلك الفراغ الأبيض النقى .. مخلفا وراءه صور المدينة الشاحبة .. كأنما قد انفرجت عنه قضبان السجن .. وانحسرت عن أكتافه هموم المسئولية ، وانطلق يعدو بلا قيود ولا هموم .

وفتح زجاج النافذة بجواره فهبت منه نسمة باردة لفحت وجهه .. وملأ بها صدره ثم أطلقها فى تنهيدة طويلة .. أرخت أعصابه ، وفكت توتره .

والتفت إلى « هدى » فوجدها تنظر إليه باسمة وقد بدت قريرة ناعمة راضية .

وأطلق ضحكة قصيرة .. ومد يمناه فأحاطها بها وضمها إليه قائلا :

— أخيرا .

وهمست وهى تسند رأسها على كتفه :

— أجل .. أخيرا .. أخيرا جدا ، أحس بأنى أجلس إليك .. ومتعتى بجوارك .. تغلب خوفى من فراقك .

— ألا يخطر ببالك الفراق ؟

— الآن ؟

— أجل .

— يساورنى من بعيد فأغفله .. وأغمض عنه عينى .. وأصم أذنى .. إنى أحس بأيامنا طويلة ممدودة كذلك البساط الأبيض الذى يمتد أمامنا .. بلا أفق ولا حدود .. الفراق أبعد من أن أفكر فيه .. ما زال أمامنا طريق طويل من الثلوج . وما زال أمامنا بيت نرتبه ، وطعام نطهوه ، ومدفأة نوقدها .. وجلسة لا ينتهى فيها الحديث إلا بالرقاد .. أشياء كثيرة ما زال علينا أن نفعلها سويا ، قبل أن يقترب منا شبح الفراق .

— لن يقترب منا أبدا .. إنه ينبح علينا من بعيد . دون أن يقدر على الاقتراب .. إنه وهم فراق .. لا فراق .

— أكره وهمه ، وأكره نباحه .. وأكره كل ما يهدد به .

وعبرت العربة ميسلون ، وكانت الثلوج قد امتدت حتى وصلت إلى حافة الطريق .. ولاح بعض الصبية يتقاذفون كرات الثلج ، ووقف حارس يلف وجهه بالوشاح المخطط .. وينهر الصبية أن كفوا عن اللعب .

واستمرت العربة فى الانطلاق نحو الحدود حتى بلغت الجديدة ، ومرة أخرى عاود « سامى » الإحساس بالحرج وهو يبصر بضع عربات تقف متعاقبة أمام حاجز الحدود بجوار مبنى الجوازات .. وأحس بأن ثمة إجراءات تستدعى نزوله وسيره وسط العربات ودخوله إلى مكتب الجوازات .

وأوقف العربة على جانب الطريق بعيدا عن العربات .. واتجه إلى المكتب وهو

يشد ياقة المعطف حول عنقه ويدفع بيديه فى جيبيه، وقد أحس بالريح الباردة تلفح وجهه ، وتثلج أطرافه .. وكانت الثلوج قد تراكمت حول المبنى وغطت بضعة الأكواخ المحيطة به .. وامتدت حتى حافة الطريق .

وارتقى الدرجات القليلة ودخل الباب ليحتويه الدفء الذى أشاعته مدفئة الغاز التى توسطت الحجرة .. ووجد صفا من المسافرين يقفون أمام نافذة الموظف الذى انحنى فوق بضع أوراق وانهمك فى فحصها .

وكانت المرة الأولى التى يسافر فيها « سامى » بدون سائق .. وقد تعوّد أن يجنبه السائق فى كل مرة إجراءات المرور . كل ما كان يفعله « سامى » هو أن يجلس فى العربة .. ليتسلى بالقراءة ، أو ليتمشى حولها ليحرك قدميه ويشاهد المسافرين .

ولكنه فى هذه المرة عليه أن يقوم هو بنفسه بالإجراءات .. مع كل ما يحس به من حرج وخوف من أن يصادف أحد معارفه .. ومع جهله التام بما يجب أن يعمل .

وقبل أن يقترب من الموظف .. رفع الرجل رأسه .. وألقى نظرة على الصف الذى أمامه ، ثم عبره إلى « سامى » .. ولم يكد يقع عليه بصره حتى هتف :

ـــ الأستاذ سامى .. أهلا وسهلا .

وانطلق لسان الرجل بكل ما يملك من آيات الإعجاب والتقدير .. ثم قفز من مقعده وأقبل عليه يصافحه فى لهفة وهو يكمل قوله :

ـــ طالما تمنيت أن ألقاك من قبل .. تفضل .. تفضل .

وأحس « سامى » .. أن معرفة الرجل وإعجابه ، هو آخر شىء كان يمكن أن يتمناه .. وحاول جهده أن يهدئ الرجل .. فربت ظهره فى رفق وأجاب :

ـــ هذه فرصة سعيدة لى .. ولكن لا أريد أن أشغلك عن عملك .

ـــ أبدا .. أبدا .. لا بد أن تشرب القهوة .

ـــ أشكرك جدا .. ليس هناك وقت لها .

ـــ كيف لا أجد وقتا للجلوس معك ، لينتظر كل شيء .

ـــ ولكن معى بعض الرفاق .. ولا أريد أن أعطلهم .

ـــ ليتفضلوا هنا .. سأذهب لأناديهم .

وقبض « سامى » على ذراع الرجل .

ينادى من ؟! أمجنون هو ؟!

وأجابه وهو يحاول جهده أن يكون لطيفا فى إجابته :

ـــ شكرا .. شكرا .. لا داعى أبدا لأن تتعب نفسك .

ـــ أنا فى خدمتك دائما .

ـــ كنت أريد أن أنهى إجراءات المرور .

ـــ ليس هناك أى إجراءات .. لا شيء سوى استمارة بليرة واحدة للفرد .. وبخمس ليرات للعربة .

ـــ وأين أجدهما ؟

ـــ فى هذا الحانوت الصغير الذى أمام المكتب سأذهب أنا لشرائهما لك .

وكانت العربة تقف أمام الحانوت الصغير .. ولم يستبعد « سامى » أن يلمح الرجل « هدى » وهى جالسة فى العربة .. وأن يعرفها ويبدى لها من الإعجاب والتقدير مثل ما أبداه له .

وكان المسافرون ما زالوا يقفون أمام مكتب الرجل فى انتظار إنهاء إجراءاتهم .. ووجد « سامى » أنهم خير ما يستعين به لإبقاء الرجل فى مكتبه ، فقال وهو ينظر إليهم :

ـــ لا .. لا .. لست أريد أن تعطل مصالح الناس من أجلى .. إنى أستطيع شراءهما .

وكان يتوقع أن يهمهم الناس من ضيقهم لتعطيل الرجل لهم .. مما يردعه عن الاستمرار فى سيل الترحيب والإعجاب .

ولكنه واجه ابتسامات ترتسم على وجوههم وسمع أحدهم يقول فى فرح :

ـــ لسنا فى عجلة .. نحن جميعا فى خدمتك يا أستاذ .

إذن فهم أيضا يعرفونه .

ما شاء الله ؟! لم يبق غير أن يذهبوا كلهم معه لكى يروا « هدى » ويعرفوا أن الأستاذ هارب بها إلى لبنان .

وقبل أن يفكر فى خطة جديدة لمنع الرجل ، كان الرجل قد انطلق أمامه متجها إلى الحانوت .

وعبر « سامى » الطريق وراءه إلى الحانوت .. وأخرج من جيبه الليرات اللازمة لشراء الاستمارات .. واندفع إلى المكان الضيق الذى رصت فوق رفوفه علب السجاير ولفافات الشاى .. ووضعت على أرضه أكياس البقول .. وصفائح الزيت والزيتون ، واختلطت رائحتها جميعا برائحة الكيروسين المتساقط من المدفأة .

ولم تطل وقفته مع الرجل فى الحانوت الدافئ .. وسرعان ما احتواه برد الطريق مرة أخرى .

ووقف الرجل يودعه مصافحا .. و« سامى » يحجب عنه العربة ويحاول أن ينهى الوداع بتوديع الرجل إلى مكتبه .. ولكنه أصر على أن يقف حتى تسير العربة .

ولم يكن معقولا أن يقضى « سامى » يومه فى جدال الرجل ، ومحاولة إقناعه بأن عمله أولى بوقته وأن الناس ينتظرونه .. ولم يجد بدا من أن يتركه يودعه بالطريقة التى تحلو له .. فاتجه إلى باب العربة واتخذ مجلسه أمام عجلة القيادة .. وأخذ يدير المحرّك .

وانحنى الرجل ملوّحا بيده .. فلمح وجه « هدى » .

ومضت بضع ثوان .. لم يبد خلالها أنه ميزها .. وأحس « سامى » بشىء من الارتياح .. ورفع يده ملوّحا للرجل .

وفجأة تبدلت ملامح الرجل وهتف :

ـــ هدى نور الدين .. أهلا وسهلا .

واندفع محاولا أن يصل إلى الناحية الأخرى من العربة ، ولكن « سامى » كان أسرع منه بالانطلاق فى الطريق .. ووقف الرجل فاغرا فاه .. وهو يلوّح بيده ويصيح :

ـــ هدى نور الدين .

وانطلق « سامى » بالعربة .. وقد تجهم وجهه .. ونظرت « هدى » إليه متسائلة فى دهشة :

ـــ ما هذا ؟

وهز « سامى » رأسه فى يأس قائلا :

ـــ مخبول .

ـــ وماذا يضايقك منه ؟!

ـــ الفضيحة .. التى بدأ يثيرها الآن .

ـــ أقد عرفك !!

ـــ طبعا .. أتظنينه قد أكرمنى كل هذا الإكرام من أجل سواد عينىّ .

ـــ وعرفنى أنا أيضا ؟

ـــ هذا ما أعتقد أنه يؤكده لكل الموجودين فى نقطة الجديدة .

وهزت « هدى » رأسها وضحكت ضحكة قصيرة ساخرة :

ـــ الفضيحة الأولى ؟!!

ولم يجب « سامى » .. وبدا شارد الذهن .

وأحست « هدى » بضيق يتملكها وعادت تتساءل :

ـــ هل ضايقك الرجل ؟!

ونفخ « سامى » نفخة من أنفه وأجاب بقوله :

ـــ يعنى ؟!

ولم تعرف « هدى » حقيقة ما يعنيه بقوله « يعنى » وعادت تقول فى شىء

من المرارة :

ــ متأسفة .

وأحس « سامى » أنه قد ضايقها بتجهمه .. وكره من نفسه تلك الحساسية المفرطة للناس وأقوال الناس .

ولم يجد ما يجيب به عليها .. وعلى نفسه سوى قوله :

ــ لعنة الله عليهم أجمعين .. ليقولوا ما يريدون .

ــ على أية حال .. الحمد لله أن حدث الأمر .. فى نقطة الجديدة .. وليس فى قلب دمشق .

وعبرت العربة المسافة بين حدود سورية وحدود لبنان .. ومرت بنقطة الحدود اللبنانية .. فى سلام ، وما لبثت أن عادت تنطلق بين الثلوج البيض .. التى كست الأرض .. فلم تترك سفحا ولا قمة إلا كللتها بالبياض .

وعادت السكينة تخيم على نفس العاشقين الهاربين .. وتبدد القلق والضيق الذى أمسك بخناقهما بعد نقطة الحدود .

وبدت الكروم الجرداء المعلقة على جانب الطريق .. وكأنها حبال الياسمين أو خيوط اللبن .

وشرد ذهن العاشقين .. فسادهما الصمت حتى اقتربت العربة من شتورة .. وبدت بيوتها .. وحوانيتها .. المرتبة الأنيقة على الجانبين .

وهدأ « سامى » من سرعة العربة قائلا :

ــ خير لنا أن نكمل العربة بالبنزين من هنا .

ــ أنا أيضا أريد أن أشترى بعض الخضروات والفاكهة والعلب المحفوظة التى قد نحتاج إليها فى البلدة .. حتى لا نموت جوعا .

ووقفت العربة .. وملأ « سامى » الخزان بالبنزين .

ثم سأل « هدى » :

ــ ماذا تريدين أن أشترى لك ؟

وابتسمت « هدى » ، وأجابته :

ـــ هذا ليس عملك .. سأشترى أنا من حانوت هناك .. يعرفنى صاحبه جيدا .. لأنى تعوّدت أن أشترى منه كل ما أريد .

ـــ هل من العقل أن تشترى من هذا الذى يعرفك جيدا ؟

ـــ لا تخف .. إنه يعرفنى وحدى .. ولا أظنه يمكن أن يميزك ، ثم إننا فى لبنان .. وليس هنا من يعنيه أمرنا .

ـــ أتظنين هذا ؟!

وانطلق « سامى » مرة أخرى بالعربة .. وما لبثت « هدى » أن صاحت به :

ـــ هنا .. انتظرنى لحظة حتى أعود إليك .

ـــ غير معقول .

والتفتت إليه « هدى » متسائلة فى دهشة :

ـــ ما هو هذا .. غير المعقول ؟

ـــ أن تنزلى للشراء .. وأنت ما زلت متعبة .

ـــ أنا لست متعبة .. والمفروض أن أسير بأمر الطبيب .

ـــ ولكن ليس فى هذا البرد .. ووسط هذا الثلج .

ـــ ليس أحب إلىّ من السير فى الثلج .

وهبطت « هدى » من العربة ببطء .. ولف « سامى » إلى ناحيتها بسرعة مادا يده ليساعدها على النزول والسير .

ووقفت « هدى » برهة مكانها .. وتساءل سامى فى إشفاق .

ـــ كيف تحسين ؟

ـــ كالحصان ..

وانحنت « هدى » إلى الأرض وجذبت بأظافرها حفنة ثلج كومتها فى كفها ثم بسطت بها يدها قائلة فى مرح :

ـــ أحب أن أطبق بيدى على الثلج .

ـــ تقذفين به الناس ؟!

ـــ بل أتحسسه بشفتى .

ورفعت قبضة الثلج ومست بها شفتيها .

ومد « سامى » كفه فأطار قبضة الثلج من يدها ، فصاحت به ضاحكة :

ـــ غرت من الثلج ؟!

ـــ بل خفت عليه أن تصهره شفتاك .

ـــ مغازل كبير !

ـــ لقد تجاوزنا دور الغزل .

ـــ أتظن هذا ؟!

ـــ أتريدين الحق ؟!

ـــ أجل .

ـــ لا أظننى سأتجاوزه أبدا .. ما نظرت إلى وجهك إلا وأحسست أنى أحب أن أغازلك .. أنت دائما جميلة .

واجتاز الاثنان باب الحانوت الزجاجى .. وأقبل صاحبه الأشيب البدين يرحب بهما فى حرارة .. وصافح « سامى » باعتباره زوجها ، ولم تجد « هدى » ما يدعو للنفى أو تصحيح معلومات الرجل ، فقد تركت غلطته فى نفسها إحساسا لذيذا ، ببداية حلم جميل .. وأخذت تنتقى من الرفوف والثلاجة البيضاء العريضة .. ما تريد من أطعمة .. وبدأ « سامى » يشاركها الاختيار .. وأخذ يرص العلب والأطعمة وقد ملأه المرح والحماس .. وأخذت « هدى » ترقبه وقد ذهب عنها كل مظهر من مظاهر التكلف .. وتوتر الأعصاب .. وأخذت تتصرف فى راحة كأنها بين جدران بيتها .. وتملكها إحساس بأن الرجل لم يخطئ حين ظنه زوجها .

ومدت يدها إلى كيس نقودها لتدفع الحساب ، ونظر إليها « سامى » نظرة

رادعة .. أعادت النقود إلى كيسها وهمس بها .

— منذ متى تعوّدت السيدة أن تدفع الحساب فى وجود الرجل ؟! ماذا تريدين أن يظن بنا البائع ؟!

وضحكت « هدى » وهمست به :

— لن يظن بنا شيئا .. فالحساب دائما مع الزوجة .

— كان يجب علىّ إذن أن أعطيك النقود قبل أن ندخل الحانوت .

ومد يده بالنقود للرجل .. ثم حمل الأطعمة بمعاونة الرجل .. وكانت « هدى » قد استقرت فوق أحد المقاعد بعد أن أجهدتها الوقفة .

وعاد « سامى » ليمسك بذراعها حتى استقرت فى العربة .

وبعد برهة .. كانت العربة تشق الطريق الصاعد إلى الجبل ، وقد انبسطت الثلوج على مدى البصر . وبدا على اليسار شريط سكة الحديد يشق طريقه فى الجرف بين الثلوج ، وعلى السفح المجاور بدا لاعبو الاسكى يتزحلقون فوق الثلج ، وهم يتواثبون فى مرح .

وأحست « هدى » بأن الدنيا كلها تمرح وتبتسم .. وأن الحياة بيضاء بقبة صافية كهذا الثلج الذى لا تشوبه شائبة .

٢٩

أجمل ما سمعت

بدأت العربة تقترب من صوفر .. ولاحت لسامى أشجارها الجرداء المكللة بالثلوج على جانبى الطريق .. وقبل أن يصل إلى فندقها العتيد ذى الجدران الحجرية العالية الشبيهة بالقصور الفرنسية فى العصور الوسطى .. أخذت « هدى » تتلفت يمينها نحو المنحدر باحثة عن الطريق الفرعى الموصل إلى البيت .. وقالت لسامى وهى تمد عنقها من نافذة السيارة :

ـــ تمهل قليلا .. فقد شارفت على البيت .

وخفف « سامى » من سرعة العربة .. ومدت « هدى » سبابتها مشيرة إلى مفترق طرق قائلة :

ـــ أظن هذا هو المفترق المؤدى إلى البيت .

وزاد سامى من تباطئه حتى كاد يتوقف ثم قال ضاحكا :

ـــ تظنين ؟.. إن المسألة لا تحتمل الظنون .. إذا لم تكونى واثقة ...

ـــ ماذا نفعل ؟

ـــ نتجه إلى الفندق وأمرنا لله .. فضيحة بفضيحة .

وأتمت « هدى » قائلة :

ـــ وبيدى لا بيد كاتب الجوازات .

وكانت العربة قد وصلت إلى مفترق الطرق ، فتساءل سامى .

ـــ ما رأيك ؟

ـــ اتجه يمينك .. إنه أكيد الطريق إلى البيت .

وانحدر « سامى » بالعربة يمينا .. و« هدى » تقول :

— كنت أعرف البيت بمعالم كثيرة ، أخفى الثلج معظمها . ولولا هذا السور الحديدى .. لضللت عنه بلا جدال .

وبدت الثلوج وقد تراكمت فى الطريق المنحدر حتى كادت تسده .. وأخذ « سامى » يتلمس طريقه بين الثلوج و« هدى » ترشده فى المنعرجات حتى أشارت له فجأة وهى تصيح :

— هنا .. انحرف يمينا ثم قف .. هذا هو البيت .

ووقف « سامى » بالعربة .. وتنفس الصعداء .. ثم نظر إلى حيث تشير « هدى » وتساءل فى شىء من السخرية وهو يرى البيت غارقا فى أكوام الجليد :

— بيت أم ثلاجة !!

— انزل .. وكفى مزاحا .

— أتريدين أن نبيت فى هذا الكوم من الثلج ؟!

— سيكون دافئا من الداخل .

— هل له داخل !!

— طبعا .

— وكيف يمكن أن نصل إلى هذا الداخل ؟

— نزيح الثلج المتراكم على الباب .

ونزل « سامى » من العربة وهو يضحك قائلا :

— هذه عملية تحتاج إلى أحد علماء الآثار .. أرجو أن ننتهى منها قبل حلول الصيف .

ووقف برهة يتلفت حوله .. وكان البيت يقع على حافة الجرف المشرف على الوادى الفسيح الذى يضم قرنايل وفالوغة وبقية القرى المجاروة .. ولم يكن البيت كبيرا .. ولكنه كان أنيقا بسقفه المنحدر الذى كسته الثلوج حتى بدا كأنه كومة من الثلج .. وقد أحاطت به مزارع التفاح والكريز المصفوفة على طول السفح .

ووقف « سامى » يفكر فى طريقة يزيح بها الثلوج المتراكمة أمام الباب .. ثم فتح حقيبة العربة وأخرج « الكوريك » وبدأ يستعمل قاعدته فى إزالة الثلوج ، وهبطت « هدى » من العربةمتجهة إلى الباب لمعاونته .. ونظر « سامى » إليها وهو يقذف بأكوام الثلج بعيدا عن الباب وصاح بها محذرا :

ـــ ابقى مكانك .. إياك أن تتعبى نفسك .

ـــ لقد قلت لك إنى أحب اللعب فى الثلج .

ـــ هذا ليس لعبا .. هذا جد .

ـــ دعنى أساعدك ولا تكن عنيدا .

ووقف « سامى » وهو يحمل « الكوريك » فى يده وقد تناثر الثلج على ملابسه .

ـــ يا حبيبتى كونى عاقلة .. إنك خارجة من عملية لم يبل جرحك منها بعد .. وكان المفروض أن تكونى الآن راقدة فى فراشك .

ـــ سنرقد كثيرا عندما نجتاز هذا الباب .. لن يكون أمامنا بعد ذلك سوى الرقاد .

وأقبلت تجرف بيدها أكوام الثلج وتقذفه بها ضاحكة عابثة .

وأصابت إحدى الكرات وجهه .. فأخذ يلعق الثلج بطرف لسانه وقال لها ناهرا :

ـــ أهذه أفعال ناس عقلاء ؟

وأجابت ضاحكة :

ـــ أمازلت تصر على أننا عقلاء .. بعد كل هذا الذى فعلناه !؟

وهز رأسه قائلا :

ـــ معك حق .

ثم أمسك بقيضة من الثلج وقذفها فى وجهها قائلا :

ـــ أنت تحبين الثلج على شفتيك .. ألم تقولى هذا ؟

ورفعت الثلج عن وجهها ثم أقبلت عليه تضمه إليها وقد أمسك بالكوريك .. وضمت شفتيها إلى شفتيه فى لهفة وهى تقول :

— عذت تغار من الثلج .. إنى أحب شفتيك أكثر منه .

وأجابها وهو يضمها بيده الخالية :

— إن وجهك مثلج .. وأخشى عليك من البرد .. أرينى المفتاح .. فلعلى أفلح فى فتح الباب .

وجذبت حقيبتها من العربة ثم مدت يدها بداخلها وأخرجت مفتاحا نحاسيا وسلمته له .

ودفع به فى ثقب الباب الخشبى ولفه فلم يجد صعوبه فى إدارته داخل القفل .

وبدأ يهز الباب بيده فوجد الثلج ما زال يغلقه .. ونظر إلى « هدى » فوجد علامات الإعياء تبدو على وجهها ، فتراجع إلى الوراء بضع خطوات .. ثم سأل « هدى » وهو يستعد لدفع الباب بساقه :

— يبدو أنه لا بد من استعمال العنف معه .. ما رأيك ؟

وابتسمت « هدى » قائلة :

— اكسره إذا شئت .

ورفع «سامى» ساقه ثم دفع به الباب دفعة شديدة.. فانفتح على مصراعيه.

وضحكت « هدى » قائلة :

— لم أعرف من قبل أنك « قبضاى » .. إن ساقك فى منتهى القوة .

— « القبضاى » لا يحتاج إلى ساق قوية ، لأنه لا يجرى .

وقذف « سامى » بالكوريك داخل العربة ثم حمل « هدى » بين ذراعيه قائلا :

— دعى لى كل شىء من الآن .. كل ما عليك هو أن ترقدى .. ساكنة .. حتى أرتب البيت .. وأصنع الطعام .

وأجابت « هدى » وهى تمد شفتيها فتمس بها شفتيه :

ـــ بلا خيبة .
ـــ أتظنين هذه الأشياء التافهة التى تقوم بها النساء تحتاج إلى مهارة ؟
ـــ طبعا .
ـــ كلام فارغ .. إنكن تحاولن أن توهمننا أن البيوت لا تدار بغيركن .. لقد ظلت أمى توهم أبى طوال حياته بأنها لو تركت البيت لحظة لانهار على رءوسنا .. ومات الرجل وهو واثق من هذا .. وهى اليوم تحاول أن تجعل الخدعة تنطلى علىّ .. فتأبى إلا أن تدير حركة البيت بلسانها وهى فى فراش المرض .. ونحاول عبثا أن نجعلها تلزم الراحة .

ووضع « سامى » حمله فوق أقرب أريكة فى القاعة .. ووقف ينظر حوله مستشكفا البيت .. ونهضت « هدى » بجواره قائلة :
ـــ دعنى أريك البيت ، فأنا أعرفه جيدا ، هذه هى القاعة وعلى اليسار غرفة نوم .. بفراش واحد .
ـــ لا حاجة بنا لغيره .
ـــ مفهوم . وعلى اليمين حجرة الطعام تؤدى إلى المطبخ ، وفى الواجهة حجرة جلوس .. بها مدفأة وشرفة زجاجية تطل على الوادى .. وبين الحجرتين حمام .. و .. ولا أظن هناك شيئا أكثر من هذا .. هيا بنا أريك أجمل منظر يمكن أن يقع عليه بصرك .

وجذبته من يده قبل أن يحاول المقاومة .. واجتازت به الباب المفضى إلى حجرة الجلوس ، ونظر « سامى » إلى الحجرة فوجد فى مواجهتها بابا زجاجيا عريضا يؤدى إلى الشرفة التى تطل على الوادى .. ووجد المدفأة على اليسار وبجوارها فى ركن الحجرة « بيانو » قديم .. ونظر إليها قائلا :
ـــ نسيت أن تذكرى أهم ما بالحجرة .. أم لعله عاطل ؟
ـــ أبدا .. لقد عزفت عليه آخر مرة كنت هنا .

وأقبلت « هدى » على البيانو ورفعت غطاءه .. ثم أجرت يدها على أصابعه

بإحدى أغنياتها .. وضحك « سامى » قائلا :

— أكيد .. إنه ليس عاطلا .

واقترب الاثنان من باب الشرفة .. وأدار « سامى » المزلاج وفتح الباب .. فكادت أكوام الثلج المتراكمة خارجه تنهار داخل الغرفة لولا أن أسرع بإغلاقه .. وقالت هدى .

— لا داعى لفتحه .. البرد قارس .

— إن المنظر يبدو جميلا من خلال زجاج الباب . إنه رائع .

وكان الوادى يبدو كطبق الصينى الأبيض وقد بدت فيه البيوت كأنها رغاوى الصابون .. وكان المنظر واضحا بكل ما فيه من تفاصيل .. بصنوبره .. وطيات أرضه وتجاعيد جباله .. بقبابه وأبراجه .. وقد كستها طبقة الحليب الأبيض .

وحوّل « سامى » بصره من الزجاج إلى الوجه الرقيق المسنود على كتفه ، الشارد ببصره فى فسحة الوادى ، وهمس فى أذنيها :

— جميل جدا .

— المنظر ؟!

— بل وجهك .

— ظننت المنظر أعجبك ؟!

— أعجبنى ، ولكن وجهك يثير إعجابى أكثر من أى شيء .

— ألا يعجبك جمال الطبيعة ؟

— إعجابى بجمال الإنسان أكثر . ألم تقرئى قول الكاتب المصرى « ما ألذ الآدمى كالآدمى » .. ما قيمة هذا المنظر الرائع الذى يبدو أمامى بدونك ؟

— وما قيمته بدونك أنت !!

— إننا نمنح ما حولنا قيمة .. أكثر ما يمنحنا ما حولنا ، إننا دائما مصدر الشعاع المشرق .. تلك هى قيمة الإنسان .. الإنسان أقيم من أى شيء على ظهر

هذه الأرض .

ــ أى إنسان ؟!

ــ لكل إنسان .. إنسان مخصوص ، وما من إنسان إلا ويجد توأما يحس بأنه ملاذه وملجأه .. ومشرق أمله .

ــ يجد توأما ؟!! أيكفى أن يجده فقط ؟

ــ ألا يكفى ذلك ؟

ــ أتظن مجرد وجوده .. بكاف أن يريحه ؟

ــ ما رأيك أنت ؟

ــ أحيانا أحس أن مجرد وجوده كاف ، وأحيانا أحس أن وجوده بغير امتلاك عذاب أكبر .

ــ تؤمنين بأن هناك امتلاكا حقيقيا فى هذا الوجود ؟

ــ ولِمَ لا .

ــ نحن لا نملك حتى أنفسنا .. أعمارنا .. أرواحنا .. هباءٌ بين القدر .. فكيف نؤمن بامتلاك الغير .. ونحن لا نمتلك أنفسنا ؟

ــ نمتلكه .. على الأقل بمدى امتلاكنا لأنفسنا . نمتلكه ما دمنا نملك أرواحنا وأعمارنا .. ما دمنا أحياء .

وصمتت برهة ثم أطلقت تنهيدة حملتها بعض ما بها من مرارة .. واستمرت تقول :

ــ اللهم لا طمع .. إن وجوده خير من عدمه ، وامتلاكه بعض الوقت .. خير من مجرد وجوده .. هيا بنا ولا تضيع من أيدينا بعض الوقت الذى نحاول أن نمتلكه فيه .. هيا .

واستدار إليها .. وضمها بين ذراعيه وأحس بقطرات على وجنتيها .. لولا سخونتها لظنها قطرات الثلج الذائب على وجهها .

والتصقت بصدره كأنما تخشى أن ينزعها أحد منه .. وأخذ يمس طرف أنفها

وعينيها وهدبها بشفتيه ، واستقر فى النهاية على شفتيها .. ومس أسنانها البيض المنظومة ثم حملها بين ذراعيه .. فأجلسها أمام المدفأة قائلا :

— إنك ترتجفين من البرد .

— عدت إلى غبائك !!

— أتنكرين أنك ترتجفين ؟

— من الحب أيها الغبى .

— من الحب أو من البرد .. لا بد أن أعمل على تدفئتك .

— فارق كبير بين وسيلتى الدفء فى كلتا الحالتين .

— كيف ؟!

— ارتجاف البرد توقفه المدفأة .

— والحب ؟!

— توقفه أحضانك .

— سأوقفه بكلتا الوسيلتين .. سأوقد المدفأة وآخذك بين أحضانى .

— سأقوم لترتيب البيت .

— البيت لا يحتاج إلى ترتيب .. إنى أحبه هكذا .

— سأساعدك فى إحضار اللفائف من العربة .

— لست فى حاجة إلى مساعدة .. سأحملها إلى هنا وأضع العربة تحت المظلة ، ثم أحضر الوقود .. وأعود إليك فى بضع دقائق .

وانطلق « سامى » إلى الخارج ، وتلفتت « هدى » حولها ، فوجدت البيت فى غير حاجة إلى ترتيب . كان نظيفا منظما .. وكل شىء فى موضعه كأنه أعد لاستقبالهما .

وسارت إلى حجرة النوم .. فوجدت الفراش مرتبا والملاءات بيضاء نظيفة ، والتسريحة قد صفت عليها زجاجات العطر وأدوات الزينة .

ولم يكن يبلغ حسن ظنها نحو « علية » إلى هذا الحد . لقد بدا البيت كأنه قد

تركته منذ لحظات .. ولولا طبقة الأتربة الخفيفة التى تكاد لا ترى .. ولولا الثلوج المتراكمة خارج الباب لساورها الشك فى أن تكون « علية » قد سبقتها إلى هنا لإعداد البيت .

وخطر لها أن تخرج لمساعدة « سامى » ولكن كانت تعرف مبلغ عناده .. وخشيت أن تغضبه .. لأنها كانت تعرف جيدا مدى خوفه عليها .

وعادت إلى غرفة الجلوس .. وتملكها حنين إلى البكاء وهى تحس بحلمها الكبير يتحقق .. ولو لبضعة أيام .

وجلست أمام البيانو .. وعادت تحرك يديها على أصابعه البيضاء .. وأخذت تدندن بصوت خافت .. الأغنية التى يحب « سامى » أن تغنيها له دائما .

وكان « سامى » قد نقل اللفافات إلى المطبخ ، ووصلت إلى مسامعه دقات الأغنية .. فوضع ما بيده على المنضدة وعاد متسللا إلى حجرة الجلوس .

ورفعت « هدى » عينيها إليه وهى تحس به يتسلل وراءها وهمست :

ــ عدت سريعا !!

ــ جذبتنى دقات الأغنية .. فلم أحتمل البعد .

ــ أتحب أن تسمعها ؟!

ــ أحب أن أراكِ وأنت تغنيها .

ــ أنا لا أحب وجهى عند الغناء !

ــ ولكنى أعبده .. أعبد عينيك الشاردتين .. ورقبتك الممدودة ، ورأسك الذى يبدو كأنه يحلق فى السماء .

ــ إنى أحس بإنسان فرد .. أغنى له وحده .. وأرى صورته كالطيف .. يطوف بعينيّ الشاردتين .

وأحنى رأسه فمس مفرق شعرها وهمس بها :

ــ غنى يا حبيبتى .. واشردى ببصرك .. ومدى رقبتك .

ــ لن أشرد وأنت أمامى .. إنى أفضلك على طيفك .

ـــ غنى على أى وضع تريدين .
ـ اجلس هنا بجوارى حتى أراك .. اجذب هذا المقعد الصغير واقترب منى .

وجذب « سامى » المقعد ولمح بجواره منصة صغيرة وضع عليها جهاز تسجيل .. فمد يده وفتح الجهاز .. قائلا :

ـــ لو كان به شريط ، لسجلت عليه الأغنية .
ـــ إنى سأحضر لك تسجيلا جيدا بالأوركسترا كاملا .
ـــ هذا سيكون تسجيلا خاصا .. سيكون خيرا من أى تسجيل للأغنية .

وفتح الجهاز فوجد به شريطا معدا .. وأداره فسمع بعض الأصوات .. ثم بداية أغنية لأحد المطربين ، وتساءل قبل أن يعد الجهاز للتسجيل .

ـــ أتغضب « علية » لو أخذنا هذا الشريط ؟!
ـــ مطلقا . إنى أستطيع أن أعيده إليها ، بأى أغنيات تريد .

وأدار الجهاز .. معدا للتسجيل . وسحب المقعد وجلس أمامها .. واضعا مرفقيه على ركبتيه . ساندا ذقنه على كفيه .. وهمس وهو يتطلع إليها فى شغف :

ـــ هيا .

ومدت عنقها نحوه وقالت :

ـــ قبلنى أولا .

ومد شفتيه فمس شفتيها .. وعادت تقول :

ـــ قبلنى أكثر .. وأكثر .

وضمها إليه بلهفة وهو يهتف :

ـــ يا حبيبتى .. لقد بت أفضل ما أريد فى هذه الحياة ..

بت أقصى أمانى .. ومنتهى آمالى .. لا أريد من حياتى شيئا أكثر من بقائك وبقاء حبك .

وتنهدت « هدى » وهى تقول :

ـــ نفس ما أحس به .

ثم أخذت أصابعها تجرى على السطح العاجى الأبيض ..

ونظرت إلى « سامى » نظرات شاردة .. وبدأت تدندن .. ثم علا صوتها رويدا رويدا ، وبدت كأن الصوت يخرج من شغاف قلبها لا من حنجرتها .. وكأنها تحلق فى الفراغ العريض الواسع المحيط بالأرض .

واستمر « سامى » يحدق فى وجهها وعينيها .. حتى صمتت وتوقفت أصابعها عن الدق ، وأحس بالدموع تسيل فى سكون من مآقيها .. وتنساب على وجنتيها .

واقترب منها وضمها فى رفق وهو يحس أنها توشك أن تذوب بين ذراعيه وهمست به :

ـــ أحبك ، ولا أريد أن أفقدك .

ـــ أفقد روحى قبل أن أفقدك .. يا حبيبتى .. يا أعز الناس . هدى .. أحبك .. أحبك .

وهمست به وهى تضمه فى لهفة :

ـــ سامى .. حبيبى .. قل لى إنى سأجدك دائما عندما أناديك .. لا أريد أن أناديك فيجيبنى الصمت .

ـــ سأرد عليك دائما .. دائما . ما دام فىّ نفس يتردد .. هدى .

ـــ سامى .

وسمع صوت الشريط وقد انتهى وأخذ يلف حول نفسه . وصاحت « هدى » فى دهشة :

ـــ أكل هذا قد سجل !؟

وابتسم « سامى » قائلا :

ـــ طبعا .. أيسيئك هذا !؟

ـــ يسيئنى أنا ؟ يسيئنى أن أحتفظ بأجمل ما سمعت فى حياتى !؟ يسيئنى أن

أحتفظ بمناجاتك العذبة !؟ أمجنون أنت ؟

وضحك سامى قائلا :

ـــ إذا دعينا نستمع إليه .

وبدأ بإعادة الشريط .. وأخذ الاثنان ينصتان إليه فى لهفة وشغف .. حتى انتهى التسجيل بهتاف كل منهما باسم الآخر .

وضمته إليها وهى تتحسس عنقه بشفتيها قائلة :

ـــ هذا أجمل ما سمعت .

٣٠

معركة حب

أغلقت « فايزة » الكتاب الذى كانت تتشاغل بقراءته .. وعادت تلف قرص التليفون محاولة الاتصال بسليم ، ودق الجرس بضع دقات ثم سمعت صوت سليم :.

ــ ألو .

ــ صباح الخير .. أنا فايزة .

وأطلق « سليم » بضع نحنحات يسلك بها زوره من حشرجة النوم وقال مرحبا :

ــ أهلا وسهلا .. كيف الحال ؟

ــ الحمد لله .. كنت أحاول الاتصال بك منذ ساعة .. فكان الخادم يقول لى إنك نائم .

ــ فعلا .. إنى لم أصح إلا منذ بضع دقائق .. لقد نمت متأخرا .

ــ يبدو هذا .. فقد حاولنا أن نتصل بك عبثا طوال ليلة أمس .

ــ خير .

ــ كان الأستاذ سامى يريد أن يحدثك قبل سفره .

ــ سفره ؟.. إلى أين ؟

ــ إلى بيروت .

ــ ولكننا كنا معا طيلة اليوم .. ولم يخبرنى بشىء عن هذا السفر !

ــ أنا أيضا لم أعرف منه إلا فى المساء بعد أن عاد إلى المكتب .

ــ فى أية ساعة ؟

— لا أذكر بالضبط ، ولكنها على أية حال بعد التاسعة .

— ألم يقل لك لماذا سافر ؟!

— لا .

— ألا تعرفين أنت ؟

— إذا كان لم يقل لى ، فكيف أعرف ؟

— أظن أن هناك أشياء كثيرة نعرفها دون أن يقولها لنا أحد ؟!

— أنا لا أعرف أكثر مما يقول لى .

— ما علينا .. ماذا قال لك إذن ؟

— قال لى إنه سيسافر إلى بيروت صباحا فى مسألة عاجلة . وأنه سيغيب بضعة أيام .. ثم حاول الاتصال بك .. فلما عجز عن أن يجدك .. كلفنى أن أنبئك بسفره ، وأرجوك أن تراقب العمل فى الجريدة حتى يعود .

— هكذا ؟! بمثل هذه البساطة !!

وصمت « سليم » برهة ، لم تعرف فايزة خلالها كيف ترد على تعليقه .. ثم أردف يقول :

— سبحان الله .. كان فيما مضى لا يرضى أن يترك مكتبه ساعة واحدة خشية أن يضطرب العمل .

ولم تجب « فايزة » .

لم تعلق بكلمة واحدة كعادتها على سلوك سامى ، وتساءل سليم :

— لماذا تصمتين ؟

— وماذا أقول ؟

— اسمعى يا فايزة .. إن المسألة لا يمكن أن تقابل منك بمثل هذا الصمت والتجاهل والسلبية .

— أى مسألة ؟

— المسألة التى تعرفينها .. مسألة علاقته بهدى نور الدين .

وأحست « فايزة » بلسعة من الألم .. وأصابها شيء من الجزع وهى تسمع « سليم » ينطق الاسم بصراحة ، فأجابت فى إشفاق :

ــ أرجوك .. لا داعى للحديث فى هذه الأشياء .

وصمتت برهة ثم استرسلت تقول :

ــ على الأقل فى التليفون .

ــ سأحضر إليك حالا .. مسافة الطريق .

وأنهى « سليم » حديثه .. ووضعت « فايزة » السماعة ، ثم عادت تقلب صفحات الكتاب بعينين زائغتين وذهن شارد .

وما لبثت أن ألقت الكتاب جانبا .. وتركت مقعدها وراء المكتب الصغير .. واقتربت من المدفأة المعدنية .. التى تشع بالحرارة .. ونظرت من زجاج النافذة ، ترقب كلبا يتسكع حول عربة طعام انهمك صاحبها فى « قلى الكبدة وطعمية الحمص » ، وقد أخذ يستعين بحرارة الموقد على تدفئة كفيه .

وأخذ بصرها يتنقل بين العربة .. وعابرى السبيل من صبية تتواثب .. وكهول تثاقل خطاها .

عاد قول « سليم » يتردد فى مسامعها « إن المسألة لا يمكن أن تقابل منها بمثل هذا الصمت والتجاهل والسلبية » .

يقول هذا .. وكأنها طرف فى المسألة .. طرف مسئول .. يستغرب منه الصمت والتجاهل ، ويتحتم عليه أن يتدخل بطريقة إيجابية لحلها .

ولكن ما قيمة أن يظن « سليم » هذا ؟! إذا كان صاحب الأمر لا يكاد يحس بأن المسألة تعنيها من قريب أو بعيد !

إنه لا يأتمنها على أن تعرف أين يكون عندما يغيب ، حتى تستدعيه إذا ما تأزمت الأمور .

كيف تستطيع أن تكف عن التجاهل .. إذا كان هو قد فرض عليها الجهل !؟

ولكن .. أتراها كانت تصبح أحسن حالا ، لو أنه منحها المعرفة وأنبأها

ببساطة أين يكون .. وماذا يفعل ؟ وكأن الأمر لا يمكن أن يسيئها أو يخدش مشاعرها .

لا .. لا .. إن إنكاره الأمر عليها خير بكثير من التسليم لها بمعرفته .

إنه اعتراف .. بأن لها أحاسيس خاصة .. يكره أن يجرحها .

اعتراف ؟!

وأطلقت نفخة ساخرة من أنفها .

ما قيمة الاعتراف بأحاسيسها .. إذا كانت أحاسيسه هو تصب إلى آخر قطرة فى قلب آخر .

ومع ذلك .. فهى لا تشعر بالغيرة .

وإنما تشعر بالخوف والقلق .. والجزع على هذ المعبود من أن يجرفه التيار .. وتهوى به العاصفة فيتحطم .

لو أنه وجه أحاسيسه .. لمخلوقة يمكن أن تصونه وتشد أزره .. وتحفظ قدره !!

حمقاء ؟!

لو أنه فعل .. لقذف بها إلى قاع اليأس .. وجعل من مشاعرها حطاما .

إنها لا تغار من هذه المخلوقة .. لأنها تعرف أن حبها ولد ومعه معول هدمه .

وأنه يحمل مع جرثومته المصل الواقى منه .. وأنه يحوى فى باطنه أسباب مصرعه .

ولكنها تخشى أن يصرعه قبل أن يصرع .. وأن يقضى على صرحه الأشم قبل أن ينتهى .

وهى تتمنى لو استطاعت وقايته .. ولكنها لا تعرف كيف .. وهو يصر على أن يضعها جانبا .. وكأن الأمر لا يمكن أن يعنيها .. وهى تكره التدخل حتى لا يشك فى أنها طرف فى معركة .. وأنها تصارع من أجل نفسها .. لا من أجله هو .

وبعد كل هذه الأفكار التى تتصارع فى رأسها .. تحس أن ثمة حقيقة لا تقبل الجدل .. وأمرا واقعا لا يحتمل المناقشة .. وهو أنها تحبه فى إصرار وصبر وعزم .. وأنه ما من قوة هناك يمكن أن تثنيها عن حبه .. ما دامت هى كائنة .. وما دام هو كائنا .

وأحست بشيء من الراحة والعزاء وهى تستقر على هذه النتيجة .. واتجهت إلى المكتب بعد أن أحست لسعة المدفأة .. وطرق الباب وأقبل رئيس عمال المطبعة يحمل بيده مجموعة من التجارب متسائلا :

ـــ أين الأستاذ ؟

ومدت « فايزة » يدها لتأخذ الأوراق قائلة :

ـــ دعها هنا .. وسأرسلها لك بعد ساعة .

ـــ إنى أريد أن أسأله عن بعض المقالات التى مضى عليها بضعة أسابيع وهى مصفوفة دون أن يأمر بإنزالها إلى المطبعة .

ـــ هل أخذت رأى الأستاذ عابد سكرتير التحرير ؟

ـــ قال لى أرها للأستاذ سامى .

ـــ إذن دعها الآن .. هات لى التجارب التى تريد مراجعتها .

ـــ ولكنها تعطل لنا الحروف .. إما أن تطبع أو نفكها .

وأجابت « فايزة » فى ملل :

ـــ قلت لك دعها الآن .. الدنيا لم تطر .

ـــ أريد أن أقابل الأستاذ .

ـــ الأستاذ غير موجود .

ـــ متى سيحضر ؟

ـــ لا أدرى .

وتمتم الرجل ببضع كلمات ضيق وتبرم ، ثم سلمها ما فى يده من أوراق وأولاها ظهره وانصرف .

ولم يكد يخرج حتى أقبل الأستاذ « عابد » سكرتير التحرير وهز رأسه بالتحية ثم اتجه مباشرة إلى حجرة « سامى » وأطل برأسه من الباب ثم تساءل :

— ألم يأت الأستاذ بعد !؟

وهزت « فايزة » رأسها دون أن ترفع بصرها عن الكتاب الذى حاولت أن تعاود قراءته .

واتجه إليها « عابد » وجلس على طرف المكتب متسائلا وهو ينظر إلى الساعة :

— لم يأت حتى الآن.!! غير معقول .

وجذب آلة التليفون وهو يواصل الحديث قائلا :

— لماذا لم تسألى عنه فى البيت ؟! قد يكون هناك ما عاقه .. إن والدته كانت مريضة منذ بضعة أيام .

وأغلقت « فايزة » الكتاب ثم مدت يدها ، فأعادت التليفون إلى مكانه قائلة :

— إنه ليس فى البيت .

— هل قال لك أين يكون ؟

— فى بيروت .

— بيروت ؟! ما شاء الله .. وأنا هنا .. كالزوج آخر من يعلم .. أكثير على سكرتير التحرير. أن يعلم بسفر رئيس التحرير ؟!

— لقد سافر فجأة .. وكنت أنت قد استأذنت فى الانصراف مبكرا ، فلم أستطع إخبارك .. وطلب منى أن أرجوك التصرف فى المسائل العادية .. وأن يسير كل شىء كما هو .. وإذا طرأ شىء غير عادى فيمكنك أن تستشير فيه الأستاذ « سليم » . إنه سيبقى فى مكتبه طيلة مدة غيابه .

وهز « عابد » رأسه وقال وهو يغادر المكتب :

— لن نحتاج إلى سليم ولا إلى غيره .. كل شىء سائر على ما يرام ..

عشرون سنة والعجلة تسير فى الجريدة لم يعطلها شيء .. لو قذفوا بالمقالات إلى المطبعة لصفت الحروف نفسها ، وقفزت إلى ماكينة التصوير ، وخرجت الجريدة دون حاجة إلى مخلوق .

ورفعت « فايزة » بصرها إلى رأسه الكبير ، ذى الشعر الأكرت ، والحاجبين الثقيلين ، والجبين الضيق .. وبدا لها كأنه إحدى آلات الطباعة التى تدور بلا وعى .. كان دقيقا منظما ولكنه يكره التفكير .. إنه يعتبر الجريدة حروفا تصف وأوراقا تطبع لتخرج إلى الناس فى موعدها .. بصرف النظر عما تحويه من أفكار .

وكانت « فايزة » تعرف كيف يستفيد « سامى » من دقته وترتيبه وجلده على العمل .. دون أن يمنحه فرصة لإتلاف هذا العمل ، بتدخله بالتفكير أو الكتابة .. وإن كان « عابد » قد استطاع أن يغافله أحيانا ويطل من بين أعمدة الصحيفة ليبدى للقراء رأيا أو ليقول كلمة ، لا طعم لها ولا لون ولا رائحة .

ونظرت « فايزة » إلى الساعة فى يدها ، وقبل أن يساورها القلق لتأخر « سليم » ، دفع الباب واجتازه إلى الداخل وهو يقول :

— تأخرت عليك !!

— نوعا ما .

ومد يده مصافحا ثم سار بها إلى حجرة سامى وهو يقول :

— تعالى .. لابد أن نتحدث فى الموضوع بصراحة .. إنى أعتبرك المسئولة الأولى عن سامى .

ورفعت « فايزة » حاجبيها متسائلة فى دهشة ، وقد داخلها إحساس ممتع بأن بعض الناس يحسون بفرط قربها منه لدرجة تحملها مسئوليته .. وهتفت قائلة :

— أنا !!

— أجل .. اجلسى .

واتخذ « سليم » مجلسه أمام مكتب « سامى » وجلست « فايزة » على المقعد

المواجه للمكتب وهى تعاود التساؤل :

ـــ أنا مسئولة عنه ؟! كيف ؟

ـــ لا أريد أن أدخل فى جدل معاد .. إنى أعرف أن لك معزّة فى نفسه ، ولا أظننى فى حاجة إلى أن أقنعك أنه يمر بأزمة ، قد يعتبرها هو حبا ، وقد نعتبرها نحن نزوة ، ولكن لا جدال فى أنها أزمة قد تعصف به ونحن فى حاجة إليه .. كنا فى حاجة إليه .. بطريقة ما ، فهو ليس مخلوقا عاديا ، يمكن أن نتركه لهدى بسهولة .. هل تعترفين بهذا أم لا ؟

ـــ ثم ماذا ؟!

ـــ قولى أولا .. نعم أم لا .

وأطرقت فايزة وهمست قائلة :

ـــ نعم .

ـــ وأنا لا أريد أن أناقش فى قدرتك على إنقاذه .. حتى لا نعود مرة أخرى إلى الحلقة المفرغة التى تعوّدنا أن نجادل فيها .. ولكنى أسألك فقط .. أتضنين عليه بشىء يمكن أن يعيده إلى وعيه !

ـــ كيف ؟

ـــ دعى هذا الآن .. لا نريد أن نناقش المسألة كيف تكون .. بل نريد أن نناقش مبدأ قبولك إنقاذه .

ـــ هل تظن أنى أتردد فى ذلك ؟!

ـــ حسن .. هل تعدين بأن تبذلى كل ما تستطيعين .. على ألا يكون به طبعا ما يسىء إليك ، أو يخدش كرامتك ؟

وهزت « فايزة » رأسها فى ضيق ويأس وأجابت :

ـــ سنتدبر الأمر سويا ، بشرط ألا نفترض افتراضات خاطئة .

ـــ مثل ؟!

ـــ كزعمك أنه يحبنى .

— لم أقل إنه يحبك .. ولكننى قلت إنه كان على استعداد لأن يحبك .
— ولا حتى هذا .
— إذن يستلطفك ؟!
— لا داعى لأن تبنى خطتك على افتراضات فى مشاعر لا يعرفها إلا هو .
— وأنت ؟!
— ما أحسست قط بأنى أزيد بالنسبة إليه عن تابعة مخلصة له .
— كاذبة .. أنت تحسين دائما بأنك أقرب الناس إليه .
— فارق بين ما أحس أنا ، وما يحسه هو .
— وهو أيضا يحس بهذا .
— لنفرض أنه يحس بهذا !
— إذا فافعلى شيئا .. لا تقفى هكذا مكتوفة اليدين ، ودافعى عن مصيرك .
— مصيرى أنا ؟!
— أجل .. مصيرك كمحبة .
— تريد أن أخوض معركة من أجل نفسى ؟
— ليس من أجل نفسك .. بل من أجل نفسه ، ومن أجل مبادئه وعمله ، وآمالنا فيه وإيماننا به .. من أجل كل الأشياء الطيبة الكامنة فيه ، والأهداف السامية التى يعمل من أجل تحقيقها .. فهمت ؟

وأجابت « فايزة » بشىء من الحدة :

— طبعا أفهم .. أفهم جيدا .. لكننى لا أعرف ماذا أفعل .. أنا أحس أنى عاجزة تماما .
— المحب لا يمكن أن يكون عاجزا .
— كلام .. مجرد كلام .. ما أحسست بعجزى كما أحسست به الآن .. وأننى أحس به ينساب منى ، ومن نفسه .. كما ينساب الماء من بين الأصابع ، وأنى على استعداد أن أضحى بكل شىء من أجله ، ولكننى لست على استعداد

لأن أذهب إليها لكى أرجوها أن تتركه لى .

ــ لم يقل لك أحد أن تفعلى هذا .

ــ إذن ماذا أفعل ؟

ــ كونى أكثر إيجابية فى حبه .

ــ أرتمى على قدميه ؟!

ــ بل خوضى من أجله معركة .. كافحى من أجله .

وهزت « فايزة » رأسها فى يأس وقالت :

ــ الأحاسيس لا تكتسب بالمعارك .. كل شىء يمكن أن يكتسب بالكفاح .. إلا الشعور .

ــ كل شىء يكتسب بالكفاح حتى الحب . أؤكد لك ...

ودق جرس التليفون ، فقطع « سليم » حديثه .. ثم رفع السماعة متسائلا :

ــ آلو .. من ؟

وأجابه صوت متسائل :

ــ سامى ؟

ــ من يريده ؟

ــ أنا عبد الوهاب .

ــ أهلا وسهلا .. عبد الوهاب بك .. أنا سليم .

ــ صباح الخير يا سليم .. ماذا تفعل عندك .. وأين سامى ؟

ــ سامى .. سافر .

ــ سافر ؟ إلى أين ؟

ــ إلى بيروت .

ــ عجيبة !! لماذا لم يقل لى ؟

ــ سافر فجأة .. وسألنى أن أقوم بعمله حتى يحضر .

ــ ومتى سيحضر ؟

ـــ بعد بضعة أيام .

وبدا الضيق فى صوت عبد الو هاب بك وتساءل :

ـــ لماذا لم يخبرنى ؟! كان يجب ألا يسافر الآن .. ألا تستطيع الاتصال به ؟

ـــ سأحاول .

ـــ اسمع .. تعال إلىّ الآن .. يجب أن ندبر المسألة بسرعة .

ـــ حاضر .

ـــ أنا فى مقر الحزب .

ـــ سأحضر حالا .

ووضع « سليم » السماعة .. وهز رأسه قائلا :

ـــ ألا تعرفين أين ذهب فى بيروت ؟!

ـــ لم يقل لى .

ـــ مشكلة .. إن عبد الوهاب بك يريده الآن .. سأذهب إليه لأرى ماذا يريد ثم أعود إليك .

وخرج « سليم » متجها إلى دار الحزب .. وعادت « فايزة » إلى مكتبها ، وقد بدا عليها الضيق والقلق .. وهى تحس بعجز تام من أن تخوض تلك المعركة التى يسألها « سليم » أن تخوضها . من أجل .. حبها .

٣١

استدعاء

لم يمض أكثر من بضع دقائق حتى كان « سليم » يقف بباب حجرة « عبدالوهاب بك » يستأذن فى الدخول . ورفع الرجل رأسه الأشيب ، ثم قال بصوته الأجش :

ـــ تفضل ...

وحياة « سليم » ثم اتخذ مجلسه بجوار المقعد الكبير الذى استقر الرجل فيه .

وخلع الرجل منظار القراءة وألقى بالأوراق التى كان يفحصها جانبا ، ثم وضع منظارا آخر على يمينه واتكأ بظهره على المقعد قائلا :

ـــ قلت لى إن « سامى » سافر إلى بيروت ؟!

ـــ أجل .

ـــ ظننته لا يستطيع أن يغادر دمشق لأن أمه مريضة .

ـــ إنها مريضة فعلا .. ولكن يبدو أن أمرا طارئا استدعاه للسفر فجأة إلى بيروت .

ـــ أمرا لا نعرفه ؟.. كان يجب أن يخبرنى أنا على الأقل .

ـــ ربما كان أمرا عائليا .

ـــ حتى هذا كان يجب أن يخبرنى عنه .. لقد تعوّد أن يستشيرنى فى كل شىء .

ـــ أعتقد أنه لم يرد أن يزعجك ، فقد سافر فى الصباح الباكر ، ويبدو أنه لم يعرف بأمر السفر إلا فى ساعة متأخرة من الليل .

وصمت الرجل برهة ، ثم عاد إلى الأوراق التى نحاها جانبا ، وقطع « سليم » الصمت متسائلا :

— أهناك شيء أستطيع أن أقوم أنا به ؟
— أن تحضره حالا .
— ألا أستطيع أن أنوب عنه ؟
— فكرت فى ذلك .. ولكن يبدو لى أنه لا بد أن يقوم هو بنفسه به .
— هل أستطيع أن آخذ فكرة عن الموضوع ؟
— طبعا .. لقد وصلنى اليوم تلغراف من القاهرة يخبروننى فيه أن موعد عقد اللجنة التحضيرية للمؤتمر الآسيوى الإفريقى قد تحدد فى أول الأسبوع المقبل ويطلبون أن يكون مندوبنا هناك على الأكثر بعد غد .. وليس أمامنا إلا اليوم وغدا لكى أبحث معه موضوعات اللجنة وأراجع معه الكلمة التى سيقولها باسم سورية فى اللجنة .

وصمت « سليم » برهة ، وهو يحس أن الأمور تتعقد حول « سامى » .. إنه يستطيع أن يخمن سبب غيبته ، ولكنه لا يظن العثور عليه بالأمر اليسير .. وهو قطعا لا يستطيع أن يعلن تخميناته هذه لأى مخلوق .. اللهم إلا « فايزة » . التى لا يظنها إلا أكثر منه عجزا فى الوصول إلى « سامى » .

وقال « سليم » ، وهو يحاول أن يكسب بعض الوقت :
— ظننت أن « سامى » قد اعتذر عن الذهاب .
— حاول أن يعتذر لمرض أمه .. ولم ألح عليه لاعتقادى أننا نستطيع أن نرسل أحد الإخوان بدلا منه .. وقد فكرت فعلا فى إرسالك .
— وماذا حدث ؟
— حدثت بعض المناورات التى حتمت علىّ ضرورة إرساله هو بالذات .
وصمت الرجل ورفع « سليم » حاجبيه ، محاولا إبداء عجبه .
وما لبث « عبد الوهاب » أن استرسل فى حديثه موضحا فى لهجة يشوبها الاعتذار :
— لا أقصد بالطبع أن واحدا منكم يقل عنه كفاءة .

وابتسم « سليم » قائلا :

ــ لو كان الأمر بيدى أنا .. لما اخترت غيره .. أنا أومن بصفاء ذهنه وترتيبه وذكائه .. وفرط إخلاصه .. وشدة جلده .

ــ مع ذلك فقد كنت على استعداد للتجاوز عن إرساله .. رغم إيمانى أنا أيضا بكل ما ذكرت فيه .. بعد أن أحسست أنه غير متحمس للذهاب .. لولا أنى أحسست أن إرساله قد أضحى مسألة كرامة .

وزادت دهشة « سليم » وتساءل قائلا :

ــ كرامة مَنْ ؟

ــ كرامتنا نحن .

ــ كيف ؟

ــ إن الشيوعيين لا يريدون سفره .

ــ ولِمَ ؟

ــ لأنهم يعرفون خصومته لهم .

ــ وما لهم هم بالمؤتمر ؟

ــ إنهم يبدون له حماسة زائدة .

ــ عجيبة ؟! وما سر هذه الحماسة ؟

ــ نفس حماستهم للسلام .. أتعرف منظمات السلام ؟

ــ أجل .

ــ إن المفهوم أن لجان السلام فى البلاد الشيوعية هى نفسها لجان التضامن الآسيوية الإفريقية .. وقد سبق أن عقد مؤتمر آسيوى فى نيودلهى .. دعت إليه لجنة السلام فى الهند منذ بضعة أعوام .. وقد قرروا فى هذا المؤتمر عقد المؤتمر التالى على نطاق آسيوى إفريقى .. فى القاهرة .

ــ وما لنا نحن ، وهذا المؤتمر ؟

ــ لأنه مؤتمر تضامن للشعوب الآسيوسية الإفريقية .

— تنظمه لجان السلام الشيوعية ؟

— أيا كان الذى ينظمه .. إننا نؤيد مبادئه وأهدافه ونؤمن بما يمكن أن يحققه التضامن الآسيوى الإفريقى .. وما تجربة مؤتمر باندونج ببعيدة .. ثم إننا يجب ألا نكفر بالمعانى الطيبة لمجرد كفرنا بالناطقين بها .. فمن غير المعقول ألا نؤمن بدعوة السلام لأنها نابعة من مصدر شيوعى .. إن من واجبنا أن نشارك فى كل دعوة طيبة .

— حتى لو كانت ستاراً لبث مبادئ معينة ؟!

— واجبنا فى هذه الحالة يصبح أكثر حيوية حتى نخلص الدعوة الطيبة من كل ما يشوبها ، وحتى نجعلها تسير فى طريقها الحقيقى بدلا من أن تكون مطية .. لهذا المبدأ أو ذاك ..؟!

— أجل .. معك حق .. لا يجب أن ننصرف عن دعوة السلام لأن منظمات شيوعية تدعو إليه ، بل أن نؤكد دعوة السلام من أجل السلام .. وأن نستفيد من كل جهد يؤيد الدعوة أيا كان مصدره .

— كذلك التضامن الآسيوى الإفريقى .. إننا نؤمن بأهدافه .. نؤمن بأن الشعوب التى تشاركت الآلام والآمال ، والتى تقاتل المستعمر الذى يستغل أراضيها وينهب مواردها .. يمكن أن تتضامن من أجل استرداد حريتها وتحقيق رخائها .. من أجل هذا يجب أن نؤيد دعوة التضامن ، ونؤكد أنها للتضامن لا لغيره .. وألا نسمح لأحد أيا كان أن يستغلها .

— ومن أجل هذا تريد أن ترسل سامى ؟

— ومن أجل هذا أيضا .. لا يريد الشيوعيون هنا أن يرسلوه .

— لأن الدعوة حكر لهم ؟!

— جائز .

وصمت « سليم » برهة .. ثم نهض واقفا وهو يقول فى إصرار :

— سأحضره لك .. أينما كان .

— غدا !؟

— على الأكثر .

وغادر « سليم » الحجرة .. وانطلق إلى الخارج .

ومضت الساعات وهو يحاول عبثا أن يعرف أين ذهب سامى وأخيرا عاد إلى الجريدة .

وأبصرت « فايزة » علامات القلق والاهتمام فى ملامحه فتساءلت :

— خيرا ؟ لماذا طلب سامى ؟

— يريد أن يرسله بعد غد إلى القاهرة .

— فى اللجنة التحضيرية !؟

— أجل .

وهزت « فايزة » رأسها فى أسف وقالت :

— كدت أذكره بها قبل أن يرحل .

— ولماذا لم تفعلى !؟

— لم أتصوّر أنه يمكن أن ينساها .

— إنه تناساها !

— لم تكن هناك فائدة إذا من محاولة تذكيره بها .. اللهم إلا إحراجه .. وكسفتى .

وجلس « سليم » على مقعده .. وحاولت « فايزة » أن تعود إلى حجرتها ؛ ولكن « سليم » أشار لها إلى المقعد وهو يسحب آلة التليفون قائلا :

— اجلسى .. إنى فى حاجة إلى معونتك .. لا بد أن نحضر سامى بأى وسيلة ومن أى مكان .

وبدا الضيق على وجه « فايزة » . وهى تتصور هذا الـ « أى مكان » وقالت وهى تحاول أن تهم بالانصراف مرة أخرى :

— وماذا أستطيع أن أفعل ؟!

ــ تساعدينني .. اجلسى .

وجلست « فايزة » وأمسك سليم بالسماعة .. وطلب الترنك قائلا :

ــ أعطنى بيروت .. مكالمة شخصية عاجلة .. للأستاذ سامى كرم .. فى الكابيتول أو برستول أو سان چورج .

والتفت إلى « فايزة » واسترسل يقول :

ــ لا أظنه سينزل فى الجبل وسط كل هذا الثلج .

ولم تجب « فايزة » واستمر « سليم » يقول :

ــ لقد تعوّدنا أن ننزل سويا فى الكابيتول .. ولكن من يدرى ربما قد غير مزاجه .

وعاد « سليم » يحدث عاملة التليفون :

ــ أجل مستعجل .. لأجل رقم ٢١٤٠٧ .

ووضع « سليم » السماعة .. ثم وجه القول إلى « فايزة » متسائلا :

ــ لماذا لا نسأل عليه هناك ؟!

وحاولت « فايزة » التجاهل فتساءلت متغابية :

ــ هناك أين ؟!

ــ عندها .. صاحبة الصون والعفاف .

وبدا الضيق على وجه « فايزة » ولاذت بالصمت .

وعاد « سليم » يسأل :

ــ ما رأيك ؟!

وأجابت « فايزة » فى عناد الصبية :

ــ ليس لى شأن بهذا الأمر .

ــ إذا سأسأل أنا .. أتعرفين الرقم ؟

وهزت « فايزة » رأسها قائلة :

ــ لا .

وحاولت « فايزة » مغادرة الحجرة ، وتضاحك سليم قائلا :

ــ ما الذى يخيفك ؟! إنها « لا تعض » فى التليفون .

وأمسك الدليل وأخذ يبحث عن الرقم قائلا :

ــ هدى .. هدى .. هدى نور الدين .. هذا هو الرقم .. أرجو ألا يكون قد تغير .

ووضع الدليل جانبا ثم أدار القرص بالرقم ، وبعد بضع دقات سمع صوت « أم حبيب » يتساءل :

ــ آلو .. من ؟

ــ من فضلك نحن نريد الأستاذ سامى فى مسألة ...

ــ الرقم خطأ .

وقبل أن يتمكن « سليم » من تكملة حديثه .. سمع صوت السماعة توضع على التليفون .

وهز « سليم » رأسه قائلا :

ــ امرأة متمرّنة .. لم تؤخذ بالمفاجأة .

نحاول مرة أخرى .

وأدار القرص .. ورفع السماعة .. وطالت الدقات هذه المرة .. وبدا كأن العجوز قد صممت ألا ترد .

واستمر الجرس يدق .. حتى ضاقت به .. فرفعت السماعة متسائلة فى غضب :

ــ من ؟!

ــ نحن المسرح .

ــ السيدة غير موجودة .

ــ متى تعود ؟!

ــ لا نعرف .

— وأين ذهبت ؟!

— لا نعرف أيضا .

— ألم تذهب إلى بيروت ؟

وردت العجوز فى تبرم :

— لماذا تسأل إذا ما دمت تعرف أنها ذهبت إلى بيروت ؟

— أريد أن أعرف أين ذهبت فى بيروت .. إن لدينا طلبا عاجلا لها .

— لا أعرف .

— إنها مسألة خطيرة .

— خطيرة .. خطيرة .. ذنبها على جنبها .. ماذا أفعل لها .. إنها لم تعد بعد صغيرة .

— ولكنها ستتضايق لأننا لم نتصل بها .

— لقد قالت لى إنها لا تريد أن يتصل بها أحد .. هى المسئولة .

ودون أن تجيبه العجوز .. وقبل أن تسمح له بكلمة أخرى .. أنهت المحادثة وأغلقت الخط .

ووضع « سليم » السماعة وهز رأسه فى حيرة .. ثم قال كأنه يحدث نفسه :

— كان يمكن أن تدلنا عليه .. فلا بد أن تكون قد سافرت معه .. إنه يتصرف بدون عقل كأنى به قد جن .. هذا الأحمق المأفون .

وعاد « سليم » يقلب فى دليل التليفون وقد شرد ذهنه ..

وبعد برهة تمتم قائلا :

— لماذا لا نطلب المسرح .. لعلهم يعرفون عنها شيئا .

ولم يطل به البحث فى الدليل حتى عرف الرقم وأدار القرص ورد عليه صوت غليظ متحد كأنه يتصارع فى التليفون :

— من ؟

— السيدة هدى موجودة ؟

— لا .

— أين أجدها ؟

— اسأل عنها فى بيتها .. إنها لم تأت من مدة .

— هل أستطيع أن أحدث أحدا من زملائها ؟

وأجاب الصوت فى لهجة ضجر :

— يا أستاذ لا يوجد أحد هنا

— متى يحضرون ؟!

— فى المساء .

ووضع « سليم » السماعة قبل أن يغلقها الرجل فى وجهه .. وقال فى يأس :

— غير معقول .. يذهب هكذا دون أن يخبر أحدا عن مكانه .. هب حادثا قد وقع فى البيت .. وهو يعرف أن أمه مريضة .. ونوبات القلب قد تفاجئها فى أى وقت .. غير معقول أبدا .

٣٢

تحد

خطر ببال « سليم » أن يسأل عن « سامى » فى البيت .. وقبل أن يمد يده ليرفع السماعة دق جرس التليفون وسمع صوت العاملة تسأل :

ـــ أطلبتم بيروت ؟

ـــ أجل .

ـــ تريدون الأستاذ سامى كرم ؟!

وعاد « سليم » يقول فى لهفة :

ـــ أجل .. أجل .

ـــ لم نجده فى أى مكان .

ـــ أسألت فى الكابيتول ؟

ـــ وبرستول وسان جورج .. أى خدمة أخرى ؟!

ـــ شكرا .

وضع السماعة فى يأس .. ثم عاد يطلب البيت .. وردت عليه الخادمة فسألها عن « سامى » .

فأجابت بأنه قد سافر .

وعاد يسألها :

ـــ إلى أين ؟!

وقبل أن تجيبه .. سمع صوت « أم سامى » تسأل صائحة :

ـــ من الذى يتحدث ؟! .

ـــ سيدى سليم بك .

وبعد لحظة سمع صوت « أم سامى » يتساءل فى جزع :
— خير ؟! ماذا حدث « يا سليم »؟!
— لا شيء .. إنى فقط أسأل عن « سامى » .
— ألم يخبرك أنه سافر إلى بيروت .
— لا .
— عجيبة !! لقد ظننت أنك سافرت معه !
— كنت مشغولا بالأمس فلم أره .
— لقد قال إن هناك أعمالا تستدعى سفره .
— ألم يخبرك أين سينزل ؟!
— ومنذ متى كان يخبرنى .. إنه لا يحدثنى عن شيء أبدا . وقد طال سهره فى الأيام الأخيرة حتى بت أخشى على صحته . إنه يرهق نفسه كثيرا بالعمل .
— فعلا .. إننا نمر بأوقات عصيبة .
— ولكن صحته لن تحتمل هذا الإرهاق .. إنه ...
وأحس « سليم » أنها ستدخل فى حديث طويل عن « سامى » وصحته وزواجه .. الحديث المعاد الذى سمعه منها عشرات المرات .. وكان « سليم » قد عوّدها أن ينصت إليها دائما .. ولكنه أحس أن الوقت الذى يصرفه فى البحث عن سامى .. سيكون أجدى عليه من الإنصات إلى شكوى أمه من سوء صحته .. فلم يجد بدا من مقاطعتها قائلا :
— وكيف صحتك أنت ؟!
— تزداد سوءا يوما بعد يوم .
وقبل أن تنطلق فى الحديث عن سوء صحتها قاطعها قائلا :
— سأحضر لزيارتك والاطمئنان عليك .. لقد أبلغنى سامى أنك ترهقين نفسك .. ألا تريدين أى خدمة ؟!
— شكرا .. ربنا لا يحرمنا منك ، عندما يحضر سامى سأخبره أنك سألت

عنه .

ووضع « سليم » السماعة وهو يقول لنفسه :

— لا بد أن أعثر عليه .. غير معقول أن يختفى هكذا .. غير معقول أبدا .

ونظر إلى « فايزة » وهو يقول فى يأس :

— ما العمل !! ليس أمامى إلا أن أذهب إلى بيروت لأبحث عنه فى كل مكان يمكن أن يأوى إليه .. أتأتين معى ؟!

— أنا ؟ غير معقول !

— لماذا ؟

— لأنى .. لأنى .. لا يمكن أن أسمح لنفسى بمطاردته .

— مسألة كرامة ؟!

— سمها كما تشاء .. ولكنى لا أتصور .. أن أذهب وراءهما .

— هما ؟ ماذا تقصدين بهما !؟

— لا شىء .

— هل تعتقدين أنهما سافرا سويا ؟!

وهزّت « فايزة » رأسها فى ضيق وقالت :

— لا أعتقد شيئا .

وقبل أن يرد « سليم » دفع الباب ، وأطل وجه « فؤاد عبد الجبار » النائب ذى الميول الشيوعية وقال ضاحكا :

— حاولت أن أستأذن السكرتيرة فى الدخول .. ولكن لم أجد أحدا .

ونهضت « فايزة » ومدت يدها للتحية وقد بدا عليها الارتباك ، وقال « سليم » وهو يرد على نظرات فؤاد الوقحة فى شىء من التحدى :

— كنا نتحدث فى موضوع السفر إلى القاهرة للمؤتمر الآسيوى الإفريقى .

— حقيقة ؟. لقد أتيت أنا للتحدث فى نفس الموضوع . سمعت أن جدول أعمال اللجنة التحضيرية قد أرسل إلى الأستاذ سامى .. هل أستطيع أن أحصل

على صورة منه ؟

ونظرت « فايزة » إلى « سليم » متسائلة كيف تتصرف ؟

ورفع سليم حاجبيه فى دهشة متسائلا :

ـــ جدول أعمال اللجنة ؟ وما لك أنت به ؟

ونظر فؤاد إلى سليم نظرة متحدية وأجاب :

ـــ لأنى سأسافر بعد غد لأمثل اللجنة .

ـــ أنت ؟

ـــ أجل .. لقد رشحت للسفر .. لديك اعتراض ؟

ـــ طبعا .. لأن سامى هو الذى سيسافر .

وفجأة انطلقت قهقهة من فم فؤاد ، ونظر إليه سليم فى غيظ وسأله :

ـــ ما الذى يضحكك ؟

ـــ الظاهر أنك على نياتك جدا .

ـــ ماذا تقصد ؟

ـــ سامى سيسافر لحضور مؤتمر التضامن للشعوب الآسيوية الإفريقية ؟

وانطلق فؤاد يقهقه فى سخرية مرة أخرى .

ونظرت إليه « فايزة » فى غيظ وأشاحت بوجهها عنه إلى « سليم » وسارت متجهة إلى مكتبها . وصاح به « سليم » ناهرا إياه :

ـــ كف عن هذه القهقهة السخيفة .. وقل ما تقصد ؟

وعاد فؤاد يردد :

ـــ سامى يسافر من أجل مؤتمر التضامن الآسيوى الإفريقى ؟! إن لديه تضامنا من نوع آخر .. يمارسه الآن فى بيروت .. قوّاه الله .

وضغط « سليم » على نواجذه وقال له وهو يحاول أن يضبط أعصابه :

ـــ احترم نفسك يا فؤاد .. وكف عن هذا الهراء الذى تهذى به .. إن « سامى » سيسافر إلى القاهرة لحضور اللجنة التحضيرية لمؤتمر التضامن .

ورد فؤاد فى عناد وإصرار :

ـ إن سامى لن يذهب يا أستاذ .. لأنه مشغول فيما هو أهم من التضامن الآسيوى الإفريقى .. مشغول مع هدى نور الدين .. لقد فرّ بها هذا الصباح إلى لبنان .

ـ أنت كاذب .

ـ أتحب أن أحضر لك من شاهدهما هذا الصباح فى نقطة الجديدة .. لقد رآهما عباس مروان الصحفى .. وهما يعبران الحدود فى عربة « سامى » .. الدنيا كلها تعرف ذلك . أما زلت مصرا على أنه سيذهب إلى القاهرة لحضور اللجنة التحضيرية ؟

وكانت « فايزة » تجلس فى مكتبها فى الخارج وقد بدا عليها الألم واليأس وهى تنصت لكلمات فؤاد التى أخذت تندفع من فمه كالطلقات النارية .. لقد كانت تحس أن شيئا من هذا لا بد قد حدث .. ولكنها تمنت أن يبقى مستترا .

ولم تعرف كيف ينوى أن يتصرف سليم .. وأخذت تنصت لما يوشك أن يرد به .

ومضت برهة قبل أن يستطيع « سليم » أن يلم أعصابه ثم قال فى هدوء :

ـ اسمع يا فؤاد .. سامى سيذهب إلى اللجنة التحضيرية . فأرح نفسك وكف عن هذا الضجيج الذى تحدثه والإشاعات التى تنثرها .

ـ إشاعات !! أما زلت تصر على أنها إشاعات ؟

ـ أجل .

ـ إذا أتحداك أن تجعله يذهب إلى اللجنة .

ـ أتحداك أنا .. إنه سيذهب .. أما زلت تريد شيئا ؟

ـ أريد جدول أعمال اللجنة .

ـ لن تأخذه .

ورفع حاجبيه وتساءل فى حنق :

ـــ هكذا ؟

ـــ أجل هكذا .

ـــ انقعه واشرب ماءه .. سأعرف كيف أحصل عليه من أى مكان آخر .

واستدار فؤاد وغادر المكان دون أن يلقى على أحد كلمة تحية .

ولم يكد يغادر الباب .. حتى نادى سليم قائلا :

ـــ فايزة .

واقتربت « فايزة » من مكتبه فى خطوات متثاقلة وقد بدا عليها الأسى .

وفى لهجة حزم وإصرار قال لها :

ـــ سأذهب إلى بيروت .

ـــ لتضرب فيها على غير هدى ؟!

ـــ لا بد أن أجده .. سأمر قبل ذهابى على بيت « هدى » .

وتساءلت « فايزة » فى دهشة :

ـــ بيت هدى ؟

ـــ أجل سأقابل هذه الخادم العجوز .. وسأحاول أن أعرف منها أين ذهبت سيدتها .

ـــ أتظن أنها تعرف ؟

ـــ أعتقد ذلك .

ـــ وستخبرك ؟

ـــ محتمل .. إذا قلت لها السبب بكل صراحة .

وفى الصباح انطلق « سليم » فى عربته متجها إلى بيت « هدى » .

وبعد بضع دقائق كان يدق جرس الشقة .

وفتحت « أم حبيب » الباب ثم نظرت إليه فى تساؤل قائلة :

ـــ نعم !؟

ـــ أنا سليم جبرى .. صديق سامى .

ـــ أهلا وسهلا .
ـــ هل أستطيع أن أتحدث إليك بضع كلمات ؟
ونظرت « أم حبيب » فى تشكك وتساءلت :
ـــ من أجل ؟
ـــ من أجل سامى .
ـــ وما لى أنا به ؟
ـــ أرجوك .. إنه فى مأزق وأنا أريد أن أحصل عليه بأية وسيلة .. إنها مسألة خطيرة .
ـــ وكيف أعرف أين هو ؟
ـــ أنا أعرف أنه سافر مع السيدة هدى إلى بيروت ولا بد أن أتصل به لأحضره لأمر هام جدا .
ونظرت إليه المرأة نظرة فاحصة .. وأحست منه نوعا من الطمأنينة فأفسحت له الطريق إلى الداخل قائلة :
ـــ تفضل .
وخطا خطوتين إلى داخل القاعة .. وأغلقت العجوز الباب وهى تشير إلى أحد المقاعد قائلة :
ـــ اجلس .
ـــ إننى فى عجلة .. ليس هناك وقت .. لا بد أن أسافر الآن إلى بيروت .
ـــ ولكن ...
وصمتت العجوز برهة وعاد سليم يتساءل :
ـــ لكن ماذا ؟
ـــ ولكن ماذا ستقول سيدتى إذا عرفت أنى أعطيتك العنوان ؟
ـــ لن أخبرها أنى عرفت منك .
ـــ إنها ليست بلهاء .. إنها تعرف أنى الوحيدة التى تعرف مكانها .

وصمتت العجوز برهة ، وحار « سليم » .. ماذا يفعل بها ؟ ولكنها ما لبثت أن رفعت رأسها قائلة وهى تحدق فيه :

— اسمع .. من أجل سيدى سامى سأخبرك بما تريد .. إنى أحبه وأكره أن أتسبب فيما يضايقه .. أو يؤذيه .. ولكن كيف أثق فيك ؟

— ألم تثقى فىّ حتى الآن ؟

— لقد أحسست بأنك إنسان طيب .

— إذا قولى وأمرك إلى الله .. وأؤكد لك أنك لن تندمى .

— لقد ذهبت السيدة إلى صوفر فى بيت السيدة « علية » الراقصة .. وقد سمعتها تقول إنه على السفح قبل الفندق .

— فى صوفر !! أواثقة أنت ؟!

— طبعا .

ومد سليم يده يهز يدها شاكرا وهو يقول :

— شكرا .. لن ينسى لك سامى هذا الجميل .

وأطلقت العجوز نفخة ساخرة من أنفها وقالت :

— أرجو أن يكون جميلا حقا .

وتركها « سليم » واندفع يهبط السلم ، وبعد لحظات كان ينطلق بالعربة فى طريق بيروت .

٣٣

حرية الأحباء

أمسك « سامى » كف « هدى » وأخذ يتحسسها بشفتيه قائلا :

ـ أما زلت تحسين بالبرد ؟

ـ قليلا ..

وكانت « هدى » تتمدد على أريكة منخفضة فى غرفة الجلوس ، وقد جلس « سامى » أمامها ، وأشارت « هدى » إلى مدفأة كهربائية وضعت فى ركن الحجرة قائلة :

ـ قرّب هذه المدفأة .

ـ ليس فى سلكها طول يسمح بتقريبها .

ـ لعل هناك بريزة فى مكان قريب ؟

ـ لا أظن .

ـ إذن نقترب نحن منها .

ـ أجر الأريكة ؟

ـ بل نجلس نحن على السجادة بجوارها .

ونهضت « هدى » .. فجلست على حرف السجادة الحمراء بجوار المدفأة وأشارت لسامى قائلة :

ـ أجل .. هنا تحس بالدفء جيدا .

ولكن « سامى » ظل واقفا فى مكانه .. وهو ينظر إلى المدفأة الحجرية المواجهة للأريكة متسائلا :

ـ لماذا لا نوقد هذه المدفأة ؟

ـــ تحتاج إلى حطب وجهد .. تعال .. تعال .

ـــ إنى أحب منظر النار بألسنتها الحمراء المتراقصة فى جوفها .. إن منظرها يوحى بالدفء أكثر من هذه المدفأة الجامدة .. سأذهب لأبحث عن حطب فى المطبخ .

وذهب « سامى » إلى المطبخ ووقف يبحث حوله عن وقود .. ولكنه لم يجد سوى المنضدة والأرفف والثلاجة وموقد الغاز .. وفتح باب المطبخ المؤدى إلى الحديقة .. بعد أن دفع الثلج المتراكم خلفه .. وأحس بلسعة البرد تلفح وجهه .. وخطا بضع خطوات فوق الثلج بعد أن ضم أطراف السترة الصوفية حول صدره .. واتجه إلى حجرة خشبية منخفضة ملاصقة للمظلة التى وضع العربة أسفلها .. وأطل من نافذتها الزجاجية بعد أن أزاح طبقة الثلج التى كست سطحها ، فاستطاع أن يتبين فى أحد أركانها أثاثا محطما ، وفى ركن آخر كوما من الحطب .

ودفع « سامى » باب الحجرة بعد أن أزاح الثلوج المتراكمة أسفله .. وحمل بعض قطع الحطب واتجه بها إلى البيت .. ودخل حجرة الجلوس حاملا الحطب ثم ألقاه بجوار المدفأة قائلا فى مرح :

ـــ عثرت على كنز من الحطب ، سأريك كيف تكون التدفئة .. سأهدى لك قطعة من جهنم .

وردت « هدى » ضاحكة :

ـــ يا ساتر يا رب .. أليست عندك هدية خير من هذه ؟

ـــ وسط هذا الكوم من الثلوج الذى يحيط بنا لا أظن هناك هدية أفضل من النار .

ولم تمض لحظات حتى كان « سامى » ينفخ فى ألسنة اللهب المتصاعدة من جوف المدفأة ليزيدها اشتعالا .

ووقف يفرك كفيه أمام المدفأة .. وقد بدا شبحه طويلا .. عريض المنكبين .

ثم اتجه إلى « هدى » فانحنى عليها ورفعها بين يديه ، وأحاطت عنقه بذراعيها ومدت شفتيها فمست شفتيه وتساءلت :

ــ إلى أين ؟..

ــ سأرقدك بجوار المدفأة .

ــ ثم ؟!!

ــ أبدأ عملية نشاط ضخمة فى أنحاء البيت .

ــ مثل !!

ــ أجهز الحمام .. وأعد الطعام .. و ..

ــ وتكنس الأرض وتمسح البلاط ؟!

ــ لا .. لا .. الأرض يمكن احتمالها هكذا .

وكان « سامى » قد استقر بحمله على الأريكة المواجهة للمدفأة .. ولكنها ما لبثت أن وثبت واقفة ودفعته على الأريكة قائلة :

ــ ارقد أنت أمام المدفأة .. كل ما ذكرت من صميم اختصاصاتى .

ــ لم نأت إلى هنا لنتنازع الاختصاصات .. إن اختصاصك الوحيد فى هذه الفترة هو أن ترقدى وتستريحى .

وأشارت « هدى » إليه بيدها مهدئة .. وردت وهى تسير متجهة إلى الحمام :

ــ ومن قال لك إنى لست مستريحة ؟!.. أتظن هذه الأعمال تستدعى جهدا خارقا .. سأريك كيف أعد الحمام فى ثوان .

ــ والطعام ؟!!

ــ سيكون معدا بمجرد أن تغادر الحمام .

وعبرت « هدى » القاعة إلى الحمام .. ووقفت أمام أسطوانة البوتاجاز وأدارت المفتاح ثم حركت يد الجهاز وأشعلت الثقاب ووضعته داخل الفتحة .. ثم مدت يدها ففتحت صنبور المياه الساخن فتدفقت المياه وأشعلت الجهاز ،

ونظرت « هدى » إلى البخار المتصاعد من المياه المتدفقة فى « البانيو » وقالت ضاحكة وهى تضع السدادة فى البانيو :

— هى شغلانة يا أستاذ .. لقد جهز الحمام .. بعد برهة سيمتلئ البانيو .. وتستطيع أن « تبلبط » فيه كما تشاء .. حتى أكون قد أعددت الطعام .

— غير معقول .

— اسمع الكلام .

— لا أريدك أن تتعبى .

— قلت لك إن هذه أشياء لا تتعبنى أبدا .. إنها تمتعنى . كم مرة تظن الفرصة ستتاح لى لكى أخدمك .. وأتصرف معك كأنك ملكى .

وضمته إليها .. ثم همست فى أذنه :

— إنها فرصة العمر .. فدعنى أستمتع بها كاملة .. دعنى أحميك .. وأطعمك .. وأريحك . دعنى أنسى أن أحدا سينزعك منى مرة ثانية .. دعنى أتصرف كأنى أعيش معك أبدا .

— ولكنك ستعيشين معى أبدا .

— أحلام .. وأمان .. دعنا نصدقها ونستمتع بها ..

دعنى أعيش معك حياتى فى هذه الأيام.. إن المرء لا يعيش حياته مرتين.

وضمها « سامى » إلى صدره فى لهفة قائلا :

— بل سنعيشها مائة مرة .

وتركت « هدى » نفسها تسترخى على صدره .. وصوت المياه يتدفق من الصنبور .. مثيرا طبقة من الضباب أخذت تنتشر فى أنحاء الحمام تاركة على جدرانه طبقة من البخار المتكاثف كأنه العرق .

وانفلتت « هدى » من بين ذراعيه قائلة :

— عندما تنتهى من الحمام ناد علىّ .

وخرجت « هدى » .. لتعد الطعام واستعانت بمقعد فى المطبخ بعد أن

أحست أن الوقفة قد أجهدتها .. وأخذت تفتح علب الطعام وتضعها فى الأطباق .. وأوقدت فرن البوتاجاز حتى تسخن ما يتطلب التسخين .. ثم بدأت تنقل الأطباق لترصها على منضدة مستديرة منخفضة أمام الأريكة فى مواجهة المدفأة .

واستلقى « سامى » فى الماء الساخن والبخار يتصاعد من حوله .. وأغمض عينيه وأرخى أعصابه وأحس كأن كل شىء من حوله قد سكن واسترخى .. وحاول جهده أن يمسك بذهنه ليضع به وسط ذلك السكون والاسترخاء فلا يجعله يفلت منه ليشرد به ويجرّه بعيدا إلى المتاعب والمشكلات والهموم .

واستكان الذهن فأغفى وتمطى .. ولم يحاول أن يتعدى ذلك النطاق المريح فى البيت الهادئ المحاط بالثلوج .. الدافئ القلب بألسنة النيران المتراقصة فى جوف المدفأة ، والبخار المتكاثف بين جدران الحمام .

ولم يوقظ الذهن المسترخى إلا طرقات خفيفة على الباب وصوت رقيق يهتف :

ـــ الطعام جاهز .

وفتح « سامى » عينيه ليجد الوجه الجميل قد أطل عليه بعد أن فتح الباب وقد اتسعت الابتسامة على شفتيه وشاعت السعادة فى وجهه .

وابتسم « سامى » قائلا :

ـــ لم أجد ألذ من استرخاء الماء الدافئ فى يوم زمهرير .

وردت « هدى » عاتبة :

ـــ استرخاءة الماء الدافئ !!

واستدرك « سامى » قائلا :

ـــ والحضن الدافئ .

وضحكت « هدى » قائلة :

ـــ إنه فى انتظارك .

وأغلقت « هدى » الباب وعادت إلى الحجرة لتلقى نظرة أخيرة على المنضدة .. وفى طريقها مرّت بالبار الزجاجى الذى وضع فى ركن البهو وتوقفت أمامه وفتحت ضلفته وألقت على رفوفه نظرة سريعة .

ومدت يدها فأمسكت بإحدى زجاجات الويسكى .

وبدا عليها التردد برهة ، ولكنها لم تلبث أن جذبتها وحملتها إلى منضدة الطعام .. ثم اتجهت إلى الثلاجة فأخرجت قوالب الثلج من « الفريزر » ووضعتها فى طبق بللورى صغير ، ولم تجد أثرا للصودا فجذبت زجاجتى كوكاكولا وسارت إلى حجرة المدفأة .

وخرج « سامى » وقد لف المنشفة حول رأسه ، وضم « البرنس » حول جسده ، ووقف أمام المنضدة يفحص محتوياتها ، وبدت الدهشة فى عينيه وهو يجد زجاجة الويسكى وتساءل قائلا :

ـــ ما هذا ؟

ـــ أتتساءل .. أم تستنكر ؟

ـــ شكل الزجاجة لا يحتاج إلى سؤال .

ـــ استنكار إذن ؟

ـــ ليس بالضبط استنكارا .. ولكنه فقط استفسار .

ـــ عم ؟

ـــ عن من أين أتيت بها .. ولمن .. ولماذا ؟

ـــ من البار .

ـــ صدفة إذن ؟!

ـــ طبعا لأنى لم أحضره معى .

ـــ ولمن ؟

ـــ لى ولك .

ـــ ولماذا ؟

— لى .. لأنى أريده .. ولك .. لكى تجربه .

— أنا لا أحبه .

— وأنا لا أتمسك به .. لكننى تمنيت دائما أن أشربه معك .. كنت إذا ما جلست وسط الحفلات بين الناس وأكرهونى على الشرب .. واحتسيت أول كأس .. طار ذهنى إليك .. وتمنيت لو كنت جليسى .. كان حلما أن أشرب معك .. كم وضعتك أمامى بعين الوهم .. وتناولت منك كأسى .. وناولتك كأسك .. ورشفناها سويا .. رشفة رشفة ، وعيناك تتطلعان إلىّ .. وعيناى ترنوان إليك .. وأترك الكأس وأهمّ بأن ألقى على صدرك رأسى .. ثم أفيق . أفيق لأجد آخر على مقعدك .. وأجدك قد تطايرت وتبدد وهمى فيك .. أفهمت لماذا أريد أن أشرب معك ؟!

— أكاد أفهم .

— إننى أمارس معك كل أحلامى .. أحميك وأطعمك . أمتلكك بلا شريك .. وأتناسى الوقت من حولى .. وأتناسى الناس والظروف .. وأحس أنى وإياك .. قد بتنا على ظهر الأرض وحدنا .. فلماذا لا أشرب معك ؟! أتكره الشرب ؟

— لا أسيغه .

— ولكنك تشربه فى الحفلات .

— عندما أجده ضرورة .. لا مفر منها .

ومدت يدها بالزجاجة وهمت برفعها قائلة :

— لا أحب أبدا أن تفعل معى .. شيئا لا مفر منه .

ومد يده بسرعة وأمسك يدها وأعاد الزجاجة قائلا :

— سأشرب معك .

— كشىء لا مفر منه ؟

— ولِمَ لا او إذا كان حبك نفسه لا مفر منه .

— هكذا ؟!!
— طبعا .
— هل حاولت الفرار منه ؟
— لم أحاول .. لأنى أعرف أنه شيء لا فرار منه .
— هل يضايقك هذا ؟
— أبدا .. لا شيء يمتعنى كإحساسى .. أن حبنا شيء باق . لا نهاية له .. ولا مفر منه .
ورفعت « هدى » الزجاجة وأفرغت الويسكى فى كأسه وردت متسائلة :
— ستشرب من أجلى ؟
— أجل .
— وأنت متضايق ؟..
— بالعكس .. لا يسعدنى قدر أن أفعل ما يسعدك .
وصبت فى كأسها قدرا مماثلا ثم وضعت الزجاجة وتساءلت :
— لم أجد صودا . أيضايقك أن تشربه بالكوكاكولا . أم تفضله بالماء ؟!
وضحك « سامى » قائلا :
— تسألينني كأنى خبير .. أنت أدرى .. بم تفضلينه أنت ؟
— أفضله بالكوكاكولا .
— وأنا أيضا .. على الأقل حتى أضيع طعمه وأحس أنى أشرب كوكاكولا .
ومدت يدها بالكأس إليه وتساءلت :
— قل كيف تراه ؟
ورشف « سامى » رشفة ثم قال ضاحكا :
— محتمل .
ورشفت من كأسها رشفة .. وأغمضت عينيها وبدا عليها كأنها تستمتع جيدا برشفتها ، وتنهدت قائلة :

— بماذا كنت تشعر عندما يضطرك الأمر إلى الشرب ؟

ورشف « سامى » رشفة طويلة أخرى قائلا :

— بلا شيء .

— كيف !! ألا يؤثر عليك الشرب ؟!

— بتاتا .

— ألا تتأثر من الكأس الأولى ؟

— ولا الثالثة .. فقد اضطررت إلى أن أجامل فى إحدى الحفلات .. ثلاثة أصدقاء .. فى ثلاث كئوس .. وضايقنى طعمها .. ولكنها لم تؤثر فىّ أكثر مما تؤثر ثلاثة أكواب من الماء .

— ألم تدخ منها ؟!

— لم أدخ إلا مرّة واحدة .. من كأسين من فودكا فى حجم « الكستبان » .

وضحكت « هدى » وهى تتصور سامى « دائخا » من كأس فودكا وسألته قائلة :

— صف لى كيف حدث ذلك .

— كنت فى طريقى إلى مجلس النواب ومررت بالقنصل الروسى لأترك بطاقة ردا على زيارته .. فوجدت ابنته .. ودعتنى إلى أن أشرب شيئا .. فحاولتُ أن أشكرها ، ولكنها ألحت ، ثم قدمت إلىّ كأسا صغيرة من الفودكا .. وعندما حاولت أن أعتذر بأن الشراب يؤثر على معدتى .. أكدت فى حماس أن الفودكا هى أحسن علاج للمعدة .. ثم دفعت إلىّ بالكأس .. ورفعتها إلى شفتى ودفعتها إلى فمى .. فأحسست بأنى أشعلت فى جوفى لهبا ، ولكنى لم أملك إلا أن أرسم على شفتى بسمة رضاء ، وأن أؤكد لها أنى استمتعت بالكأس وأن معدتى قد أصبحت كالحديد ، ولم أكد أهم بالانصراف ، حتى وجدت القنصل قد عاد .. ورحب بى الرجل وأصر على استبقائى .. لكى يقوم بواجب الضيافة ، وقدم لى كأسا من الفودكا .. وحاولت أن أعتذر له ، ولكن الكأس كانت أقرب إلى

شفتى من الاعتذار .. ومرة أخرى أحسست بالحريق يشتعل فى جوفى .. وعندما حاولت النهوض أحسست بالأرض تدور بى .. كما كانت تفعل عندما « أركب المراجيح » .. وأسقط فى يدى ولم أعرف كيف أخرج إلى الطريق ولا كيف أذهب إلى مجلس النواب .. وكيف أواجه الأعضاء .

واستغرقت « هدى » فى الضحك وتساءلت :

ـــ وماذا فعلت ؟

ـــ بستر من الله ، استعدت توازنى .. وكفت الأرض عن التأرجح تحت قدمى . وأسرعت بمغادرة الدار عندما رأيت زوجة الرجل مقبلة وأحسست من معالم وجهها أنها مصرّة على إكرامى .. بكأس ثالثة .

ورشف « سامى » رشفة طويلة أخرى من كأسه .. كادت تأتى على البقية الباقية منه .

وأحست « هدى » أنه شرب كأسه بسرعة فصاحت به ضاحكة :

ـــ ما هذا .. يا أستاذ !! حيلك .. لماذا تسرع فى احتسائها كأنها ماء .. وكأنك تريد أن تتخلص منها على أى وجه ؟!

ـــ كيف تريديننى أن أشربه ؟!

ـــ رشفة .. رشفة .. استمتع به .

وضحك « سامى » قائلا :

ـــ ولكن الواقع أنى لا أستمتع به .. لأن طعمه لا يعجبنى .

ـــ أنا معك .. ولكن تظاهر أن طعمه يعجبك .. واحتسه بإمعان .. واستمتاع .. وتصوّر أنه سيسبب لك نشوة ويسعدك .

ـــ أنا أستطيع أن أتصوّر هذا من غير شرب كأس .. أنا أعرف أنها حالة وهم وليست واقعا .. وأنا أستطيع أن أوحى لنفسى أنى انتشيت ، وأن أنتشى من غير أن أشرب .. وأية مجموعة من الصحاب يمكن أن يوجدوا أنفسهم فى حالة نشوة من مجرد اجتماعهم وتحللهم من القيود .. وانطلاقهم على سجيتهم .. بلا تكليف

ولا تزمت .. فتشف نفوسهم .. وترهف أحاسيسهم .. وتتضاعف قابليتهم للانفعال :. تضحكهم أتفه النكات .. وتزعجهم أخف الآلام .. ويفصحون عن خبايا صدورهم .. من أقل إثارة .. ولأوهى سبب .. ذلك ما تفعله نشوة الكأس .. مجرد حالة .. يمكن أن يوحى به من غير كأس .

ورفعت « هدى » الكأس إلى شفتيها ، وهى تحتسيها فى بطء واستمتاع قائلة :

— ربما .

— هل تستمتعين حقا .. بطعم الويسكى ؟

— لا أظن .. إنى أستمتع باحتسائه ، وليس بطعمه .. لأنى قد عوّدت نفسى على طعمه .

— أنا لم أعوّدها بعد .

— إذاً فتمهل فى الشرب حتى تتعوّدها .. ولا تجرعها هكذا كالدواء .. لماذا لا تمنحنى متعة الشرب معك ؟

وضحك « سامى » ثم مد يده بالكأس قائلا :

— لا تغضبى .. سأشرب هذه الكأس كما تريدين .. سأستمتع بها .. وأمتعك .

وملأت كأسه بعد أن أفرغت فيها بقية زجاجة الكوكاكولا . وبدأ « سامى » يرشفها فى بطء واستمتاع . وتساءل ضاحكا وهو ينظر إلى الأشعة الحمراء المتراقصة فى المدفأة :

— أيعجبك هذا ؟!

— أيعجبك أنت !؟

ووضع الكأس على المنضدة .. ثم مال حتى اتكأ برأسه على كتفها ومس عنقها بشفتيه وقال :

— لا يعجبنى سواك .. أيتها الغبية أنت أمتع ما فى الوجود .. أمتع من

الخمر .. وأدفأ من نيران المدفأة ، ومن بخار الحمام .. وأبهر من سنا الثلج الأبيض .. كل هذه الأشياء الممتعة التى حولنا .. أنت أمتع منها .. ما أحسست أبدا بالملل منك .

ومد يده فجذب مجلة ملقاه بجواره ، وقال لها ضاحكا .. وهو يشير بأصبعه إلى جزء من إحدى صفحاتها :

ـــ اقرئى هذا .

ـــ ماذا به ؟!

ـــ اقرئى .

ـــ خبر عنى ؟

ـــ لا .. لا . سأقرألك أنا . اسمعى .. اسمعى .. « لكى تعرف ما إذا كنت تحب إنسانا ما .. حاول أن تقضى معه سبع ساعات .. فإذا استطعت أن تجلس وإياه وحيدين بلا ملل .. فأنت بلا جدال تحبه » .

وتساءلت « هدى » ضاحكة :

ـــ سبع ساعات فقط .. أمجنون هذا الكاتب ؟!

ـــ لا جدال فى أنه لم يجرّب الحب .. إنى أحس بعد أن أقضى معك سبع ساعات .. أن أسوأ ما يحدث لى هو أن أنتزع منك .

ـــ إن السبع ساعات تمر بنا كأنها السبع دقائق .

ـــ لقد مرت بنا عشر ساعات .. وكأننا لم نصل إلا هذه اللحظة .

ـــ عشر ساعات !! مرّت بنا عشر ساعات ؟! لماذا يعدو بنا الزمن هكذا ؟! لماذا لا يتمهل ؟!

ـــ دعك من الزمن الآن .. دعيه يمر كما يشاء .. إننا على الأقل .. لن نقف بالباب ليودع أحدنا الآخر .. ولن يفر أحدنا من بين ذراعى الآخر ليرى الساعة ، ثم يعدو ليرتدى ملابسه وينطلق فى ظلمة الليل .

ـــ ليترك الآخر يتقلب وحده فى الفراش ويحتضن الوسادة .

— بل سنظل أمام المدفأة ، يطبق كل منا على صاحبه .. ويستمتع بأنفاسه .. حتى يطبق النوم أجفاننا فننام .. ونستغرق فى النوم .. دون أن نكلف أنفسنا حتى مشقة الذهاب إلى الفراش .. ودون أن نخشى أن يسرقنا النوم .. سنسترخى عندما يحلو لنا الاسترخاء .. وننام عندما يهاجمنا النوم .. ونستيقظ عندما نتمطى ونتثاءب ، ونحس بأننا أحرار فى أن ننام .. أو نستيقظ .. ونتحرّك فى الفراش ببطء .. لننام ونستيقظ ثانية ، وننعم بكل ما نملك من حرية الأحباء .

٣٤

انحدار

مرت الليلة الأولى « بسامى وهدى » .. وهما يستمتعان بما سماه سامى « حرية الأحباء » .. واسترخى الاثنان على الأريكة المنخفضة أمام المدفأة ، متعانقين .. كأوثق ما يكون العناق .. وأحر ما تكون اللهفة .. وأشد ما يكون الارتباط والحب .. وأهدأ ما تكون السكينة والطمأنينة .

واستيقظ « سامى » خلال الليل .. فوجد المكان غريبا عليه لأول وهلة .. وحاول أن يتحسس موضعه من الحجرة كما تعوّد أن يفعل فى حجرته فى البيت .. أو فى حجرة « هدى » فى دارها .. حاول أن يتصور باب الحمام ومكان التسريحة والدولاب .. ولكن معالم المكان بدت غريبة .. ومرت برهة وهو يحاول أن يتذكر أين يكون .. دون أن يميز مما حوله .. إلا الوجه الرقيق المختبئ فى صدره .. والذراع الحانية التى تضمه فى رفق .. وجمرات حمر تشع بضوء خافت فى أقصى المكان كأنها مصابيح آخر الليل .

ورويدا رويدا .. عادت إلى ذهنه تفاصيل المكان بالجمرات داخل المدفأة الحجرية .. والأريكة المنخفضة والبيانو فى ركن الحجرة .. وباب الشرفة الزجاجى وقد تساقطت عليه الثلوج وبدا من وراء زجاجه ضوء السماء الشاحبة وقد تكدست فيها السحب .

وتملكه إحساس ممتع بالسكينة وهو يشعر بما يمنحه له المكان من طمأنينة واستقرار داخلى وخارجى .. ودفء لقلبه وروحه وجسده .

وضم « هدى » إليه . ثم مس شفتيها فى رفق .. فزمت شفتيها ترد القبلة على غير إدراك منها وبلا إرادة .. كما تتقلص عضلة النائم لصد الوخزة بغير وعى

ولا يقظة .

وزادت « هدى » انكماشا فى صدره .. واشتد ضغط ذراعها عليه .. كأنها تقاوم قوى تبغى انتزاعه منها . وقابل « سامى » ضمتها بضمة أشد يؤكد بها أنه موجود وأنه باق .. وأنه أشد تشبثا بها وإصرارا عليها .

واسترخت « هدى » بين أحضانه ، وما لبث حتى أرخى ذراعيه حولها ، ثم استسلم للنعاس وأغفى فى هدوء وسكينة

ولم يعرف كم طال به النوم .. حتى استيقظ مرة أخرى وكأن يدا تدفعه فى عنف .

وفتح عينيه هذه المرة وهو على أتم الوعى بما حوله .. ليقع بصره على الحجرة واضحة فى ضوء النهار الذى تسرّب من زجاج الشرفة فأظهر معالمها وأخفى وهج الجمرات الحمر القابعة فى جوف المدفأة متشحة بالرماد الأبيض .

ولم يعرف ماذا أيقظه حتى عادت الطرقات تدق الباب فى شىء من الإلحاح والعنف .

وفتحت « هدى » عينيها ونظرت إليه فى وجل المفزوع من نومه ، لتجده قد نهض بنصفه الأعلى وقد بدت فى وجهه علامات القلق والدهشة .

وتساءلت « هدى » فى جزع :

ـــ ما بالك ؟

ـــ طرقات على الباب .

وأنصتت « هدى » ، وكان الطرق قد كف .. وبدا لسامى كأن الطارق قد أصابه اليأس فانصرف ، واسترخت « هدى » فى الفراش وهى تحيطه بذراعيها قائلة :

ـــ لابد أنك واهم .

وقبل أن يجيبها « سامى » ، رد عليها الطارق بمزيد من الطرقات الملحة .

وأزاح « سامى » الغطاء ، وهمّ بالنهوض .. ولكن « هدى » تشبثت به

متسائلة :

— إلى أين ؟

— أفتح الباب .

وعادت « هدى » تتساءل فى دهشة وسخرية :

— لماذا ؟.. أتنتظر أحدا .

وهز « سامى » رأسه وتساءل بنفس السخرية :

— أنتظر أحدا هنا ؟

— إذن لماذا تريد أن تفتح ؟

— أنتركه يدق إلى ما شاء الله ؟

— ... بل إلى ما شاء هو .. أو ما شاءت تلامته .. ثم .. لا أظنه إلا الزبال .. يطلب الزبالة .

— زبال هنا ؟ فى هذا المكان المقفر !

— ولِمَ لا !! أبصر دخان المدفأة .. فظن بالبيت ناسا .. وظن للناس مخلفات .. فأتى ليحملها ويسترزق .

وعاد الطارق يدق فى إلحاح ، وزاد الانزعاج على وجه « سامى » .. ووثب من الفراش دون تردد وهو يقول :

— حتى لو كان زبالا .. فلماذا لا نصرفه بالحسنى حتى يكف عن طرقاته المزعجة .

وقبل أن يترك « سامى » الغرفة وثبت « هدى » من الفراش متسائلة فى جزع :

— وإذا لم يكن زبالا ؟

وتوقف « سامى » فى مكانه وردد سؤالها وهو يلتفت إليها :

— إذا لم يكن زبالا ؟

— أجل .. إذا لم يكن زبالا .. أو بائع صحف أو بائع لبن .. أو أحدا من

طارق أبواب الصباح .. أعنى إذا كان طارقا أخطر من هؤلاء .. أمن الحكمة أن نفتح ؟

ـــ أخطر من هؤلاء .:. مثل من ؟

ـــ أى إنسان يلاحقنا .

ـــ أتتوقعين أن يلاحقنا إنسان ؟

ـــ ولِمَ لا .

ـــ يلاحقك أنت .. أم أنا ؟

ـــ أو نحن معا !!

ـــ لا أظن أحدا يعرف أين نحن .. على الأقل من ناحيتى أنا .

ـــ ولا أحد يعرف أيضا من ناحيتى أنا .. اللهم إلا أم حبيب ، ولست أحسن الظن بها حتى أتصور أنها تلاحقنا هنا .

ـــ إذن من نخشى ؟

ـــ من يدرى ؟

وعاد الطارق يدق .. وقد بدا مصرا على ألا ينصرف .

وأمسكت « هدى » بذراع سامى وجذبته داخل الحجرة وهمت هى بالخروج قائلة فى إصرار :

ـــ سأفتح أنا .. ابق أنت داخل الغرفة .

وأعادها « سامى » إلى الحجرة ورد قائلا :

ـــ ما هذا ؟! تخرجين أنت لتفتحى وأبقى أنا هنا .. أنت مجنونة ؟

ـــ ولِمَ لا .. إذا كان الزبال سأصرفه .

ـــ وإذا كان واحدا ممن تتصورينهم ؟

ـــ سأصرفه أيضا .

ـــ كيف ؟

ـــ أخبره أنى أقضى هنا دور النقاهة .. وأنى أريد أن أستريح .

— وتتخيلين أنه سينصرف ؟

وبدت الحيرة على وجه « هدى » .. واسترسل « سامى » قائلا :

— أتظنين أنه قد أتى من دمشق إلى هنا .. لكى ينصرف بمجرد أن يعلم أنك هنا للنقاهة .. كأنه لا يعرف .. أن هذا أدعى لبقائه .

وازدادت الحيرة بهدى .. وصمت « سامى » برهة وهو يرقب انفعالاتها ثم قال فى شىء من السخرية :

— اللهم إذا كنت تنوين استضافته معنا .

ونظرت إليه « هدى » فى لوم قائلة :

— كف عن هذا المزاح السخيف .

وجذبها « سامى » وضمها إليه ثم دفعها نحو الفراش وقال فى لهجة أكثر مرحا وأشد طمأنينة :

— اجلسى هنا .. سأرى هذا السخيف الذى يلح على الطرق كأن حياته معلقة بالدخول .. وسأعرف كيف أصرفه أيا كان .

واتجه « سامى » إلى البهو .. وبعد لحظة كان يدفع المزلاج ويفتح الباب ليجد أمامه سليم وقد تساقط الثلج على شعره وفوق كتفيه .

وهتف « سليم » وكأنه يلقى بحمل من فوق كتفيه :

— أخيرا .

ومضت برهة وسامى ينظر فاغرا فاه وقد ارتسمت على ملامحه أقصى معالم الدهشة ، وهو يتساءل :

— سليم !! ماذا أتى بك إلى هنا ؟! كيف عرفت ؟

ونظر إليه « سليم » وهو ينفض عن رأسه الثلج الذى تساقط على أنفه وقال وهو يمد يده ضاحكا :

— أتنوى أن تتركنى هنا وسط الثلج .. أم ستسمح لى بالدخول ؟

— طبعا .. طبعا .. !! تفضل .. ادخل .

وجذبه من يده إلى الداخل ، ورأسه يموج بالأفكار والوساوس والأوهام .

وقبل أن يستقر « سليم » على المقعد .. أمسك « سامى » بذراعه وسأله فى جزع كأنما انتابه خاطر مفاجئ :

ــ هل جرى لأمى شىء ؟.

وهز « سامى » رأسه مؤكدا :

ــ أبدا .. أمك بخير .. لقد حدثتها بالأمس وهى فى أتم صحتها .

ــ ما الذى أحضرك إذن ؟! وكيف عرفت ؟! وماذا ؟

ــ يا أخى .. دعنى ألتقط أنفاسى .. سأخبرك بكل شىء .

ــ أريد أن أطمئن .. ألم يحدث شىء مزعج ؟

ــ حتى الآن .. لا .

ــ إذن ماذا أحضرك ؟

ــ حضرت لآخذك .

ــ من أجل ؟

ــ السفر إلى القاهرة .

ــ لمه ؟

ــ لحضور المؤتمر الآسيوى الإفريقى .

ونظر إليه سامى فى غيظ ودهشة وتساءل كأنه لا يصدق :

ــ المؤتمر الآسيوى الإفريقى !! أمعقول هذا ؟

ــ ولِمَ لا !

ــ لأنى أولا .. قد اعتذرت عن الذهاب .. وثانيا .. لأن موعد الاجتماع لم يحن بعد .

ــ اعتذارك لم يقبل .. وموعد الاجتماع بعد باكر ، ولابد من أن تسافر غدا .

ــ لابد !! ماذا تعنى بلا بد ؟

— أعنى كل ما يمكن أن تعنيه هذه الكلمة .

— تعنى أنى سأسافر أردت أم لم أرد ؟! ألا تعرف أنى لا أقبل قط أن يرغمنى أحد على شيء .

— ليس هناك إرغام .. ستسافر لأن هناك ضرورة قصوى لسفرك .

— لست أرى هذه الضروة القصوى .

— عندما أقص الظروف التى تلابس الموضوع سترى بنفسك مدى ضرورة سفرك .

— ولكن هذا غير معقول .. هب أننى مت مثلا .. ماذا ستفعلون ؟

— لا داعى لهذه الافتراضات الصبيانية .. لأنك ما زلت على قيد الحياة .. وتستطيع السفر .

— لكنى لن أسافر .

ورفع « سليم » كفيه مسلما فى يأس :

— أمرك !! كل ما أستطيع أن أفعل هو أن أنقل لك المسألة بحذافيرها .. وأنت وشأنك .. تذهب أو لا تذهب .. إذا كنت تصر على أن تتخلى عن واجبك .. من أجل متعة بضعة أيام .. فهذا شأنك أنت وحدك .. لقد فعلت أنا كل ما استطعت لكى أعثر عليك وأبلغك حديث عبد الوهاب بك .

— ماذا قال عبد الوهاب بك ؟

وقبل أن يجيب « سليم » سمع « سامى » حركة فى حجرة الجلوس وأحس بما يمكن أن يكون قد أصاب « هدى » من قلق .. فاتجه إلى باب الحجرة قائلا لسليم :

— عن إذنك .. دقيقة .

وفى الحجرة وجد « هدى » وقد ارتدت ثوبها الرمادى الفضفاض الشبيه بالروب ومشطت شعرها ووقفت بجوار المدفأة وقد بدت عليها أمارات الضيق والقلق .

وأقبل عليها « سامى » قائلا فى صوت خافت :

ـــ إنه سليم .

ـــ أعرف .

ـــ لقد حضر لكى يطلب سفرى إلى القاهرة لكى ...

وقاطعته « هدى » وهى تتنهد فى يأس :

ـــ سمعت كل ما قال .

ـــ وما رأيك ؟

ـــ رأيى .. أننى إنسانة منحوسة !! حتى بضعة أيام .. أحاول أن أحيا فيها .. كما يحيا الأحباء .. يأباها علىّ القدر !! لم أطلب أكثر من بضعة أيام .. ينسانى فيها القدر .. والناس .. والشقاء .. والمتاعب .. يغفلون خلالها أعينهم .. وذاكرتهم .. وينسون أنى كائنة .. فأبوها علىّ .

وأحس « سامى » بما فى صوتها من لوعة .. فأجابها هامسا وهو يتحسس فى حنان عنقها وخدها وأنفها وشفتيها :

ـــ لا تأخذى المسألة بمثل هذا اليأس .. إن العمر أمامنا طويل .. ولن نعدم فيه أياما أخر .. تضمنا بعيدا عن الناس والمتاعب .

ورفعت إليه عينين كستهما طبقة تترقرق من الدمع وسألته فى يأس :

ـــ ستذهب إذن ؟

ـــ سأستمع إليه .. لأعرف تفاصيل المسألة .

ـــ ثم تذهب ؟

ـــ إذا كان هناك ضرورة فلا بد أن أذهب .

ـــ أضاقت الدنيا كلها إلا عنك .. لماذا لا يرسلون أحدا بدلا منك !

ـــ لو استطاعوا لفعلوا .. ولما تكلف سليم مشقة البحث عنى والمجىء إلى هنا .

ـــ إنهم يلقون عليك كل شىء .. لم أر إنسانا يقسو على نفسه من أجل الغير

مثلك .. أليس من حقك أن ترتاح !

— ليس هذا وقته يا هدى .. سأستمع إلى تفاصيل الموضوع من سليم .. وسأرى ما يجب أن أفعله .. تعالى لتسلمى عليه .

— إنى أكرهه .. لقد كان دائما ضدى .

— اكرهيه كما تشائين .. ولكنى أظن أنه من اللائق أن تسلمى عليه .. حتى لا يظن أنى أخفيك عنه .. تعالى .

وخرج « سامى » من الغرفة تتقدمه « هدى » .. ورفع « سليم » رأسه ليواجه وجهها .. ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يؤخذ بجمالها .. رغم روح الخصومة التى كانت تسيطر على كل مشاعره نحوها .

كان يتوقع أن يرى وجه غانية .. أضاع الرقاد عن وجهها مساحيق الزينة وأصباغها .. فغدا لونها أصفر شاحبا .. ومسح الخطوط عن حاجبيها والكحل عن رموشها ، ونفخ النوم جفونها ، فغدا وجهها أقرع « كالبطاطس » .

كان يتوقع أن يرى وجها أذبله السهر والجهد .. ولم يبق من جماله سوى تقاطيع تحتاج إلى قناع دائم من الأصباغ لكى يبرز جمالها .

ولكنه أخذ عندما أبصر وجها صبوحا .. صافى البشرة .. مورد الوجنتين .. كأنه وجه طفلة حلوة .. ولمح بياض أسنانها وهى تبتسم محيية إياه بابتسامة يشوبها شىء من الحياء لم يتوقعه منها .

واتخذت « هدى » مقعدها أمامه .. وجلس « سامى » بجوارها ، وتملك « سليم » إحساس بالاضطراب والارتباك ، وهو يشعر أنه قطع على عاشقين خلوتهما .. وأحس أن عليه أن يقدم نوعا من الاعتذار بعد أن هزت « هدى » .. بمجرد شكلها وأسلوبها فى اللقاء والتحية .. إحساس الخصومة والتحدى من نفسه ودفعت فيه ميلا إلى التعاطف والفهم .

وتمتم سليم محاولا الاعتذار :

— أنا متأسف على ما فعلت من إقلاق .

وأخذت « هدى » باعتذاره ولهجته الآسفة .. وأحست أنها قد بالغت فى تصور خصومته .. وأجابت فى لهجة رقيقة :

ـــ أبدا .. يسعدنا دائما أن نراك .

وضحك « سليم » وهو يرى مدى ما فى قولها من مجاملة منافية للواقع ، ورد قائلا :

ـــ جائز أن يسعدكم لقائى .. ولكن ليس فى هذا الوقت أو فى هذه الظروف .

وصمت برهة يستجمع أفكاره ، ثم استرسل قائلا :

ـــ إنى أعرف جيدا .. مدى ما فى زيارتى من إزعاج ، ولكنى أعرف أيضا أن المسألة تستدعى أن أقوم بهذا الإزعاج .. وأعرف أيضا أنك تحرصين على مصلحة سامى أكثر مما نحرص عليها جميعا .

وتنهدت « هدى » وهى تتمتم قائلة :

ـــ طبعا .

واستمر سليم يقول :

ـــ لقد سأل عبد الوهاب بك عنك ، ودهش من غيابك المفاجئ .. ثم طلب منى الذهاب إليه ، وهناك أخبرنى أن موعد الاجتماع قد قرب ، وطلب سفرك بصفة عاجلة .. وقد عرضت عليه الذهاب بدلا منك .. ولكنه أصر على ضرورة سفرك أنت بالذات إلى المؤتمر .. لأن الشيوعيين يصرون على ألا تسافر .

وهتف « سامى » متسائلا فى دهشة :

ـــ الشيوعيون .. لماذا ؟

ـــ لأنهم لا يثقون بك .

ـــ وأنا أيضا لا أثق بهم .

ـــ إنهم واثقون من هذا .. وهم يعتبرون المؤتمر منطقة نفوذ لهم .. ونحن نريد أن يكون المؤتمر .. منطقة نفوذ للشعوب الآسيوية الإفريقية .. ومن أجل هذا

قال عبد الوهاب إن الرضوخ لهم وإقصاءك عن المؤتمر معناه التسليم بما يريدون .

ونظر سامى إلى سليم متشككا .. ورفع حاجبيه متسائلا :

ــ أتقول هذا لتحمسنى للذهاب إلى المؤتمر ؟!

ــ بل أقوله كحقيقة واقعة .. أكدها حضور فؤاد عبد الجبار لمكتبنا ومحاولته أن يحصل على جدول أعمال الاجتماع قائلا إنه سيحضر الاجتماع .. ثم سخر منى عندما قلت له إنك ستذهب .. وأكد أنك لن تذهب .

ــ هو قال هذا ؟

ــ أجل .

ــ لماذا ؟

ــ لأنه .. لأنك ...

وصمت « سليم » وقد بدا عليه التردد .. وعاد « سامى » يتساءل فى إلحاح :

ــ لأنى ماذا ؟!

ــ لأنك قابع هنا بين أحضان هدى .

ورفعت « هدى » عينيها فى دهشة ثم أطرقت .. وتساءل « سامى » فى غضب :

ــ هو قال هذا ؟! من أدراه ؟

ــ قال إن الدنيا كلها تعرف .

ــ كيف ؟

ــ صحفى رآكما فى الحدود عند الجديدة فأشاع الخبر فى كل دمشق .

وأحس « سامى » بخليط من الغضب والضيق واليأس يعتم نفسه ، وتملكه الوجوم ، فلم ينبس بكلمة وأخذ يطرق الأرض بقدمه فى عصبية .

وكان « سليم » أول من قطع الصمت بقوله :

ــ من أجل هذا حضرت إليك .. لا بد أن تعود وتقطع ألسنة السوء ..

وتقضى على كل هذه الشائعات التى يحاول فؤاد إثارتها .. إن مجرد وجودك فى دمشق اليوم وذهابك غدا إلى القاهرة كفيل بأن يسكتهم .

وتنهد « سامى » وتساءل فى صوت خافت وهو يحس أن المسألة أخطر مما تصور :

— أتظن هذا ؟

— بل أؤكده .

ونظر « سليم » إلى « هدى » التى التزمت الصمت وقد خيمت على وجهها سحابة أسى :

— ما رأيك يا هدى ؟

وازدردت « هدى » ريقها وقالت فى صوت خافت :

— إنك على حق .. لا بد أن يعود .

— وأظن من الخير أن يعود وحده .. خشية أن يراكما أحد معا .. وسنلحق به فى عربتى .

وأحست « هدى » كأن يدا قاسية تلوى عنقها وتجذب « سامى » بعيدا عنها .

إن هذا يعنى الفراق العاجل .. الآن .. حتى وحشة الطريق .. لن يؤنسها وجوده .

وتخيلت العودة بدونه .. وحيدة فى هذا الطريق الطويل مع الثلوج التى تبدو كأنها أكفان تلف الكون .

عجبا لنفوسنا .. كيف تقلب .. الحلاوة مرارة .. وكيف تجعل من الحليب الأبيض .. أكفانا بيضا .

ولم تجد « هدى » معنى للمقارنة .. وجمدت الكلمات على شفتيها .. فلم تملك إلا أن تقوم وكأن عبئا يثقل كاهلها وينقض ظهرها .. وتحركت تجاه الحجرة كأنها حطام معركة تجرجر أذيال الاندحار .

ونهض « سامى » وهو يتمتم معتذرا لسليم :

— بضع دقائق حتى نرتدى ملابسنا .

ثم توقف قائلا :

— أأعد لك فنجانا من الشاى ؟

— لا داعى .. نخشى أن يضيع الوقت .

ودخل « سامى » وراء « هدى » إلى حجرة النوم ، وفى صمت حزين ارتدى كل منهما ملابسه ، وحزم حقيبته .

ووقف أمام جمرات المدفأة التى حجب الرماد وهجها ثم مد يده فجذب دورق المياه وسكبه فوق الجمرات .. وتصاعد البخار منها ، وتعالت الفقاقيع ، وما لبثت أن خمدت .

وتنهد « سامى » وهو يرقب فى المدفأة قطع الفحم السود ثم نظر إلى « هدى » .. فإذا بها تقاوم طبقة من الدموع جعلت تسيل من عينيها ، وتنساب على خدها حتى جانب شفتيها ، وكعادتها مدت طرف لسانها فلعقت دموعها ، ولم يطق « سامى » النظر إلى دموعها ، وخشى أن تجر معها دموعه .. فهمس بها وهو يتجه إلى خارج الغرفة حاملا الحقيبتين :

— هيا بنا .

٣٥

أكثير علىّ ؟

انطلق « سامى » بعربته إلى دمشق ، وبعد برهة كانت « هدى » تستقر فى عربة « سليم » بعد أن أغلقت باب البيت .

وتحرّك « سليم » بعربته فى صمت ، وهو يحس كأن سحابة خانقة من الحزن واليأس قد خيمت عليهما .

وطال الصمت الحزين ، وهو حائر كيف يقطعه .. كان يشفق على جارته أن يثير فى نفسها شجنا كامنا .. ولكنه كان يحس أن ثمة أشياء فى نفسه يجب أن تقال .. وأن هذه هى فرصتها .

وهبت موجة من الضباب .. أو الغطيطة .. أعتمت الطريق .. فلم يستطع « سليم » أن يرى أكثر من بضع خطوات أمام العربة .. فهدأ السرعة .. ووجدها فرصة سانحة لأن يقول شيئا يقطع به الصمت ولو كان غير ذى موضوع .

وسألها ، وهو يمد عنقه ليكتشف مزيدا من الطريق المعتم :

ــ هل تحبين الضباب ؟

وأحس بمدى ما فى سؤاله من بلاهة فاسترسل يقول :

ــ أنا أحس بشىء من المتعة ، وأنا أسوق فى الضباب .. كمن يحاول أن يغوص فى أعماق البحر ليكتشف شيئا .

كلام فارغ .. كان يمكن أن يقول خيرا منه .. ولكن ذهنه لم يسعفه .. ولم يبد عليها أنها قد فهمته .. فقد أدارت رأسها ورمقته بنظرة تائهة ، ثم ق كأنها تحاول أن تسكته :

— يجوز .

ولم يعرف ما هو هذا الذى يجوز .. ولكنه أحس بأن الكلام — حتى ولو كان بلا قصد ولا معنى — خير من هذا الصمت المطبق الذى يدفع بأحاسيس من اليأس تريد أن تتسلل إلى أعماقه مع ذرات الضباب المطبق عليه .

وحاول أن يرد بشىء يسترسل به فى الحديث .. ولكن ذهنه لم يسعفه حتى بالكلام الأبله .. وأحس أن عليه أن يركز كل انتباهه إلى تلمس طريقه وسط الضباب ، فأخلد إلى الصمت .

ولم تنته موجه الضباب إلا قبيل ظهر البيدر عندما لاح لعينيه المبنى العتيق لنقطة الشرطة ، وقد تراكمت الثلوج على سقفه وغطت شرفاته وحروف نوافذه .

واعتدل « سليم » فى جلسته ، وهو يرى الطريق واضحا أمامه .. دون حاجة إلى الانحناء على عجلة القيادة ومد العنق نحو زجاج العربة .

ومرة أخرى عاوده التفكير فى تلك الأشياء التى يجب أن يقولها .. وخشى أن ينتهى الطريق وتضيع عليه الفرصة الوحيدة التى يمكن أن ينتهزها .. وفجأة .. وبلا مقدمات التفت إلى « هدى » قائلا :

— اسمعى يا « هدى » .. أريد أن أحدثك فى موضوع حيوى .. كنت أتمنى دائما أن أجد الفرصة لكى أحدثك فيه . لقد كنت أود أن أقول لك رأيى ...

والتفتت إليه «هدى» ، وقد كست وجهها مسحة همّ ، ثم قاطعته فى مرارة :

— أظن أنى أعرف جيدا رأيك فىّ ؟

— كيف ؟

— من كل ما قلته « لسامى » عنى !؟

— كانت مجرد آراء عابرة قلتها بمناسبات .

— آراء تنم كلها عن كرهك .. وسوء ظنك .

— لا تأخذيها على هذا الوجه .. ليس هناك ما يدعونى أبدا لكرهك .. على

النقيض .. أنا من أشد الناس إعجابا بك كفنانة .

ـــ فنانة فقط ؟

ـــ تلك هى الزاوية التى استطعت أن أعرفك من خلالها .. كواحد من آلاف المستمعين إليك ..

ـــ لماذا إذن تجاوزت موقفك وتطوّعت لإبداء رأيك فىّ من زوايا أخرى لا أظنك تدرى عنها شيئا ؟

ـــ لم أبد عنك رأيا كشىء مستقل .. أبدا .

ـــ شىء مستقل ؟

ـــ أجل .. مستقل بذاته .. ولا علاقة له بأحد .

ـــ لا أفهم .

ـــ أعنى أنى لم أبد فيك رأيا إلا كشىء متعلق « بسامى » يمكن أن يودى به .. ويدمره .

ـــ أنا .. أنا أدمر « سامى » ؟.. هذا يؤكد منتهى سوء فهمك لما بيننا .

ـــ أنا لم أتعرّض لما بينكما .

ـــ كيف إذن تحاول أن تبدى رأيك فىّ كشىء متعلق به .. دون أن تفهم حقيقة ما بيننا ؟

ـــ أنا أبدى فيك رأيا من زاوية قد لا ترينها أنت .. زاوية لا أظن أنه يعنينا فيها حقيقة ما بينكما بقدر ما يعنينا ما يمكن أن تؤدى إليه هذه الحقيقة .

وهزت « هدى » رأسها فى ضيق وأجابت :

ـــ لا أفهم ماذا تعنى ؟

ـــ إذن دعينى أشرح لك الوضع على حقيقته .

ـــ دعنى أنا أولا أدفع عن نفسى تلك التهم التى ألصقتها بى .

ـــ أنا ألصقت بك تهما ؟

ـــ أجل .. قلت إنى امرأة بلا قلب .. لا أجرى إلا وراء المنفعة .

— الأحمق الغبى .. قال لك هذا ؟
— وأكثر من هذا .
— على أية حال .. لم أقل ما قلت إلا كنوع من أسلحة الدفاع ضدك .
— ضدى أنا .. ولماذا ترانى خصما ؟
— لأنك فعلا خصم لكل من يعلق آمالا كبارا .. على « سامى » .
— إنكم تظلموننى .. أنا لم أحاول قط .. أن أسيء إليه .
— أنت تسيئين إليه دون محاولة .. إن مجرد علاقته بك إساءة إليه .
— لماذا ؟! من أجل تلك الإشاعات التى يطلقونها حولى !! من أجل هؤلاء العشاق الذين تختلقهم الأوهام والذين ينثرون الذهب من حولى .. لكى يمنحونى حياة البذخ والترف التى تنسجها خيالات الناس لى .. ماذا فى حياتى يستوجب كل هذا ؟! إنى أحيا أقل من أى امرأة متوسطة في دمشق .. معظم أيامى لا يوجد فى بيتى من الطعام أكثر مما يوجد فى أى بيت عادى .. والدجاجة قد تبقى فى الثلاجة أربعة أيام حتى تنتهى .. و« ملابسى » قد أعدت تصليحها كلها حتى تلائم المودة .. وتبدو كأنها جديدة .. لم أحاول أن أصنع ثوبا واحدا هذا العام .. لست أجد أبدا فى حياتى شيئا من البذخ يستلزم عشاقا ينفقون .

وتململ « سليم » فى مقعده ، وهو يحس بأسف لما سببه لها من مرارة دفعتها إلى الإفضاء بهذه الأقوال الخاصة عن حياتها .

وتمتم « سليم » فى شبه اعتذار :

— أنا لم أقصد أن أجرحك .. أو أتهمك بشيء .. ولكنى فقط أحب أن أشرح لك جانبا من المسألة .. يبرر ذلك الموقف الذى اتخذته منك .. والذى أصرّ على اتخاذه رغم ما قد يبدو عليه من مظهر العداء .. إنى أجد من واجبى أن أوضح لك ذلك الجانب .. فلعلك تفهمينه وتقدرينه .

وتنهدت « هدى » ثم قالت فى مرارة :

— ليتكم تفهمون أنتم وتقدرون .

ــ أنت تعرفين « سامى » جيدا .

ــ أعرفه أكثر مما يعرفه أى واحد فى هذا العالم .

ــ تعرفين مدى إيمانه بمبادئه السياسية .

ــ لم أحاول قط أن أناقشه فيها .. أو أثنيه عنها .

ــ إذن دعينى أنا أعطيك فكرة عنها .. إننا نمر فى هذه الفترة من تاريخنا بأدق مرحلة .. إننا نقف فى مفترق طرق .. أو فى مهب ريح .. وعلى الدفعة التى ستدفعنا فى هذه المرحلة إلى أى أحد هذه الطرق ما تتوقف حياتنا وحياة الأجيال القادمة .. ومن بين هذه الطرق العديدة التى يمكن أن ندفع إليها .. طريق واضح مستقيم .. يحقق لنا الوصول إلى كل ما نرجو من أهداف طيبة .. وكل ما نأمل من مستقبل مشرق .. ملىءبالرخاء والطمأنينة والسلام .

وهزت « هدى » رأسها فى نوع من الملل كأنها تحس أن كل هذا لا يهمها .. ولا يدخل فى الموضوع ، وقالت تتعجله :

ــ وماذا بعد ؟!

ــ اصبرى علىّ .. إذا لم تفهمى هذه الأشياء .. فسيصعب عليك أن تفهمى حقيقة الوضع الذى أحاول أن أوضحه لك .

وحاولت هدى أن تتمسك بأهداب الصبر فردت قائلة :

ــ ها !

ــ هذا الطريق .. الذى يحقق لنا الشخصية القوية المستقلة هو طريق القومية العربية .

ــ ما لى ، ولهذا كله .. لقد سمعت عن القومية العربية مئات المرات .. وأنا لست ضدها .

ــ قلت لك اصبرى علىّ .. لا بد أن تمنحينى الفرصة لكى أقول كل ما أريد .. أحب أن أسألك سؤالا بسيطا .. كيف يمكن أن تتصورى أمريكا .. إذا انفصلت ولاياتها .. وأصبحت كل ولاية دولة مستقلة .. دولة كتتكى

مثلا .. ودولة كاليفورنيا .. ودولة .. نيويورك .

ونظرت إليه « هدى » فى دهشة وتساءلت :

ــ ما المناسبة !! لماذا يحدث هذا ؟

ــ ولماذا لا يحدث .. لقد حدث هذا عندنا .. قطعت الأمة العربية .. خرط .. خرط .. كما تقطعين « صينية البسبوسة » .. لكى يقتسمها .. الآكلون .. حتى تصبح سهلة الالتهام .. ولم يكن هناك مبرر لتقسيمها سوى .. هذا .. كانت تماما « كصينية البسبوسة » .. نفس العجينة . ونفس النضج ، ونفس الطعم بلا حدود تفصل بينها .. سوى الخطوط التى رسمتها سكين الآكل .

وابتسمت « هدى » لأول مرة وقالت :

ــ وماذا تريد أن نصنع بصينية البسبوسة ؟

ــ نعيدها كما كانت .

ــ ولكن صينية البسبوسة ؟!

ــ إنها مجرد تشبيه يا « هدى » .. لنعد إلى الأصل .. قلت لك تصوّرى الولايات المتحدة .. وقد تفرّقت .. ثم تصوّرى الأمة العربية ، وقد اتحدت .. بكل ما تملك من إمكانيات يكمل بعضها البعض .. ولكل ما بينها من تكامل فى الناحية الاقتصادية .. فإن الأمة العربية يمكن أن تكون وحدة اقتصادية كاملة .. لا تنافس فى داخلها .. بلاد بها رءوس أموال فى حاجة إلى استثمار .. وبلاد تحتاج إلى رءوس أموال لكى تستثمر طاقاتها المعطلة .

ونظرت إليه « هدى » .. وقد بدا عليها الشرود ، وكأنها لم تعد تعنى بما يقول .

وأحس « سليم » أن أقواله تذهب هباء .. ولم يجد بدا من أن يلم حديثه السياسى ويصل بسرعة إلى ما يعنيها من كل هذا الذى يحاول شرحه وهو سامى .. وصمت لحظة ، ثم استرسل يقول :

ــ ذلك هو طريق القومية العربية .. الذى يؤمن به « سامى » .. يؤمن به .. لا كورقة يلعب بها أو وسيلة حزبية توصله إلى الحكم كما يؤمن بها بعض رجال الحزب .. بل يؤمن به كطريق الخلاص للشعوب العربية كلها .. يحقق لها الخلاص من كل سيطرة خارجية كانت أو داخلية .. يؤمن به .. كطريق يحقق للشعوب القوة لكى تتحرر من كل تبعية .. ويمنحها الحرية لكى تحقق لنفسها العدالة الاجتماعية .

وهزت « هدى » رأسها فى ضيق وقالت :

ــ وما لى أنا بكل هذا .. أنا لست ضده .

ــ إنك تقفين ضده من حيث لا تدرين .. إن الدفعة فى هذا الطريق تحتاج إلى قوة كبرى لمقاومة الدفعات المضادة .. تحتاج إلى قوة لمقاومة قوة الشيوعية المحلية .. التى تريد أن تدفع بنا إلى نوع من التبعية وتفرض علينا نظاما لا يمكن أن يلائم طبيعتنا .. تحتاج إلى قوة لمقاومة قوة الاستعمار الغربى الذى يصر على أن ينظر إلينا كغنيمة يجب ألا يتركها تضيع بين فكى الشيوعية .. نحتاج إلى قوة لمقاومة قوى الرجعية التى تريد أن تجمدنا .. لكى لا نتقدم خطوة إلى الأمام حتى تظل القلة المتخومة .. تمتطى الكثرة الجائعة .. هذه القوى المقاومة المخلصة يجب أن توجد فى جميع البلاد العربية لتدفع بها إلى الطريق السليم .. و« سامى » هو أحد عمد هذه القوة عندنا .. هو الذى يقود الشباب ويملؤهم إيمانا وعزما .. والقوى المضادة تتلمس له الهفوات والخطايا .. لكى تبدد إيمانهم به .. وتشكك فى كل ما يدعو إليه .. وأنت من حيث لا تريدين قد تصبحين .. أو قد أصبحت فعلا .. إحدى وسائلهم فى هذا .

وصمت « سليم » برهة يلتقط أنفاسه .. وما لبث حتى استرسل متسائلا :

ــ هل أدركت حقيقة الوضع ؟! هل عرفت الجانب الخطير من المسألة ؟! هل فهمت كيف يمكن أن تكون خطورتك على « سامى » !؟

ولم تجب « هدى » .. وبدا الشرود فى عينيها .. وكانت العربة قد دخلت إلى

الحدود اللبنانية .. وأوقف « سليم » العربة وهبط ليخوض فى الثلوج البيض التى كست وجه الأرض .. قائلا :

ــ عن إذنك يا « هدى » دقيقة واحدة .

واختفى « سليم » فى بناء الجوازات ، ولم تطل غيبته طويلا حتى عاد إلى العربة .

واستمر الصمت حتى عبرت العربة ممر الجمرك ، ونظر « سليم » إلى وجه « هدى » فوجدها شاردة تائهة وحولت « هدى » بصرها إلى « سليم » .. ثم زفرت زفرة حارة وسألت فى صوت خافت :

ــ والمطلوب ؟

وازدرد « سليم » ريقه ولم يجرؤ أن ينطق بما يتحتم طلبه منها كنتيجة لازمة لكل ما قال ، بل تساءل دون أن يلتفت إليها :

ــ أفى حاجة أنت إلى أن أذكر لك ما يتحتم عليك فعله .

ــ أن أتركه !؟ أليس كذلك ؟

ــ أجل .

وصمتت « هدى » برهة .. وعادت تطلق بصرها .. فى المراح الأبيض الذى امتد على مدى البصر .. ثم التفتت إليه قائلة :

ــ لقد أمضيت نصف ساعة أنصت إلى حديثك عن مفترق الطرق الذى نقف فيه .. وعن « صينية البسبوسة » والقومية العربية .. وولايات أمريكا المنفصلة .. وانتهيت من حديثك إلى وضع ينبغى أن أسلم له ببساطة كنتيجة حتمية لمنطق حديثك .

ــ لا يمكن لأحد أن يرغمك على شىء .

ــ مفهوم .. ولكن المفروض .. كإنسانة لها ضمير .. أن أسلم بما طلبت .

ــ أعتقد هذا .

ــ ولكن .. ألا تجد من حقى أن أبدى وجهة نظرى فى الموضوع ؟

ــ أكاد أعرفها .

ــ لا أعتقد .

ــ أعرف على الأقل مشاعر سامى نحوك .

ــ ولكنك لا تعرف مشاعرى نحوه ... أنت تعرف أشياء كثيرة عنه .. وعن كفاحه .. وعن دوره السياسى .. تعرف أشياء كثيرة .. عن القومية العربية .. والشيوعية .. والرجعية .. و .. و ... ولكن عنى أنا ، لا أظنك تعرف أكثر من هذه الشائعات التى تبنى عليها خصومتك لى .

ــ ولكنى ..

ــ اصبر علىّ ، كما صبرت عليك .. أليس من حقى عليك أن تسمعنى كما سمعتك ؟! أنا طرف فى المسألة ويتحتم علينا قبل أن نصدر أحكاما أن نلم بجميع أطراف القضية .. ألا تجد من الضرورة لك ، أن تعرف المسألة من وجهة نظرى .. أنا التى أمثل الطرف الآخر .

ــ طبعا .

وتنهدت « هدى » قبل أن تبدأ حديثها ثم أسندت ظهرها على المقعد وألقت برأسها إلى الوراء قائلة :

ــ أنا لست شريرة كما يمكن أن تتصور ، لست بلا قلب . ولست نفعية .. ولست .. ولست .. من سلسلة هذه التهم التى حاولت دائما أن تلصقها بى .

ــ أنا متأسف .

ــ لا أقول لك هذا لكى تأسف .. ولست أظننى فى حاجة لأسف أحد .. ولكنى أقوله لك كحقيقة واقعة ينبغى أن تثق فيها .. وتضعها قاعدة لكل ما أنوى أن أقوله لك من حقائق .. وإلا فلا ضرورة للحديث مطلقا .

ــ تكلمى .. إنى أعتذر بحق عن كل ما قلت .. سواء قبلت الأسف أم لم تقبليه .

ــ أنت تعرف أن من حقنا فى هذه الحياة أن نحب .. هذا ألزم اللوازم لنا فى

هذه الحياة .. ومن أشد ما يمكن أن نذنب به فى حق أنفسنا ، وأن نخرجها من هذه الحياة صفر القلب واليدين من الحب .. هذا إذا صح .. أنه يمكن لأى إنسان أن يأتى إلى هذه الدنيا ويخرج منها دون أن يحب .

ـــ ما منا من أحد إلا أحب .. ولكن المهم أن نحب الإنسان الملائم .

ـــ تتفلسف .. نحن لا نختار .. لكى ننتقى الملائم ونترك غير الملائم .. إننا نحب هذا الشخص أو ذاك .. لا لأنه يلائم أوضاعنا الاجتماعية ، ويسد حاجاتنا فى الحياة .. وإنما نحبه لأن ثمة أشياء داخلية لا يمكن مقاومتها تدفع كلا منا إلى الآخر .. وأقول داخلية لأنها بلا مقاييس ولا معايير .. قد يتشابه توءمان فى كل شىء ، ولكنك تحب أحدهما .. دون أن تحب الآخر .. كما أننا لا يمكن أن نقبل فى الحب .. مبدأ البدل .. مهما كان وجه الشبه ، ومهما كانت الأفضلية .

ـــ حقيقة .

ـــ وأنا كمخلوقة فى هذه الدنيا .. لها الحق فى أن تحب .. لا أريد أن أستدر عطفك علىّ بسرد ماضى حياتى ، ولكن ألخص لك أيامى الماضية ، بأنها ضياع أو عدو فى صحراء جافة محرقة .. أبحث عن ظل أو ماء .

تزوجت وأنا صبية صغيرة .. تزوجت لأخرج من حصار أمى ، أقبلت على الزواج فى فرحة الطفلة .. ترتدى ثوب العرس وتلعب بالدمى .. لم أعرف أن هناك شيئا اسمه الحب يمكن أن يربط بين اثنين ، وعشت حياتى مع زوجى ، كواجب ارتبطت به ، لا بد من أدائه ، تماما كما أتعاقد للغناء فى صالة أو مسرح ولا بد أن أفى بمدة العقد ، ولم تطل مدة العقد .. مات زوجى .. وبدأت أتنسم الحرية ، وأخذت أمارس مع الحرية تجاربى مع جميع أنواع الرجال .. وانتهيت إلى نتيجة ، هى أن الحرية زادتنى اختناقا وأضاعت إيمانى بالإنسان .. الإنسان النظيف .. النقى القلب الذى تستطيع أن تتلمس فيه الأشياء الجميلة فى الإنسان .. الحب والرقة ، والوفاء ، دون أن تكتشف فجأة أنها أصباغ وطلاء ، وسرت ، وفى حياتى نوع من اليأس الذى يجعل المرء يقذف بأعبائه وبمسئولياته

ولا يحس لأى مشكلة من مشكلات الغير بإحساس جاد ، وتبدد إيمانى بالحقائق الطيبة ، حتى كدت أفقد كل ما فى باطنى من أشياء خيرة ، وأنت تعرف معنى ما أقول ، حتى لقيته .. ولم ألق فيه مجرد رجل ، ولكننى لقيت الأشياء الجميلة التى كنت أبحث عنها والتى افتقدتها من قبل حتى خيل إلى أنها غير موجودة .. فجأة أحسست أن الضائعة الصادية المرهقة التى أرهقها السير فى الحر والجفاف .. قد استقرت عند نبع تحت ظل الشجرة .. لم يكن هذا النبع سرابا ، ولم تكن تلك الشجرة شبحا ، ولكن نبع حقيقى ، وشجرة خضراء وارفة .. وبجواره أحسست بأن الطمأنينة والسكينة قد عادت إلى .. أحسست أنى أشبه بطفلة تستقر على صدر أمها ، وعادت إلى نفسى كل الأحاسيس الجميلة التى كادت تذوى وتجف ، أصبحت أحب كل الناس من أجله ، أصبحت أحس بمشكلاتهم ومآسيهم .. لم أشعر أنى أخاف عليه وحده من البرد والمرض ، بل شعرت أنى أخاف أيضا على « أم حبيب » الخادمة ، وعلى بواب البيت وأولاده .. وأحسست أنه منحنى أشياء كثيرة طيبة ، لا يحس بها الغير .. فمنحته كل شيء .. ولم أحاول أن أطلب منه تلك الأشياء التى تصر المرأة على طلبها — كحق لها أمام الغير .. لم أكن جاهلة بوضعه فى المجتمع — كنت أعرف مجمل ما حدثتنى عنه ، دون أن أدخل فى تفاصيله ، ومن أجل هذا بذلت ما أملك لكى أستر حبنا ، ولكيلا أحمله عبئا لا يطيقه .. بل حاولت أن أخفف عنه أعباء حياته ، ومتاعب عمله .

وأعتقد أنى نجحت .. كنت أمنحه كل يوم ساعات من الراحة والسكينة لم يكن له غنى عنها ، ومنحته الحب الذى كان فى حاجة إليه .. بمثل ما كنت أنا فى حاجة إليه .. فعلت من أجله كل ما أستطيع ، وأنا على استعداد لأن أفعل المزيد .

لقد قبعت فى باب حياته الخلفى .. بلا تبرم ولا ضيق .. وأنا على استعداد لأن أبقى فيه دون أن أطمع فى أكثر من أن أراه .. عندما يستطيع هو .. دون أن أحمله أى عبء .. أو أربطه بأى قيد .. هل هذا كثير على ؟

وأحس « سليم » بأن صوتها قد أوشك يختنق بالبكاء .. ولم يجب .. فقد كان عليه أن يصمت برهة حتى يزيل عدوى البكاء التى أوشكت أن تنتقل إليه .

وزفرت « هدى » زفرة حارة .. وعادت تتساءل بصوتها المختنق :

ـــ لماذا لم تجب !

وهز « سليم » رأسه ، وقد شرد بصره فى الطريق الذى تكاثفت من حوله الثلوج .. وقال فى أسى ومرارة :

ـــ لست أدرى كيف أجيب .

وازدرد ريقه ليخفى بحة البكاء وقال كأنه يحدث نفسه :

ـــ معك حق .

وصمت برهة ثم عاد يقول :

ـــ مشكلة .

٣٦

الناس طيبون

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف صباحا ، وسحابة ثقيلة سوداء تزحف من الأفق الغربى منتشرة فى صفحة السماء منذرة بيوم معتم ، وعربة « سامى » قد وقفت بباب مبنى الجريدة على أهبة الذهاب به إلى المطار .

وجلست « فايزة » بمكتبها تتشاغل بترتيب بعض الأوراق .. تنتظر أن يخرج « سامى » من مكتبه لكى تصطحبه إلى المطار وقد تملكها شعور خليط من الراحة والضيق ، والسكينة والقلق .

لقد أراحها بلا جدال .. عودة « سامى » وذهابه لحضور المؤتمر بالقاهرة .. وقضاؤه على الشائعات التى أطلقها خصومه بأنه فرّ مع عشيقته إلى بيروت وأنه لن يذهب إلى المؤتمر .

أراحها أنه عاد سالما آمنا .. إلى موضعه الحقيقى .. وإلى مكانه القيادى فى المعركة التى يؤمن بأهدافها .. دون أن يستسلم للنزوة الطارئة التى جذبته منها .

أراحها .. ابتعاده عن مصدر الداء ولو إلى حين .. فقد يهيئ له ذلك فرصة مقاومته .. والخلاص منه .

ولكن الراحة .. التى استشعرتها .. كان يشوبها قلق الشك فى حقيقة الوضع الذى اجتذب إليه سامى .. والمدى الذى بلغه فى الارتباط بهذا الوضع .. والحيرة فى مكانها هى من هذا التيار الغريب .

ولم تلبث حتى رأت الباب يفتح و« سامى » يخطو إلى مكتبها ، فنهضت تستعد لاصطحابه إلى المطار .. ولكنه أشار إليها بيده قائلا وهو ينظر إلى الساعة :

ـــ ما زال أمامنا ساعة ونصف على قيام الطائرة .. سأذهب لقضاء أمر هام وأعود بعد نصف ساعة .

ولم يستعص على « فايزة » أن تخمن هذا الأمر الهام .. وازداد بها الإحساس بالضيق والشك والحيرة والخوف .. ولكنها لم تملك سوى التمسك بالصمت .. والاستمرار فى خطة التجاهل التى اتبعتها من بداية الأمر .

وغادر « سامى » المكتب متجها إلى بيت « هدى » ، وبعد دقائق كان يقف أمام باب الشقة ، ولم يدق الجرس ، بل دفع المفتاح فى ثقب الباب .. وخطا إلى الداخل فى صمت .. ووقف برهة حتى تعوّدت عيناه على ظلمة البهو ، ثم تقدم إلى الممر المفضى إلى حجرة النوم .. ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى أبصر « هدى » وقد جلست مطرقة أمام المائدة وقد أسندت ذقنها إلى كفيها وشردت ببصرها فى البخار الذى يتصاعد من فنجان الشاى الموضوع أمامها .

ورفعت « هدى » رأسها وقد بوغتت به يقف أمامها وهتفت صائحة فى فرحة :

ـــ سامى !!

ونهضت إليه مادة ذراعيها فى لهفة .

واقترب منها « سامى » فضمها إلى صدره قائلا :

ـــ ظننتك فى الفراش .

ـــ أرقت من الفجر .. وحاولت البقاء فى الفراش فلم أطق .. كنت أنتظر تليفونا منك .

ـــ فضلت أن أفاجئك بالحضور .. لأودعك قبل السفر .

ووجمت « هدى » وشاع اليأس فى قسماتها وهتفت قائلة :

ـــ أستسافر اليوم ؟

ـــ فى طائرة العاشرة .

وعادت تضمه فى خوف كأنما تخشى أن ينتزعه السفر منها وهمست فى

حنان :

ـ هل ستطول غيبتك ؟

ـ بضعة أيام .

ـ هذه أول مرة نفترق فيها .

ـ لن تطول الفرقة .

ـ أكره بعدك مهما قصر .. إنى أحس بطمأنينة وأنت هنا على مقربة منى .. أسمع صوتك عندما أريد .. وأشعر أن فى يومى شيئا جميلا .. أنتظر الحصول عليه .. شيئا يجعل لحياتى معنى .

وجذبها « سامى » إلى المقعد المواجه للنافذة الزجاجية العريضة .. واستقر بها فوق المقعد وضمها إليه وهو يهمس :

ـ لا يستحق الأمر كل هذا الحزن .

ـ جائز .. ولكنى مع ذلك أحس كأن هذا الرحيل .. سينزعك منى .

ـ ما الذى يدفعك إلى هذا التشاؤم ؟

وأخفت « هدى » رأسها فى صدره وأطلقت زفرة طويلة حارة ، وتحسس « سامى » شعرها فى رفق وهمس بها :

ـ ما بالك .. يا هدى .. ماذا حدث ؟

ـ لا شىء .

وصمت « سامى » برهة ثم تساءل فجأة :

ـ هل قال لك سليم شيئا ؟

ـ قال أشياء كثيرة .

ـ مثل ؟

ـ لقد حاول إقناعى بأن علاقتنا يجب أن تنتهى .

ـ هذا ليس شيئا جديدا عليه .. ألم أفض إليك بما كان يردده دائما !

ـ كنت آخذه دائما على أنه إحساس بخصومة .

ـــ والآن ؟

ـــ أحسست أنه يتحدث عن إيمان بك وبمصلحتك .

ـــ مصلحتى أنا أعرفها خيرا منه .

وضمها إليه هامسا :

ـــ انسى كل ما قاله .. إنك أشد ما أحرص عليه فى حياتى .

ومضت الدقائق تعدو سريعا وهى قابعة بين ذراعيه .. وأحست به يخلص يسراه لكى ينظر إلى الساعة .. وأضاعت حركته شعور السكينة التى أخذت تعاودها وهى مسترخية فى أحضانه ، وشدت أعصابها ووثبت من فوق ساقيه قائلة فى مرارة :

ـــ هل حان الوقت ؟

ـــ لم يبق إلا ثلاثة أرباع الساعة .. والمفروض أن أعود إلى المكتب ثم أذهب إلى المطار .

ـــ لماذا تعود إلى المكتب ؟

وتردد « سامى » برهة قبل أن يجيب :

ـــ لقد تركت فايزة تنتظرنى هناك .

ـــ ولماذا تنتظرك ؟

ـــ لأمضى بعض الأوراق .

ـــ هل ستذهب معك إلى المطار ؟

ـــ أيضايقك هذا ؟

وهزّت « هدى » رأسها وتنهدت .. وعاد « سامى » يسأل :

ـــ ماذا يضايقك من فايزة ؟

ـــ ألا يضايقنى أن أكون الوحيدة فى هذا العالم التى لا تملك حق وداعك .. أو مصاحبتك .. أو التعبير عن مشاعرى نحوك أمام الناس .

وأحاطها « سامى » بذراعه وأجابها برفق وهو يتجه إلى الباب الخارجى :

ــ أنت اليوم مرهقة .. أنت تحاولين مضايقة نفسك .

ــ معك حق .

ــ أنت الوحيدة فى هذا العالم التى أحس أنى أمارس معها مشاعرى الحقيقية .. ليس هناك من يملك إسعادى أو إشقائى غيرك .

وألقت برأسها على صدره وأجابت فى لهجة حزينة :

ــ آسفة على كل ما قلت .. اعذرنى .. إنها لحظات ضعف .

ــ أبدا .. إنه حقك .

ومرة أخرى نظر « سامى » إلى الساعة ثم ضمها ضمة أخيرة .. وخطا إلى الخارج وأغلق الباب خلفه .

وأخذ يهبط الدرج فى بطء وقد شرد ذهنه ، واجتاز الباب الحديدى وسار فى الطريق بضع خطوات ، ثم أدار رأسه فجأة ورفع بصره إلى الشرفة .

وكانت المرة الأولى أن يحاول التلفت خلفه وهو يغادر شقتها .. كان دائما يسير بسرعة دون أن يحوّل بصره يمنة أو يسرة .. كأنه يحس أن عيون الشك وأصابع الاتهام تشير إليه .. مؤكدة أنه عشيق « هدى » .. ولكن فى هذه المرة أحس بأن شيئا يدفعه إلى الالتفات إلى أعلى .. حيث الشرفة المطلة على الطريق .

ولمحها تقف هناك .. وكانت لأول مرة منذ عرفها .. تخرج إلى الشرفة لترقبه يسير فى الطريق .. غير عابئة بما يمكن أن تثيره من انتباه .

وعجب لذلك الشيء الذى دفعه إلى أن ينظر خلفه .. ويتطلع إلى الشرفة .. وكأنه واثق أنها هناك .. واقفة لترقبه وهو يختفى عن عينيها .. وأسعده ألا تكذب ظنه .. وأن تكون موجودة دائما .. حيث يتطلع إليها .. ويتمنى أن توجد .. وأسعده أيضا .. أنه أحس بوجودها وتطلع إليها .. ورد على نظرة وداعها .. الحزينة اليائسة .

ورفعت كفها فى خفة وأشارت إليه .. وبلا وعى ولا تفكير .. رفع كفه ورد الإشارة .. غير عابئ بالمارة .. والباعة ، وأخذ يلتفت إليها فى كل خطوة

حتى وصل إلى العربة .

وانطلق بالعربة إلى المكتب ، ليجد « فايزة وسليم » وقد وقفا أمام الباب الخارجى لمبنى الجريدة وقد بدا عليهما القلق .. وسرعان ما قفزا إلى العربة وصاح به سليم :

ــ كان المفروض أن تكون فى المطار الساعة التاسعة .

ــ ما زال أمامنا وقت كاف .

ــ كيف والساعة التاسعة والربع ؟

ــ عشرون دقيقة كافية لحملنا إلى المطار .

ــ وإجراءات المطار ؟

ــ لن تأخذ أكثر من ربع ساعة .

وقبيل العاشرة .. كانت المضيفة تعلن فى المذياع أن طائرة القاهرة أوشكت على القيام .. وتطلب من الركاب أن يتجهوا إليها .

ومد « سامى » يده ليشد على يد « سليم » قائلا :

ــ وصيتك الجريدة .. وفايزة .

وضحك « سليم » قائلا :

ــ لا أظن واحدا منهما سيحتاج إلىّ .

وابتسمت « فايزة » ابتسامة باهتة وأجابت :

ــ نحن لا نستغنى عنك أبدا يا أستاذ سليم .

ومدت « فايزة » يدها إلى سامى ، وهى تحاول أن تبتلع مرارة وداعه قائلة وهى تتضاحك :

ــ إذا احتجت إلىّ أرسل تلغرافا وسأكون عندك فى أول طائرة .

ورد سامى :

ــ أنا دائما فى حاجة إليك .

وابتسمت شاكرة وصوتها الداخلى يقول فى مرارة :

— كلام .. إنك لم تعد فى حاجة إلى أبدا .

واتجه « سامى » إلى الطائرة و« فايزة وسليم » يلوحان له . ولم يحاول أن يلتفت ليراهما .. فقد ارتسمت فى ذهنه صورة لوداع لم يستطع وداع المطار أن يحجبها .. كانت إشارة الشرفة أثبت فى ذهنه من كل ما عداها .. وكان يتحرك إلى الطائرة وصوت « هدى » يهمس فى أذنه :

« آسفة على كل ما قلت .. اعذرنى إنها لحظات ضعف » .

واسترخى « سامى » على مقعده فى الطائرة .. وألقى برأسه على حافة المسند ، ومرت به المضيفة تنبهه إلى شد الحزام .. وتمنحه قطعة من الحلوى .

وشد الحزام حول وسطه ببطء .. وأخذ يلوك قطعة الحلوى بين شدقيه وتملكه إحساس بالراحة ، والطائرة تحلق به فى الجو ، ومد عنقه إلى زجاج النافذة المستديرة وأخذ يرقب الدور تتضاءل ورقعة الأرض تتباعد لتصبح كالخريطة . ودارت الطائرة دورة حول دمشق ، لتكسبها ارتفاعا يمكنها من اجتياز الجبال القائمة فى طريقها إلى بيروت ، وبدت دور دمشق كالدمى تحيط بها رقعة الغوطة الخضراء المتكاثفة الأشجار ، واتجهت الطائرة نحو الجبال البيض التى بدت كأنها كئوس الجلاس قد غطت الكريمة الذائبة حوافها وافترشت كل ما حولها .

واستمرت الطائرة تجتاز الجبال البيض حتى بدت بيروت بين حضن الجبل والساحل وبدت مياه البحر بأمواجها مجعدة كأنها ظهر السمكة .

وأعاد « سامى » رأسه إلى المسند .. وأخذت الأفكار تختلط فى ذهنه .. « هدى » بنظراتها الحزينة وأفكارها المتشائمة ، « وفايزة » بصمتها المحير واستسلامها العاتب .. ودوامة الأحداث التى تلف البلد فتجعل كل ما فيها متأرجحا مهتزا .. ينتظر أحداثا .. والأحداث تقف متربصة بالباب ، تأبى الدخول .. ولا تريد أن تنصرف .. وهذا المؤتمر الذى ينتظره فى القاهرة .. أى تيارات يمكن أن تتجاذبه !؟ إنه لا يستطيع أن ينكر حقيقة موقف البلاد الشيوعية .. لأن صداقتها واضحة .. وتأييدها مؤكد .. واتخاذها الجانب

البطولى فى معاونة البلاد المكافحة من أجل استقلالها ضد الاستعمار الغربى أمر لا شك فيه .. ولكنه يخشى استغلال الشيوعيين المحليين للموقف كى يزجوا بالبلاد إلى نوع من التبعية يجعل العملية كلها تبدو كطعم .. يجر الصيد إلى الحظيرة .. والموقف يحتاج إلى دقة فى التصرف .. ووعى بحقيقة الأمور .. وإيمان بالطريق المستقيم والهدف الواضح .. طريق القومية .. وهدف الحرية الوطنية والعدالة الاجتماعية والسلام العالمى .

وفتح « سامى » عينيه على صوت المضيفة تعلن أن الطائرة تمر ببورسعيد ، ومد رأسه إلى النافذة ، وألقى ببصره على المدينة الباسلة .. أو المعول الذى فتح الطريق لتيار الحرية لكى يجرف معاقل الاستعمار ، وبدت المدينة وكأن العمران قد بذر فى أرضها فمحا آثار الدمار ، وبدت القناة مستقيمة تشق الرمال والبحيرات على الجانبين .

وبدت المزارع الخضر تشقها القنوات .. وتتناثر وسطها القرى .. وأعاد « سامى » رأسه إلى المسند .. واستغرق فى التفكير مرة أخرى .

هذه الأرض قد صدت قوى الطغيان ، لم تصدها فقط عن نفسها .. بل صدتها عن العالم المكافح .. الذى يتنسم بعضه أنسام الحرية .. والذى يهفو إلى تنسمها البعض الآخر الذى ما زال يرسف فى القيد .. إن المعركة ليست معركة بلد واحد ، بل معركة عالم بأسره .. معركة قديمة مستمرة .. يخوضها كل بلد بوسيلته .. وعندما حدث الاصطدام هنا .. فى هذه الأرض ، تطلعت الأبصار ، وأرهفت الأحاسيس .. وأحس العالم المكافح أن مصيره يتقرر هنا فى هذه المعركة .. وأن تحطيم القيد هنا .. إيذان بتحطيمه فى كل مكان يرسف الإنسان فى أغلاله .. فصمم على أن يعاون الشعب المكافح ، وانتصرت الحرية .. وأشعلت هذه الأرض شرارة المعركة المشتركة .. فى العالم كله .. بين طالبى الحرية ومغتصبيها .

وعلا صوت المضيفة تطلب من الركاب شد الأحزمة والامتناع عن

التدخين .. وأخذت الطائرة تهبط حتى أحس « سامى » بالطرقات الخفيفة لارتطام العجلات بالأرض .

وفى المساء حضر « سامى » أول اجتماع بين الوفود العربية لتنسيق أعمالهم كوحدة واحدة فى المؤتمر .. ثم بدأت الاجتماعات العامة طوال اليوم التالى .. وشرح « سامى » الموقف فى سوريا .. وأوضح التهديد الغادر على خدودها الشمالية من الحشود التركية التى تحشدها سياسة أمريكا العدوانية لملء الفراغ الموهوم .

ونجح « سامى » نجاحا تاما فى إقناع الوفود بحقيقة الوضع الراهن فى سوريا .. واستطاع رغم مناورات المندوب التركى أن يحصل على قرار بالإجماع يدمغ تركيا وأمريكا .. ويطالب الأمم المتحدة بوقف التهديد الموجه إلى سوريا من القوات المحتشدة على حدودها .

وفى المساء عقب انتهاء الاجتماع اتجه « سامى » إلى فندق سميراميس لتناول العشاء بدعوة من الوفد السوفيتى .. وفى البهو ضمه مع بعض أعضاء الوفد جلسة خاصة لم يدر أكانت وليدة صدفة أم بنت تدبير .. وكان يجلس معهم صديقه « أحمد عبد الهادى » ، عضو الوفد المصرى .

وبدأ النقاش هينا لينا .. بتهنئة حارة من الزميل السوفيتى بالنصر الذى أحرزه « سامى » فى جلسة اليوم .

ونقلت المترجمة الروسية المتورّدة الوجنتين كلام الزميل بنفس الحرارة والحماس .. مضافا إليهما ابتسامة رقيقة عذبة .

وأحنى « سامى » رأسه فى تواضع وخجل وأجاب بالرد التقليدى :

ـــ ما أظننا نستطيع أن نحقق أى انتصار إلا بمعاونة إخواننا المحبين للحرية والسلام .

ونقلت المترجمة حديثه إلى الزميل السوفيتى الذى بدا على وجهه الارتياح . وأجاب بحماس مفرط :

— إن هدف الاتحاد السوفيتي وبقية الدول الاشتراكية هو معاونة الشعوب المكافحة فى سبيل الحصول على حريتها والقضاء على الاستعمار .. إننا نمد يد العون إليها بلا قيد ولا شرط .

وأجاب سامى :

— إننا واثقون من موقف الدول الاشتراكية ونقدر حق التقدير كل ما تقدمه لنا من معونة وتأييد .

وابتسم الزميل السوفيتى عندما نقلت إليه المترجمة كلام « سامى » ثم قال وهو يهز رأسه هزة ذات معنى :

— إننا أحيانا نحس برغبة أكثر فى الاقتناع بتلك الثقة وذلك التقدير .

وصمت « سامى » وهو يسمع الرد من شفتى المترجمة من خلال ابتسامتها الرقيقة .. وأحس بأن الرد يعنى شيئا ، ولم يعرف إذا كان من المستحسن أن يفتح الباب للاستمرار فى المناقشة أم يغلق الباب بكلمة مجاملة لا تقدم ولا تؤخر ، ولم يسعفه زهده فى الجدال ولا وجد من الوقت متسعا له ولا من الظروف ما يلائمه ، فرد الابتسامة بابتسامة أرق قائلا :

— إننا لا نكن إلا إحساس الصداقة والمودة للاتحاد السوفيتى ولجميع الشعوب الصديقة التى تمد لنا يد العون .

وعاد الرجل يبتسم وهو يسمع رد « سامى » . وبدا عليه كأن شيئا فى ذهنه يجب أن يفتح الباب ليقول .. وبين الابتسامات الحلوة عاد يحاول فتح الباب قائلا :

— تحدث بعض أشياء تدهشنا وتشككنا فى مدى فهم حقيقة موقفنا .

وبدا أن الباب الذى يحاول « سامى » غلقه قد أبى إلا أن يفتح على مصراعيه .. فقد مد « أحمد عبد الهادى » عنقه فى المناقشة الدائرة وتساءل فى شىء من العجب :

— مثل ؟!

والتفت إليه الزميل السوفيتى قائلا ، وكأنه وجد المنفذ الذى ينفذ منه إلى المناقشة :

ــ مثل .. موقفكم من الشيوعيين هنا .. بعد كل ما قدمناه إليكم من مساعدات .. تحاكمونهم وتضعونهم فى السجون .

وهز « عبد الهادى » رأسه وهو يرفع حاجبيه متسائلا :

ــ وماذا فى ذلك ؟! أى دخل لمساعدتكم بالشيوعيين الذين هنا ؟

وبدا التساؤل والاستنكار على وجه الزميل السوفيتى .. وقبل أن ينطق بكلمة عاود « عبد الهادى » الحديث قائلا :

ــ إن هناك حقيقة يجب أن تفهموها . وعلى مدى فهمكم لها يمكن أن تقام علاقة الصداقة بيننا وبينكم .

وهز الزميل السوفيتى رأسه مستوضحا هذه الحقيقة ، فرد عبد الهادى قائلا :

ــ إننا كأى شعب .. لنا أهداف طيبة نريد أن نحققها لأنفسنا .. نريد أن نحقق مستقبلا تتوفر فيه الحرية والرخاء والعدالة والسلام .

وكغيرنا من الشعوب قد رسمنا طريقنا إلى تلك الأهداف .. وحددنا وسيلتنا .. كما رسمتم أنتم طريقكم وحددتم وسيلتكم ، وكما تعتبرون أنتم الخارجين على الطريق .. المناهضين للوسيلة .. هدامين معرقلين يجب تنحيتهم عن المجتمع .. نعتبرهم أيضا كذلك .. وإذا كان من حقكم وقاية نظامكم المحقق لأهدافكم ، فمن حقنا أيضا أن نفعل ذلك .. وإذا كان من حقكم أيضا أن تحددوا صفات الهدامين عندكم .. فمن حقنا أيضا أن نحدد صفاتهم عندنا .. والمسألة نسبية .. تتوقف على نوع النظام المحقق للأهداف .

فالشيوعيون الذين يعتبرون أسس البناء فى نظام شيوعى ، قد يكونون سبب الهدم لنظام غيره .. وإذا سلمنا بأن الشعوب هى التى تختار بنفسها النظام الملائم .. وإذا سلمنا أنه ليس من حق شعب أن يفرض على شعب آخر نظامه

مهما كان مناسبا لنفسه .. فبديهى أيضا أنه من حق الشعوب أن تحدد صفات الخارجين على ذلك النظام ومن حقها أن تجنب نفسها شرّهم ، وليس من حق شعب مطلقا أن يدس أنفه ليبين لشعب آخر ما يجب عمله وما لا يجب تجاه بعض مواطنيه الذين يرى منهم تهديدا لنظام حكمه أو هدما لوسيلته .. فالشعب هو المسئول الأول عن أهدافه ووسيلته وعن الطريقة التى يمنع بها تهديد هذه الوسيلة ومحاربة تلك الأهداف .

وصمت عبد الهادى برهة ثم سأل الزميل الذى أخذ ينصت إلى ترجمة المترجمين وقد بدت على وجهه علامات الدهشة .

ـــ هل تقبلون أن نسألكم عن تصرفكم إزاء بعض الروس المناهضين للشيوعية فى بلادكم .. لأنهم مثلا مسلمون ؟

وهز الرجل رأسه بالنفى .. فاسترسل سامى قائلا :

ـــ إذن لماذا تسألوننا عن المصريين الشيوعيين .. وهم مواطنون مصريون قبل كل شىء .. إنهم منا أولا .. وإذا كان قد أصابهم ضير ، فمصر هى المسئولة عنهم .. وليس الاتحاد السوفيتى .

وقبل أن يجيب الرجل أطلق سامى نفخة من أنفه ثم ابتسم قائلا :

ـــ الواقع أن هناك مسألة يجب عليكم أنتم أن تنظروا إليها بعين الاعتبار .. يجب عليكم أن تغيروا أساليبكم فى التعامل مع الغير .. يجب أن تطوروا طريقة معاملتكم مع الشعوب .

وهز الرجل السوفيتى رأسه وتساءل وهو يحس أنه يستمع إلى كلام جدير بالانتباه :

ـــ كيف .

ـــ لقد كنتم فيما مضى داخل ستار حديدى .. وكنتم تخشون على نظامكم من الريح الخارجية .. وكان الناس خارج الأسوار ينظرون إليكم فى شك وارتياب .. كانت سفارتكم هنا مثلا مكانا محرما .. وكنتم تعيشون فى عزلة

خارج أسواركم .. وكنتم تعتمدون فى نشر مبادئكم واكتساب ثقة الناس وصداقتهم على التنظيمات السرية المتسللة وكنتم تأملون أن تنجح هذه التنظيمات وتقوى بحيث تصبح هى الشعوب نفسها ، أليس كذلك ؟

وهز الرجل رأسه وابتسم قائلا :

ـــ أكمل .

ـــ ولم تكن هذه التنظيمات السرية كلها تقتصر على المخلصين فقط لمبادئكم ، بل كان معظمها مبنيا على النهازين .. ولم تكونوا أنتم تستطيعون تحديد صفات المتعاملين معكم .. لأنكم فى حاجة إلى كل من يقبل التعاون معكم .. تلك هى خطتكم .. وهى خطة يفرضها وضعكم داخل الستار وريبة الناس فيكم .. أما الآن فما حاجتكم إليها .. والشعوب تمد إليكم أيديها فى ثقة ومحبة .. ما حاجتكم إلى تنظيماتكم الشيوعية التى كانت تعمل تحت الأرض .. إذا كانت الشعوب كلها تمد إليكم يدها مرحبة .. فوق الأرض .. لم تعد سفاراتكم هنا مكانا معزولا .. ولم يعد زوّاركم يزورونكم سرّا .. ولم تعد أفلامكم تمنع .. ولا منشوراتكم تسبب التهم .. لقد بتم تتعاملون جهارا مع كل الشعوب .. فلماذا تحاولون التمسك بعلاقات غير واضحة مع البعض .. لقد كسبتم صداقة الشعوب .. بالمعاونة والصراحة .. فلماذا تحاولون هدمها .. بالتسلل والتآمر ؟

إن العالم كله يؤمن بالاشتراكية .. وتكافؤ الفرص بين جميع الأفراد .. ووقف الاستغلال والاحتكار .. فلماذا لا تتركون الحرية لكل شعب ينفذ أهدافه بوسائله الملائمة .. فتكسبوا صداقة جميع الشعوب .. بدل أن تحاولوا التسلل بتنظيمات شيوعية فتتهموا بمحاولة طرد الاستعمار الغربى لفرض استعمار شرقى .

وانتهت المترجمة المتوردّة الوجنتين من ترجمة الحديث بهذا الحماس .. ولم يعرف « سامى » إذا كان حماسها نوعا من الأمانة فى الترجمة .. أم نوعا من

الرضاء عنه .. ولكنه لم يستطع أن ينكر الابتسامة الراضية التى ارتسمت على شفتيها .

وهز الزميل السوفيتى رأسه .. وصمت .. وقبل أن يهم بالحديث اقترب أحد زملائه ليعلن بداية العشاء .. ونهض الجميع وأمسك الرجل بذراع سامى فى صداقة وقال له :

ــ سنكمل حديثنا فى فرصة أخرى .

وصمت برهة ثم استرسل يقول :

ــ إننا على أية حال ، نفضل الرجال الأمناء .. فإنهم أقدر على دعم الصداقة بين شعبينا .

واتجه الجميع إلى مائدة العشاء .

وبدأ العشاء بشرب الأنخاب .

وجلست المترجمة بين « سامى » وبين أحد أعضاء الوفد السوفيتى .. ولاحظت أن « سامى » يشرب عصير البرتقال فسألته ضاحكة فى دهشة :

ــ لماذا لا تشرب شيئا يستحق الشرب ؟

ــ ألا يستحق هذا الشرب ؟

فرفعت كأس الفودكا قائلة :

ــ الذى يستحق هو هذا .

وضحك « سامى » وتساءل :

ــ أهذا يدخل فى عملية الترجمة ؟

وأجابت المترجمة فى ابتسامة عذبة :

ــ إنى أتحدث الآن لحسابى .

وتذكر « سامى » إلحاح « هدى » عليه فى أن يشرب كأس الويسكى وتذكر قولها « إنى أريد أن أشرب معك مرة واحدة .. لأنى لا أكاد أجلس لأشرب حتى أذكرك » .

وعادت المترجمة تسأل ضاحكة وهى تمسك زجاجة الفودكا :

ــ ألا تشرب كأسا ؟

وردّ « سامى » فى رفق :

ــ لم أتعوّد الشرب .

وبصوت أرق هتفت :

ــ من أجلى !

وأدهشت « سامى » لهجتها .. وأحس كأن ثمة خيطا إنسانيا يمكن أن يجمع بين شعوب الأرض قاطبة على اختلاف مذاهبها وأجناسها .

وقبل أن يفتح شفتيه بالرد .. رفعت المترجمة الزجاجة وملأت له كأسه قائلة :

ــ هذه الفودكا تذيب الهموم وتنعش الأرواح .

وجرعت كأسها دفعة واحدة ثم أنزلته وهى تقول :

ــ وتغسل الأوحال السياسية .. من أذهان الناس .

وضحك « سامى » .. وسألها قائلا :

ــ أتحبين الناس ؟

ــ الناس طيبون فى كل أنحاء العالم .. أتشرب كأسا أخرى ؟

ــ لا أريد أن أذهب إلى الفندق محمولا على الأعناق .

وهمت بالرد .. عندما تحدث جارها فبدأت تباشر عملية الترجمة لحساب الجار .

٣٦

إلا ساعة .. إلا موضعها

انتهى العشاء .. وعاد « سامى » إلى حجرته فى فندق شبرد ، وضمته الغرفة الدافئة المطلة على النهر العريض ، وأحس لأول مرة بشىء من السكينة والاستقرار ، واستطاع أن يركز ذهنه لأول مرة فى أحب مجالات التفكير إلى نفسه .. بعد أن كان يختطف التفكير اختطافا وسط تلك الدوامة من المناقشات والبيانات والخطب والقرارات .

واسترخى « سامى » فى المقعد الكبير بعد أن جذبه نحو باب الشرفة الزجاجى ومد ساقيه ، وشرد ببصره نحو أضواء الطريق التى انعكست فى مجرى النيل ، وتملكه إحساس عجيب بالحنين .. وخيل إليه أنه يكاد يسمع حفيف أنفاس رقيقة يسرى دفؤها بين أحضانه ، ومد يده إلى الحقيبة فأخرج من كيسها الداخلى صورة صغيرة أخذ يتأمل بسمتها الحلوة ، ثم قرّبها من شفتيه ومسها فى رفق وما لبث أن أعادها إلى موضعها وهو يحس كأنها جزء من كيانه .

وملأته رغبة فى أن يحدثها ويستمع إليها .. أن يقول لها أشياء كثيرة جميلة .. أن يذكر لها قيمتها فى نفسه .. ومعزّتها عنده .. وأحس براحة وهو يجذب كراسة الاجتماعات ويقلبها على صفحة بيضاء ، وأمسك بالقلم . ومضت برهة وهو يقرض طرفه بأسنانه وقد بدا عليه الشرود والحيرة .. حتى بدأ الكتابة :

« هدى ..

أتعرفين أن الكتابة إليك مشكلة .. وأنى ظللت أتلهف عليها وأحضر لها فى ذهنى .. حتى أمسكت القلم .. وبدأت الكتابة ، فإذا بى أقف أمامك عاجزا .. تماما كما كنت أحضر لك الحديث ثم ألقاك .. فإذا بكل ما فى ذهنى قد تبدد ، وإذا

بنا نتبادل الصمت بدل الحديث ، وإذا بكل منا يحملق فى الآخر ويبتسم فى سذاجة .. كصغار التلاميذ ، ومحدثى الحب !

مشكلة أن أكتب إليك .. كيف أناديك ؟ إن نطق ألفاظ التدليل سهل .. ممتع .. ولكن كتابتها قد تمسخها ، وتضيع رقتها وحلاوتها ، والمناجاة الحلوة الهامسة التى نتبادلها .. قد يكون لترديدها حلاوة فى الأذن ، ولكنى أخشى لو وضعتها على الورق أن تكون جافة معادة ، وألا يزيد وقعها فى النفس .. عن وقع العلامات الموسيقية لنوتة مكتوبة .. وشتان بين وقع اللحن فى الأذن ، وأثر علامات النوتة على البصر .

أيمكن أن ألخص حديثى إليك .. بعد هذا العجز والحيرة فى أن بى لهفة عليك وشوقا إلى لقائك !؟ وإن كنت — فيما بينى وبين نفسى — لا أدرى لهذه اللهفة مبررا .. فطيفك يروح ويغدو أمامى .. فى إصرار .. كأن الدنيا قد خلت إلا منه . أو كأنه يفرض علىّ نوعا من الرعاية ، أو الحماية ، أو ربما الرقابة .

وصورتك فى ثوبك الرمادى الفضفاض .. وبردى ينساب أسفل الشرفة ، وأنت تلوّحين بيدك .. قد انطبعت فى ذهنى لتحجب كل ما عداها ، وتقف حائلا بينها وبين غيرها من المرئيات .

بى لهفة عليك رغم حالة الاحتلال التى فرضتها علىّ .. والحصار الذى ضربته حولى .. ولا أظن هناك محتلا .. قد اشتاق إلى مستعمره كما اشتقت إليك .

ترى ماذا أهاج حنينى إليك .. وملأنى باللهفة على الحديث معك ، ودفعنى إلى أن أمسك القلم لأكتب إليك ؟!

أهو المقعد المريح واسترخائى فوقه .. بحضن فارغ .. وذراعين لا تضمان سواى ، وأنفاس إخالها تتردد .. ثم أنصت فلا أسمع غير حفيف الأشجار تهزها نسمات الليل ؟

أم تراه الأفق الممتد بأضوائه المنعكسة فى مياه النيل الزرقاء .. إخالها من فرط

الشوق مصابيح الطريق تتلألأ فى مجرى بردى ؟

أم هى الساعات الطوال التى مرت بى وأنا أنطلق فى بيداء العمل وأنت واقفة بباب الذهن .. أتطلع إليك خلسة .. حتى خلوت بنفسى ، فاندفعت إليك اندفاع الصادى إلى غدير .

أيا كان سبب الحنين .. لقد وجدت نفسى أجلس لأفكر فيك ، ثم أمسكت بالقلم لأكتب إليك .

ثم .. وقفت بعد ذلك حائرا مشدوها .. لا أعرف ماذا أقول .

فالكتابة إليك مشكلة .. إن لدىّ الكثير مما أود قوله . ولكن هذا الكثير لو قلته لبدا كأحلام الشعراء .. هل أصف لك القمر يتسلل من وراء السحب .. والنهر العريض تلوّنه المصابيح المترنحة على صفحته ؟.. هل أحدثك عن الشوق والحنين ، وكل ما يصطخب فى نفسى من أحاسيس لهفى عليك .

كيف أصوغه ؟! كيف أكتبه على الورق ؟!

كلام كالذى يكتبه الناس !

هراء .. فى هراء .. إنه أكبر كثيرا مما يكتبه الناس .. أكبر كثيرا من الكلمات الضيقة التى تحملها بوصفه ما لا طاقة لها به .

بل .. كيف أصفك أنت نفسك .. لو حاولت .. أنفك الدقيق .. وعيناك الصافيتان ، وسماتك النبيلة .. و .. و .. وماذا ..؟!

أهذا حقا كل ما بك ؟!

هراء .. أيضا .. فى هراء .. أنت شىء أكبر كثيرا من الإطار الذى تصنعه تلك الكلمات التى تحدد شكلا جميلا .. قد تتساوين فيه مع غيرك من الجميلات .. أنت شىء معنوى ترجح كفته .. كل ما فى حياتى من معنويات مهما بدا من قيمتها وأهميتها .

هل استطعت أن أشعرك بحقيقة موقعك فى نفسى .. بل فى حياتى ؟!

ولكن أتحسين أنت بحاجة إلى هذا التعبير والتقويم ؟!

ألم تعرفى موقعك عندى بعد ؟

عن نفسى أنا .. أحس بالرغبة الدائمة فى أن تؤكدى موقعى عندك .. وأن تحدثينى دائما عنه .

أحس فى كل لحظة بأنى أكاد أهتف :

موقعـــى عنـــدك لا أعلمـــــه آه لو تعلـــم عنـــدى موقـــعك

هل أقف من حياتك كما تقفين من حياتى .. فى القمة !؟

هل تشعرين بحصارى كما أشعر بحصارك !؟

هل أغمضت عينيك عن كل ما عداى .. كما أغمضتهما عن كل ما عداك ؟

هل يلازمك طيفى كما يلازمنى طيفك ؟ هل .. وهل ..؟

أسئلة كثيرة تطوف بذهنى .. وأود لو سمعتِ ردّها همسا من شفتيك .. ولكن أعجز ما فى الكتابة أنها تريق مناجاتنا ومشاعرنا على الورق وكأنها صيحة فى واد .. لا نسمع لها حتى رجع الصدى .. إننا نبيع الحب فيها .. بثمن مؤجل .. الله وحده يعلم متى نقبضه .

أتفلسف عليك ؟!

ولِمَ لا !؟

فى جلستى هذه .. والحنين لا يعيدك .. والشوق لا يردك .. والسحب تعدو على وجه القمر .. والماء ينساب على وجه المصابيح .. ولا شىء يؤنس وحشتى سوى هذا الحفيف الذى يخدعنى فى هبات أنفاسك .

ماذا أملك غير أن أكتب لك وأناجيك .. وأتفلسف عليك ؟

وأقول لك إن الكتابة إليك مشكلة .. ثم أكتب إليك أربع صفحات .. تملؤها الحروف من أولها إلى آخر سطر فيها .

ماذا إذن .. لو لم تكن الكتابة إليك مشكلة ؟!

أتدرين الحق !؟

ليست مشكلة أبدا .. أن أحدثك أو أكتب إليك .

فما أحببت شيئا فى حياتى .. ككل ما أفعله معك .. من النظرة الصامتة .. إلى الضمة الحلوة .. إلى الثرثرة البلهاء .

وبعد .. أبقى شىء لم أتحدث عنه ؟!

الكثير .. الكثير جدا .. فما أظننى بعد كل ما قلت ... قد قلت شيئا .

ولكن لماذا لا أحتفظ به حتى ألقاك .. لقد أخذ تعب الليل يتسلل إلى جسدى .. وأود أن أتمطى ، ثم أسترخى على الفراش .. وأتخيل جمرات المدفأة فى صوفر تلمع فى ركن الغرفة .. وأنصت إلى البرّد يتساقط على زجاج النافذة .. وأضم ذراعى فأجد جسدك منطويا فى صدرى .. وأنفاسك تتردد دافئة على عنقى .

وأغمض عينى .. على ليلة .. كأنها حلم فى الدجى .. أو خلسة المختلس .. وأكاد أتسمع من حفيف الشجرة .. صوتا يهتف :

قد يهون العمـــــر إلا ساعـــــة أو تهون الأرض إلا موضعـــــاً

« سامى »

٣٨

محاولة لثأر

ألقت « هدى » نظرة على صندوق البريد .. وأصابتها رجفة .

فقد تعوّدت أن ترقبه منذ أن سافر سامى .. كانت تنتظر منه كلمة تخرجها من هذا الفراغ الذى تعيش فيه .

متى سيأتى ؟! كيف يعيش ؟! أما زال يذكرها ؟! أما زال يحبها ؟!

كانت تود أن تسمع منه كلمة تطمئنها عليه ، وعلى نفسها .

ومضت بها الأيام القلائل ، وكأنها دهور .. لم تكن تعرف قط أن الزمن ذو وجهين ، وجه يمر بنا فى اللقيا كأنه البرق ، ووجه يتهادى بنا فى الفرقة كالسلحفاة .

لم تتخيل « هدى » قط أن عقرب الساعة ، الذى كان يعدو بها بين أحضانه .. هو نفسه .. المتئد المتمطى .. المتناوم فى غيابه .

لقد بدا لها الزمن المتعجل ، وكأنه قد انتهز فرصة بعده ، وحصل على إجازة .

وراحت تستحث الأيام المتباطئة .. وهى تبحث فى الصحف عن أخباره ، وتنصت إلى الإذاعة علها تلتقط نبأ عنه .. وتدق له التليفون علها تفاجأ بصوته ، وتحملق فى صندوق البريد آملة فى رسالة منه .. وهمت ذات مرة أن تسأل عنه « سليم » .

ووسط كل هذه « الدوخة » لمحت رسالته فى صندوق البريد ، ففتحت الصندوق فى لهفة ، واختطفت الرسالة لتجد طابع البريد المصرى عليها .. فانطلقت تعدو بها إلى أعلى .

ورأتها « أم حبيب » تتجاوز حجرة المائدة ثم تتجه مسرعة إلى حجرة النوم ، فهتفت بها متسائلة :

— أنجهز الغداء ؟

وفى عجلة سمعت ردها :

— بعدين . بعدين .

ودخلت إلى الغرفة وأغلقت الباب .

كان الخطاب فى حد ذاته .. وجبة .

وفتحت الظرف ، وقلبها يدق .. وأبصرت خطه .. فرفعت الرسالة إلى شفتيها ، وضغطت فيها وجهها كأنها تضمه ، وأخذت تشم الورق كأنها تشم أنفاسه .

ومضت برهة وهى تمسك بها ، دون أن تحاول قراءتها .. كأنها سعيدة بمجرد إمساكها ، وتحسسها .

وهدأت أعصابها قليلا .. فبدأت القراءة،واستمرت تقرأ .. وتقرأ .. حتى دقت الساعة أربعا .

وهزت « أم حبيب » رأسها وهى تغادر المطبخ متجهة إلى حجرة النوم وقد أصابها القلق لعدم طلب « هدى » الغداء .

واقتربت من الباب فلمحتها مستلقية على وجهها فى الفراش وقد أمسكت الرسالة بين يديها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة وشاعت السعادة فى قسماتها .

وهمست « أم حبيب » لنفسها :

— إلٰهى يعدلها لك .. كل هذا من أجل رسالة .. والله لو كان بها مليون ليرة لما منحتك كل هذه السعادة .

وأحست « هدى » بهمسها فرفعت رأسها متسائلة :

— نعم يا أم حبيب !

ــ نعم الله عليك .. ألا تريدين الغداء ؟

ــ الغداء ؟!

قالتها وكأنها نسيت أن الإنسان يتناول شيئا اسمه الغداء .

وأطرقت « أم حبيب » وقالت فى هدوء :

ــ أجل .. الغداء .

ــ طبعا .. طبعا .. سآتى حالا لتناوله .

ثم قفزت من الفراش متسائلة فى فرحة :

ــ ماذا أعددت اليوم يا أم حبيب ؟

ولم تتوقف « أم حبيب » للإجابة ، بل سارت إلى المطبخ كأنها قطار سكة الحديد وهى تتمتم :

ــ أعددت طعاما من الذى تأكلينه كل يوم .. هل أنت دارية بشىء من حولك ، ما دام حبيب القلب غائبا !

وسارت « هدى » إلى حجرة المائدة وهى تدندن بالغناء ، وقبل أن تستقر على المقعد دق جرس التليفون ، ومدت يدها فرفعت السماعة قائلة :

ــ هاللو .

وسمعت صوت رياض يجيبها متسائلا :

ــ هدى ؟

ــ أهلا وسهلا .

ــ أهلا بك .. كيف حالك ؟

ــ الحمد لله .

ــ ماذا تفعلين ؟

ــ أوشك على الغداء .

ــ الآن .. لقد كنت أخشى أن أوقظك من النوم .. ماذا أخرك حتى الآن .. أتعرفين كم بلغت الساعة ؟

ونظرت « هدى » إلى الساعة فوجدتها الرابعة والربع فأجابت قائلة :

ــ الواقع أنى حضرت من الخارج متعبة .. ففضلت أن أستريح ثم أتناول الغداء .

ــ سأحدثك بعد الغداء إذن .

ــ لا .. لا .. إن أم حبيب لم تجهز المائدة بعد .. ثم إننى أستطيع أن أحدثك وأنا أتناول الطعام .

ــ ماذا ستفعلين بعد الغداء ؟!

ولم تكن « هدى » تحس بارتباط بموعد ما .. فى غياب « سامى » .. كانت تحس بأنها تعيش فى فراغ عريض .. فقالت بلا تفكير :

ــ لا أظننى سأفعل شيئا .

ــ إذن أزورك لنشرب الشاى سويا .

ــ أهلا وسهلا .

ــ فى أى ساعة ؟

ــ وقتما تريد .

ــ السادسة ؟

وقبل أن تجيب تذكرت موعدها مع الطبيب فى السادسة فأجابت :

ــ لتكن السادسة والنصف .. لأن لدىّ موعدا فى السادسة مع الطبيب فى عيادته .

ــ حسن .. سأكون عندك فى السادسة والنصف .

ووضعت « هدى » السماعة بعد أن ردت تحيته .. وبدأت تتناول الطعام .. وذهنها ما زال يستعيد رسالة « سامى » .

ولم تستطع زيارة « رياض » أن تحوّل تفكيرها .. أو تعكر صفوه فقد تعوّدت فيه تلك الزيارات ، واستطاعت أن تروضه على وضعها الجديد .. والقائم على أساس وجود « سامى » كشىء حيوى فى حياتها .. ولم يجد هو بدا

من التسليم به .. والرضاء بأن يتخذ هو وضع الصديق الذى لا حق له فى غيرة أو مناقشة أو حساب .. ولم يصعب عليها أن تفهم « سامى » حقيقة وضعه .. كصديق قديم كبير .. لا وجه مطلقا للخشية منه .. وأقنعته مخلصة أنها على أتم استعداد لقطيعته فى اللحظة التى يطلب منها ذلك .. وصارحته بكل زيارة لها وكل زيارة له .

وكانت على ثقة تامة من اقتناع « سامى » بحقيقة وضع « رياض » .. وبعدم ضيقه منه أو كرهه له ، ولكنها لم تعرف بالضبط إلى أى مدى كان اقتناع « رياض » بوضع « سامى » ، وإلى أى مدى قد سلم به ورضخ له .. لم تعرف حقيقة باطنه ، وإن كانت قد اقتنعت بما أبداه من رضاء لم يملك هو أن يبدى غيرة .. ما دام قد أضحى عليه أن يختار بين الحرمان منها أو التسليم به ...

وقبيل السادسة كانت قد استعدت للذهاب للطبيب لإجراء فحص كان عليها أن تقوم به بعد مدة معينة من إجراء العملية وقبل أن تعاود حياتها الطبيعية وتباشر عملها .

وقبل أن تخرج نادت على « أم حبيب » من المطبخ قائلة :

— سأذهب إلى الطبيب وأعود بعد نصف ساعة .

— بالسلامة .

— لا تغادرى البيت حتى أعود لأن « رياض بك » سيأتى فى السادسة والنصف وأخشى أن يحضر قبل أن أعود فلا يجد أحدا ..

— وماذا سأفعل إذا أتى قبل أن تعودى ؟

— أدخليه وأعدى له الشاى .

وتمتمت « أم حبيب » بكلمات غير مفهومة .. ولم تحاول « هدى » أن تفهمها وإن كانت قد حاولت أن تتأكد من أن كلامها هى قد بات مفهوما للعجوز المتمتمة فعادت تتساءل :

— أفهمت يا أم حبيب ؟

ــ فهمت .. وإن كنت أفضل أن تأتى مبكرة حتى تستقبليه .. لم يعد فىّ نفس لمجالسة الناس .

ــ لم أطلب منك أن تجالسيه .. فقط قدمى له الشاى .. حتى أحضر ...

ــ إنه يحب الثرثرة والتساؤل والمجالسة .

ــ قلت لك مائة مرة لا تجيبى على أى سؤال يوجه لك . على أى حال سأعود قبل أن يحضر .

ــ مع السلامة .

وخرجت « هدى » متجهة إلى الطبيب .. ولم تكن عيادته تبعد عن بيتها كثيرا .. وفى السادسة تماما كانت تعبر بابها محيية الممرّض وهى تسائله :

ــ الدكتور موجود ؟

وأقبل عليها الممرّض مرحبا مهللا :

ــ أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا .. تفضلى .. لا بد أنه آت فى الطريق .

وجلست « هدى » فى حجرة الانتظار .. ومضت بضع دقائق ثم سمعت وقع أقدام تدخل القاعة فهمت بالنهوض .. ولكنها لم تجد القادم أكثر من زائر ، فعادت إلى مقعدها .

وأخذت الدقائق تمر .. وبدأ القلق ينتابها .. فأمسكت بإحدى الصحف الملقاة على منضدة أمامها وأخذت تتشاغل بقراءتها .. وجذب التفاتها عنوان عريض عن اللجنة التحضيرية للمؤتمر الآسيوى الإفريقى فأقبلت على قراءة الصفحة فى لهفة .. وأخذت تكر السطور علها تعثر على اسم « سامى » .

ولم يصعب عليها العثور عليه .. فقد تكرر فى الصفحة عدة مرات ، وحاولت أن تقرأ الموضوع بأكمله .. ولكنها لم تستطع أن تتبعه حتى النهاية .. كان كل ما يهمها أن تعرف الأشياء الخاصة بسامى .. ماذا فعل وماذا قال .. وماذا يقولون عنه .

وانتهت من القراءة .. ثم نظرت إلى الساعة فإذا بها قد بلغت السادسة

والنصف ، فوثبت من مقعدها متجهة إلى الخارج .. وكان الزوّار قد تكاثروا فى حجرة الانتظار .. ووقف الممرّض بالباب ينتظر وصول الطبيب ، وقد بدا عليه القلق .. وعندما أبصر « هدى » تهم بالخروج .. اعترض طريقها معتذرا فى لهجة آسفة :

ـــ آسف على هذا التأخير .. ولكن لا بد أن يكون قد حدث طارئ أخره .. إنه لم يتعوّد أن يتأخر .. ولا بد أن يكون فى الطريق .. لأنه لم يعتذر فى التليفون .

ـــ لقد انتظرت أكثر من نصف ساعة .

ـــ خمس دقائق أخرى .

ـــ إن لدىّ موعدا فى السادسة والنصف ولا بد أن أذهب إليه .

ـــ سيتضايق الدكتور جدا .. إذا حضر ولم يجدك .

وابتسمت « هدى » قائلة :

ـــ دعه يتضايق حتى يكف عن التأخير عن زبائنه .

ـــ لا بد أن يكون آتيا فى الطريق .

ـــ منذ نصف ساعة ، وهو آت فى الطريق .. لعله لا يكون آتيا من حلب .

ـــ أبدا .. أبدا .. إنه آت .. من ...

ولم يكمل الرجل حديثه فقد اقتحم الطبيب الباب ، وهو يجفف عرقه قائلا :

ـــ هدى هانم .. آسف جدا .. لقد دعيت لعملية طارئة .. تفضلى .

ـــ سآتى لك فى وقت آخر .

ـــ غير معقول .. تفضلى .. تفضلى .

ـــ إنى على موعد فى السادسة والنصف .

ـــ لن أؤخرك أكثر من خمس دقائق .. تفضلى .

ولم تملك « هدى » إزاء إلحاح الطبيب إلا أن تتفضل .. لقد تأخرت فعلا عن موعد « رياض » .. ولكن إذا كان قد استطاع أن ينتظر خمس دقائق .. فلا شك أنه يستطيع أن ينتظر أكثر .. والبركة فى « أم حبيب » .. إنها تستطيع أن تسليه بثرثرتها .. رغم ادعائها أنها تكره المجالسة .

ولكن « أم حبيب » كانت فى ذلك الوقت قد انهمكت فعلا فى إعداد الشاى .. فقد وجدت فى إبريق الشاى واقيا لها من أسئلة الرجل .. واقيا لسيدتها من شر ثرثرتها معه .

وجلس « رياض » وحده فى حجرة الجلوس .. وقد بدا عليه الضيق .. فقد كان يتوقع بعد أن أجلت « هدى » الموعد حتى السادسة والنصف أن يجدها فى انتظاره .. ولكنه أحس بالخيبة ، وهو يجد « أم حبيب » تفتح له الباب وتعود إلى الداخل وتخبره أن سيدتها قد ذهبت إلى الطبيب وستأتى حالا .

ومرت الدقائق بطيئة مملة ، وحاول « رياض » أن يتشاغل بالاستماع إلى الراديو فوجد به برنامجا للأطفال فأسرع بإغلاقه ونهض إلى جهاز التسجيل فأخذ يتشاغل بفحص الأشرطة .. ثم أمسك بواحد منها ، ووضعه فى الجهاز وأخذ فى إدارته .

ودار الشريط بأغنية راقصة .. وزادت الأغنية من ضيق « رياض » . واتجه إلى الجهاز لتغيير الشريط .. عندما وجد الأغنية قد توقفت ، ثم استمع إلى صوت رجل يهمس فى الشريط :

— هيا .

وأحس بأعصابه تتوتر وبسمعه يرهف عندما سمع صوت « هدى » ترد هامسة :

— قبلنى أولا .

ووصلت إلى مسامعه صوت قبلة أعقبها صوت « هدى » ليقول فى نشوة :

— قبلنى أكثر .. وأكثر .

ورد عليها الصوت الآخر الذى لم يشك فى أنه صوت « سامى » هامسا فى رفق :

— يا حبيبتى .. لقد بت أقصى ما أريده فى هذه الحياة .. بت أقصى أمانى ومنتهى آمالى .. لا أريد من حياتى شيئا أكثر من بقائك معى .

وردت عليه « هدى » هامسة فى صوت ذائب :

ــ نفس ما أحس به .

ثم تعالت دقات البيانو .. واسترسلت « هدى » فى الغناء بصوت حزين تكاد الدموع تقطر من نبراته .

واستمر « رياض » ينصت حتى انتهت الأغنية .

ثم سمع صوت « هدى » يهمس قائلا فى لهجته الذائبة .

ــ أحبك ولا أريد فقدك .

ورد عليها « سامى » :

ــ أفقد روحى قبل أن أفقدك يا حبيبتى .. يا أعز الناس .. « هدى » .. أحبك .

وهمست به « هدى » .

ــ سامى .. قل لى إنى سأجدك دائما عندما أناديك .. لا أريد أن أناديك فيجيبنى الصمت .

ــ سأرد عليك دائما ، دائما .. ما دام فىّ نفس يردد .. هدى ...

ــ سامى !!

وانتهى الشريط .. وأحسن « رياض » بشىء يطبق على صدره .. ويلوى أمعاءه .. وتصاعد الدم إلى وجهه حتى أحس أنه يوشك أن يختنق ، ونظر إلى الجهاز .. وكان خصمه اللدود يكمن داخله . وتمنى لو استطاع تحطيمهما معا .. وود لو أمسك بالشريط فمزقه إربا .. لعله يسكت بذلك صوت صاحبه إلى الأبد .

إذا فهى تحبه كل هذا الحب .

لماذا ؟!.. أى شىء يميزه عنه .. هو الذى قضى السنين الطوال يكاد يركع عند قدميها .. إنها رضيت به عشيقا .. ولم ترض به هو زوجا .. وهى تريده أن يسلم بهذا .. ويبقى بجوارها راضخا مستسلما .

ولقد حاول هو أن يفعل هذا .. أن يسلم بمجرد رؤيتها .. وظن أنه روّض نفسه على الصبر حتى يغير الله ما بينهما .

ليس هناك شيء فى الوجود يمكن أن يدوم إلى ما لا نهاية .. أمر لا بد أن يحدث .. لينته هذا الشيء الذى يربطهما .. وبهذا الأمل استطاع أن يصبر ، وأن يتجلد ، وأن يقاوم نوبات اليأس المدمر الذى كان ينتابه من حين إلى حين .

أما الآن .. وهو يستمع إلى هذه المناجاة الخانقة .. فقد أحس أن صبره قد نفد .. شيء ما لا بد أن يفعله حتى ينفس عن ذلك الحقد الذى يغلى فى جوفه .. فيكاد يقتله .

يدمر الجهاز .. أو يمزق الشريط .. أو يقتلها ، أو يقتله ، أو يفعل كل ذلك معا .

وبعد .. ما النتيجة ؟! أيستطيع هو أن يقتل أحدا !؟

كلام فارغ .. إنه لا يجرؤ أن يذبح دجاجة .

وإذا مزق الشريط .. وحطم الجهاز .. أسيمنع ذلك صاحب الصوت أن يكرر الحديث .. ويعيد المناجاة ؟!

وأمسك بالشريط ، وخلعه من الجهاز .. وقد طاف بذهنه خاطر مفاجئ .

كيف طاف بذهنه أن يمزق هذا الشريط .. أن يضيع هذا الكنز !؟

إنه لا يقضى على صاحبه .. لو حاول أن يمزقه .. إنما القضاء عليه بإذاعته وليس بإسكاته .

أجل .. أجل .. إنه لقطة .

ترى ماذا يقول فؤاد لو استمع إليه !

وفى لمح البرق رفع سماعة التليفون ، وطلب نادى الشرق وسأل عن فؤاد .. وبعد لحظات كان صوت فؤاد يجيبه قائلا :

ــ أهلا « رياض » .. كيف حالك ؟!

ــ اسمع يا « فؤاد » .. لقد عثرت لك على شيء لا يمكن أن يخطر ببالك .

— ما هو ؟!
— وثيقة يمكن أن تدفع من أجلها الشيء الكثير .
— قل ما هى وخلصنا ؟!
— شريط مسجل بصوت صاحبك .
— من ؟.
— « سامى » .
— ماذا به ؟!
— مناجاة بينه وبين صاحبتنا .. تثبت كل ما بينهما من علاقة .
— أتتكلم جادا ؟!
— طبعا .
— وكيف حَصلت عليه ؟!
— مجرد صدفة .
— وما الذى دفعه إلى تسجيله ؟
— لكى يخرب بيته .
— أمتأكد أنه بصوته ؟!
— طبعا .
— من أين تتكلم ؟
— من بيتها .
— بيت « هدى » ؟
— أجل .
— غير معقول .. أتقول كل هذا من بيتها ؟
— إنها غير موجودة .
— اسمع .. أتستطيع أن تحضر الشريط ؟
— طبعا .

— متى ؟!

— الليلة .. عندما أنتهى من مقابلتها .

— أين ؟

— فى بيتى .. سأسمعه لك عندى على جهاز التسجيل .

— فى أية ساعة ؟

— الثامنة ؟!

— سأترك كل ما لدّى .. وآتى إليك .. لقد وقع فى شر أعماله .. سيفيدنا جدا هذا الشريط .

— ماذا تنوى أن تفعل به ؟

— دع الأمر لى .. سأعرف كيف أقضى على كل ما حققه فى القاهرة .. سأعرف كيف أثأر مما فعله بنا .. سآتى إليك فى الثامنة .. مع السلامة .

ووضع « رياض » السماعة وأخفى الشريط فى جيب معطفه الموضوع على الأريكة .. وخطت « أم حبيب » خطوتها الأولى بعد أن طال انتظارها بالباب ، وهى تحمل صينية الشاى وتنصت إلى الحديث الذى دار فى التليفون .

ووضعت الصينية فى صمت .. وهى تنقل بصرها بين الرجل .. والشريط المطوى فى المعطف .

ووقفت تنتظر أن يدق الجرس لتدخل سيدتها لتنقذ الشريط من بين يديه .

وفجأة تناول الرجل المعطف ، ثم أسرع متجها إلى الخارج قائلا :

— قولى لسيدتك إنى انتظرتها ، حتى السابعة .. واضطررت إلى الانصراف لأن لدىّ موعدا هاما .

— ألا تنتظر حتى تحضر .. إنها لا بد آتية فى الطريق ؟

— سأتصل بها فى التليفون .

وقبل أن ترد العجوز ، سمعت صوت الباب يغلق ، والرجل يهبط السلم مسرعا . ولم تملك إلا أن تضرب كفا بكف .. وقد بدا عليها العجز والذهول .

٣٩

مطـاردة

لم تمض بضع دقائق على خروج « رياض » حتى دق جرس الباب .. وسارت « أم حبيب » لتفتحه .. فانفلتت منه « هدى » فى عجلة وتساءلت لاهثة :

ــ هل أتى رياض بك ؟!

وردت « أم حبيب » بلهجة هادئة لا تخلو من التهكم :

ــ وخرج .

ــ خرج ؟.. لماذا ؟

ــ لماذا ؟! لأنه لم يجدك .. ألم يكن موعدك معه فى السادسة والنصف !

ونظرت « هدى » فى ساعة يدها فوجدتها قد جاوزت السابعة فقالت فى تبرم وملل :

ــ تأخرت عليه نصف ساعة .. ولم أكن أظن أن لديه من جلائل الأعمال ما يمنعه من الانتظار .. فلماذا لم ينتظر ؟!

ــ لقد انتظر بما فيه الكفاية .. وأخذ يتسلى بالاستماع إلى جهاز التسجيل .

ولم تعبأ « هدى » بقول « أم حبيب » وهزت كتفيها وقذفت بحقيبة يدها على الأريكة ثم اتجهت إلى التليفون .

واسترسلت « أم حبيب » فى حديثها وهى ترقبها فى هدوء :

ــ ويبدو أن أحد الأشرطة أعجبه .. فأخذه وهرب .

وتوقفت « هدى » .. وقبل أن تمد يدها إلى سماعة التليفون التفتت إلى العجوز متسائلة :

ــ أحد الأشرطة أعجبه ؟!

— أجل .

— وأخذه ؟

— وهرب .

واستدارت « هدى » إلى العجوز ، واقتربت منها وقد بدت عليها الدهشة وتساءلت فى غيظ :

— أتمزحين ؟

— بل أقول ما حدث .

— أتعنين أنه سرق أحد الأشرطة ؟

— بل خطفه .

— ولماذا لم ينتظر حتى أعطيه له .. وأنا لم أكن لأضن عليه به .

ونظرت إليها العجوز فى غيظ وتساءلت :

— تعطينه له !. هكذا !. بمثل هذه البساطة !

وفجأة برقت الحقيقة فى ذهن « هدى » .. وصاحت :

— لا أظنك تعنين الشريط الذى ...

— بل هو ما أعنيه .

وبدا الذهول على وجه « هدى » وهتفت كأنها تحدث نفسها :

— غير معقول .. غير ممكن .

وبسطت العجوز كفيها فى حركة استسلام يائسة وقالت :

— معقول أو غير معقول .. هذا هو الذى حدث .

ووقفت « هدى » تتمتم كالمأخوذة :

— ولكن كيف جرؤ ؟! كيف تجاسر ؟!

ثم وجهت الحديث إلى « أم حبيب » تحاول التأكد منها لعلها تكون مخطئة :

— أواثقة أنت من أن الشريط به كلام ؟

واسترسلت « أم حبيب » تكمل سؤال « هدى » مؤكدة :

ــ بينك وبين سيدى سامى بك ..

وانفجرت « هدى » صائحة :

ــ ولماذا تركته يأخذه ؟

وكانت العجوز تعرف كيف تواجه انفجاراتها فأمسكت بذراعها فى رفق وأجابتها بهدوء :

ــ لم أكن أستطيع أن أمسك بخناقه .. أو أعدو وراءه .. أو أطلب الشرطة .. لم يخطر ببالى قط أنى أملك مثل هذا التصرف مع ضيوفك . ثم ...

وهزتها فى شيء من العصبية وأردفت لائمة :

ــ أمثل هذا الشريط .. يترك هكذا نهبا للأسماع !؟ كنت أظنك أشد حرصا من هذا .

وانهارت « هدى » على الأريكة وأجابت فى صوت خافت :

ــ كنت أستعيد سماعه صباح اليوم .. وتركته مع بقية الأشرطة .. لم يخطر ببالى أن أحدا سيدخل البيت .. لكى يستمع إليه ثم يأخذه ويهرب .

وعادت تصر على أسنانها صائحة فى غيظ :

ــ ولكن لماذا يأخذه ؟! ماذا يهمه منه ؟

ــ أظنه فى حاجة إلى أن يسمعه لبعض الناس .

وقفزت « هدى » من مقعدها كمن لسعتها أفعى ، وأمسكت بذراعى «أم حبيب » تهزها فى عنف صائحة :

ــ ماذا تقولين ؟ يسمعه لبعض الناس ؟

ــ أجل .

ــ كيف عرفت ؟

ــ سمعته يتحدث فى التليفون إلى شخص اسمه فؤاد .. وواعده على اللقاء فى بيته .. ثم وضع الشريط فى جيب معطفه .. واندفع إلى السلم .

وضغطت « هدى » على ضروسها وهتفت وهى تحاول أن تقاوم نوبة بكاء

توشك أن تعصف بها :

ـــ المجنون .. السافل .. المنحط .. كان يجب أن أكون أكثر حذرا منه .

ثم اندفعت إلى الباب كالقذيفة .. دون أن تترك فرصة لأم حبيب لكى تسألها إلى أين تذهب .. ولا متى تعود .

ولم تعرف كيف هبطت السلم .. ولا كيف جلست فى السيارة وأدارتها وانطلقت بها .. كان ذهنها يدور فى حركة صاخبة .. تذكرت حديث سليم عند عودتهما من صوفر .. تذكرت آماله فى سامى وخوفه عليه منها .. وخشيته من أن تكون سببا لتدميره .. وتبديد إيمان الناس به .. وتذكرت سخريتها من حديث سليم .. وعجزها عن أن تفهم كيف يمكن أن تسىء إلى سامى أو تخدشه .

وتصوّرت ما يمكن أن يفعله هذا المجنون الذى يأكل الحقد قلبه .. بمثل هذا التسجيل .. لو سلمه إلى خصوم سامى .

كيف يمكن أن يستغلوا مناجاتهما المقدسة ، فى السخرية منه والهزء به ؟

تصوّرت أى كارثة يمكن أن تحل به .. لو أقدموا على إذاعته بين أنصاره بدل أحد أحاديثه .

وأحست بمرارة أليمة .

هذه الحياة الساخرة !! لماذا تجعل من أجمل مشاعرنا سببا لسخرية الناس بنا .. وخجلنا من أنفسنا !!

لماذا لا يفهم الحب غير أصحابه .

لماذا تأبى الحياة إلا أن تبديه بوجهيه المتناقضين .. وجه القديس لأصحابه .. ووجه المهرّج فى عيون الناس .

لماذا تأبى إلا أن تجعل الحب عورة يجب سترها .. حتى لا تفضح أمام الغير ؟!

ولكن .. هل كل الحب عورة ؟!

أم حبها فقط .

وهزت رأسها كأنها تحاول أن تسكت ذلك الطنين الذى يصطخب فى داخلها .. ولكن الهزّة لم تستطع أن توقف حركة التروس الدائرة فى ذهنها ، والتى تتواثب عليها الأفكار ، متشابكة متداخلة .

أجل .. إن حبها هو العورة التى يجب سترها .

ولكن .. أترى الناس .. يحترمون الحب عندما لا يباشرونه .. حتى ولو لم يكن .. مثل حبها .. عورة يجب أن تستتر !!

لا تظن ...

الناس قساة .. تملأ الأنانية قلوبهم .. لا يقيسون الأمور فى الحياة إلا بمقاييسهم الخاصة .

الحب الحياة .. إذا ما أحبوا .. فإذا ما أحب الغير .. أضحى الحب خبلا ، وهبلا .

ومع ذلك .. ليقل الناس ما يقولونه .. إنها تحب .. وتحس بقيمة هذا الحب فى حياتها .. ولا تملك إلا أن تقيسه بمقاييسها المرهفة ، وقلبها الخافق الملهوف ، وتقوّمه بأحاسيسها كأثمن ما فى الوجود ، وأجمل ما فى الكون .

ولا تملك إزاء هذا إلا أن تتمسك به بكل ما تملك من قوى ، وتصونه من كل شر ، وتقيه من كل عدوان .

ووقفت العربة أمام بيت « رياض » ، ووثبت « هدى » منها .. وملؤها التحفز للعراك ، والإصرار على أن توقف تلك الحماقة التى يوشك أن يرتكبها هذا الحاقد المجنون .

ودفعت باب الحديقة فانفتح ، ولمت ياقة المعطف حول عنقها وهى تحس برطوبة الليل تلسع وجهها .. ورفعت رأسها فلم تبصر أنوارا فى النوافذ تدل على وجود أحد فى البيت .. واقتربت من الباب الداخلى ودقت الجرس .. ومضت فترة قبل أن تسمع خطوات الخادم يقترب ليفتح الباب .

ولم يكد الخادم يبصرها حتى فتح الباب على مصراعيه وهتف مرحبا :

ــ أهلا وسهلا .. تفضلى يا ست « هدى » .

وخطت « هدى » إلى الداخل وهى تحاول جهدها أن تتمالك وتكبت انفعالها ، وتضبط أعصابها .. واستطاعت أن ترسم على شفتيها ابتسامة ترد بها على الترحاب الذى لقيها الخادم به .. ثم سألت بقدر ما استطاعت من هدوء :

ــ البيه موجود ؟

ــ خرج منذ ساعة .. تفضلى .

ــ والست « هناء » ؟

ــ توشك أن تحضر .. لا أظنها ستتأخر أكثر من ذلك .

وسارت « هدى » إلى البهو .. وأعصابها تزداد توترا .. وذهنها يزداد صخبا .. كان المفروض أن يصل هذا المجنون إلى البيت قبلها .

على أية حال لتنتظره برهة ، فربما قد مر فى طريقه بمكتبه ، أو بالسوق .. ولا شك أنه فى طريقه إلى البيت . فموعده مع صاحبه هنا فى البيت كما قالت « أم حبيب » .

ولكن .. هب « أم حبيب » أخطأت الإنصات أوأخطأت الفهم !

هب الموعد كان فى بيت الرجل الذى حدثه ، أو فى النادى أو فى مكان آخر !

لماذا تأخذ كلام « أم حبيب » قضية مسلما بها ؟

ولكنها أخذته من البداية على أنه كلام لا يقبل المراجعة أو الشك .

حماقة ؟!! إنها تعرف أن نصف كلام العجوز فارغ .. وتعرف مدى عجزها عن النقل الدقيق لكل ما يقال لها . بل تعرف كيف تحوّر فى أسماء الذين يطلبونها فى التليفون .. وكيف تحرّف فى أحاديثهم .

لماذا إذن اندفعت فى تصديقها فى كل ما قالت ؟

ألا يجوز أن الرجل لم يأخذ شيئا معه .. وأنه ملّ الانتظار .. فأبت عليه كرامته إلا الرحيل ؟

ثم .. ألا يجوز أن يكون فعلا أخذ شريطا .. ولكنه ليس الشريط المقصود ..

بل شريطا لبعض أغان أعجبته .. كما تعود أن يفعل دائما ؟

لماذا لم تراجع العجوز فى أقوالها ؟

ولكن كيف عرفت « أم حبيب » أن هناك شريطا به حديث بينها وبين « سامى » .. لعلها سمعته ذات مرة .. أو لعلها هى التى أوحت إليها بذلك .

يجب عليها أن تتروى فى مواجهة « رياض » .

يجب ألا تلقى التهمة جزافا .

خير لها أن تستدرجه فى الحديث .

ولكن لماذا لم يأت حتى الآن ؟

أيمكن أن يكون قد ذهب إلى صاحبه مباشرة ؟

ولِمَ لا ؟.. كل شىء جائز .

هى تجلس هنا فى انتظاره .. وهو يجلس هناك للاستماع إلى التسجيل وحوله ثلة الغجر .. يسخرون منه ما شاءت لهم خستهم وأحقادهم .

وكان الخادم قد اقترب بصينية الشاى ووضعها على المنضدة ، ووقفت « هدى » وراء الباب الزجاجى العريض الممتد بعرض الحجرة والمفضى إلى الحديقة بعد أن أزاحت عنه الستار .

وبدت أشباح الأشجار من وراء الزجاج جرداء تتسلل الريح بين فروعها . ووصل إلى سمعها خرير الجدول ينساب بجوار سور الحديقة .

وازداد بها القلق .. وهى ترهف السمع لأصوات العربات التى تنطلق فى الطريق مارقة بباب الدار .. حتى سمعت صوت عربة تقف .. وبابا يغلق .. ثم خطوات تقترب من الشرفة !. وبدا « رياض » يسير بخطوات متثاقلة نحو الباب الرئيسى .. ولكنه لم يكد يلمح ضوء البهو يبدو من باب الشرفة الزجاجى حتى اتجه إليه فى شىء من الدهشة وحب الاستطلاع .

وفوجئ رياض بهدى تقف وراء الزجاج .. وتملكه إحساس اللص يواجه الشرطة فجأة وهو عائد بغنيمته إلى البيت .. ولكنه ما لبث أن تمالك

واستضحك ورفع يده ملوّحا بالتحية .

وبحركة عصبية فتحت « هدى » الباب الزجاجى وتضاحكت قائلة :

ــ سأوفر عليك مشوار الباب ودق الجرس .. تفضل .

وأوهمته ضحكة « هدى » أنه بالغ فى أوهامه .. وأنها بلا جدال لم تكتشف بعد مسألة الشريط ، بل قد لا تكتشفها أبدا .. إذا استطاع هو أن ينقله على شريط آخر ثم يعيده إليها .. قبل أن تفتقده .. وهتف بها صائحا فى دهشة :

ــ هدى .. ما هذه المفاجأة المدهشة !؟

وحاول رياض أن يستعيد رباطة جأشه .. ويسيطر على أعصابه ويخفى ما يجيش فى نفسه من انفعالات حادة متباينة .. ولكن صوت المناجاة انطلق يطن فى أذنه .. يثير كوامن شجنه وغيرته وحقده .

وملأت نفسه المرارة والحسرة وهو يتطلع إليها كشىء عزيز قد انتزع منه .. وهو أحق الناس بامتلاكه .. وأحس بأنه يود أن يشدها إليه فى عنف .. ليمنع أحدا من مسها أو الاقتراب منها .

ولم تدع له « هدى » فرصة الاسترسال فى أوهامه .. ومدت يدها مصافحة وهى تحاول أن تكسو وجهها ما استطاعت من هدوء وهتفت مرحبة :

ــ أهلا رياض .. مساء الخير .

وأجاب رياض وهو يشد على يدها :

ــ مساء النور .. أهلا بالهاربة التى لا تعرف المحافظة على مواعيدها .

ــ اضطررت إلى التأخر عند الطبيب .. ولم أتصور أبدا أنك ستقلق وتغادر البيت .. فلما لم أجدك .. صممت على أن آتى أنا لزيارتك .

ــ انتظرتك أكثر من نصف ساعة وخشيت أن تكونى قد نسيت الموعد .

ــ نسيت موعدك !؟ غير معقول !

ــ ولِمَ لا !! ما دمت قد نسيتنا فلم لا تنسى مواعيدنا !.

ــ أنتم الذين نسيتمونى .. منذ أسبوع ولم يسأل علىّ أحد .. لا أنت ولا هناء.

٤٠

ليلة حافلة

كانت « هدى » تلقى بأحاديثها السطحية الهادئة ، وهى تحس بغليان فى جوفها ، وعيناها لا تتحوّلان عن جيب المعطف الذى أخذت ترقبه منذ أن وقع بصرها عليه ، وهو يقترب من الباب الزجاجى متدثرا به .

وبحركة لا إرادية وضع « رياض » يده فى جيب المعطف فاصطدمت بالشريط .. وأحس برجفة .. وود لو استطاع أن يتخلص منه ، ومن المعطف ، فى أقرب فرصة ليجلس وإياها .. بغير إحساس بالتلبس بالذنب والخوف فى كل لحظة من اكتشافه .

ورسم على شفتيه ابتسامة عريضة وقال معاتبا :

ــ نحن الذين لا نسأل عليك ؟!.. وكلما سألنا .. لا نجدك إلا خارجة أو نائمة .. أو رافعة السماعة .. أو شاغلة السكة .

واسترسل فى حديثه ، وهو يتجه بخطوات بطيئة خارج الغرفة قائلا :

ــ حتى كدنا نيأس من الحصول عليك .

وعندما اقترب من باب الغرفة همّ بأن يغادرها قائلا :

ــ عن إذنك دقيقة واحدة .

ولكن « هدى » اعترضت طريقه ، وهى تمسك بذراعه قائلة :

ــ أريد أن أحدثك فى أمر هام قبل أن تأتى « هناء » .. تعال .

وأشارت إلى الأريكة قائلة ، وهى تهم بالجلوس :

ــ اجلس .. لماذا لا تخلع المعطف ؟

وأخذ « رياض » يخلعه ، وهو يحس بدوامة تدور برأسه .. ماذا تريد

« هدى » بالضبط ؟! أتراها عرفت أنه قد أخذ الشريط ؟! لماذا تتصرف إذن بمثل هذا الهدوء !؟ لماذا لم تثر فيه .. وتطلب إعادته !؟ لعلها لم تعرف .. لماذا إذن حضرت .. ألمجرد الاعتذار عن تأخيرها عن موعدها !؟ ربما .. ولكن ما هذا السر الذى تريد أن تحدثه فيه قبل وصول « هناء » .. لعلها فى أزمة وتريد نقودا .. جائز جدا .. وأراحه هذا الخاطر .. وهو يخلع المعطف . وهمّ بدق الجرس لمناداة الخادم حتى يأخذ المعطف ويخلصه منه ويريحه من وساوسه وشكوكه .

ولكنها عادت تجره إلى الأريكة قائلة :

ـــ ضعه هنا .. حتى أتم حديثى .. اجلس .

ووجد « رياض » نفسه والمعطف بينهما على الأريكة كأنه فأر فى مصيدة .. أو سجين فى قفص ، ومعه جسد الجريمة .

ومع ذلك لم يملك إلا أن يلم أعصابه .. ويرسم على وجهه أوسع ابتسامة قائلا :

ـــ خير .. ما الحكاية ؟

وأحست « هدى » بأنفاسها تتلاحق ، وهى تجد المعطف بجوارها والشريط فى متناول يدها ، وعادت تقول بقدر ما استطاعت من هدوء :

ـــ آسفة أولا على تأخرى .. إنى أعتذر للمرة الثانية .

ـــ أبدا .. أبدا .. ليس بيننا عتاب . أنا الآسف لأنى لم أستطع الانتظار أكثر من هذا لارتباطى ببعض المواعيد .

ـــ لعل الانتظار لم يضايقك ؟!

ـــ لم يضايقنى أبدا .. إلا أننى كنت أحب أن أقضى وقته معك .

ـــ لعلك وجدت ما تتسلى به ؟

وأحس الرجل بأن شيئا ما يكمن وراء السؤال ، أو ربما كان واهما . على أية حال . خير له أن يستمر فى الحديث ببراءة وبساطة .. فأجاب قائلا :

ــ استمعت إلى الراديو .. كان به بعض الأحاديث السخيفة .

ــ والريكوردر ؟

وأحس « رياض » كأن يدا قد امتدت لتقبض على عنقه ولم يملك إلا أن يرد فى استنكار وكأنه يحاول دفع تهمة ألصقت به :

ــ ماله الريكوردر ؟

وردت « هدى » ببراءة قائلة :

ــ به بعض الأغنيات التى تعجبك .. ألم تسمعها ؟

وازدرد « رياض » ريقه وهو يقول :

ــ أجل .. أجل .. سمعت أحد الأشرطة .

ــ وأعجبك ؟

ــ طبعا أعجبنى .

ــ إلى الحد الذى أخذته لتسجله لديك ؟

ــ أسجله لدىّ ؟!!

ــ أجل .. كنت أفضل لو استأذنتنى فى أخذه ، بدلا من الهروب به .

وأحس « رياض » بأنه قد وقع فى القفص ولم يجد أمامه إلا الطريقة البدائية لدفاع المذنب عن نفسه ، طريقة الغضب للكرامة ، فصاح بهدى فى عنف :

ــ ما هذا الذى تقولين يا « هدى » .. أنا آخذ منك شريطا لأهرب به .. ما هذا الكلام الفارغ !؟ هذه إهانة لا تحتمل .

وكانت « هدى » ترمق جيب المعطف بين آونة وأخرى فى نظرات خاطفة ، كأنها تحاول التأكد من أن الشريط ما زال موجودا ، أو كأنها ترسم ليدها الطريق إليه عندما تحين اللحظة الملائمة .

ولم تجد « هدى » لحظة أكثر ملاءمة من هذه .

وبسرعة البرق مدت يدها ودفعتها فى جيب المعطف ، وأخرجتها بالشريط ، وضمته إلى صدرها فى لهفة وعنف كأنما تخشى أن ينتزع منها ، وهتفت به وهى

تلهث من فرط الانفعال :

ـــ كنت أظنك أكرم من هذا .. كنت أحسن الظن بك .

وأحس « رياض » بأنه قد فقد وعيه .

كانت تعرف إذن أنه قد فعل كل ما فعل .

كانت تعرف حتى مكان الشريط ، وظلت تحاوره حتى تنتزعه منه بمثل هذه البساطة .

لقد جعلت منه سخرية لكى تنقذ هذا المغرور التافه الذى يعشقها .

وانفجرت مراجله ، وفاض به الحقد والغضب ، وأحس بأنه يود أن يحطمها ، ويحطم نفسه ، ويحطم كل شىء .

ومد يده فى عنف ليسترجع الشريط .. قائلا وهو يصر على أسنانه :

ـــ مجرمة .. لن أدعك تأخذينه .

ـــ لقد أخذته وانتهى الأمر .

وهب واقفا ، واستدار مواجها « هدى » ، وفى عينيه بريق الشرر ، وفى عنف انحنى عليها قائلا :

ـــ لا بد أن آخذه منك .

ووثبت « هدى » من فوق الأريكة .. وقد تنمرت كأنها القطة يحاولون نزع وليدها من بين أحضانها ، واندفعت فى عجلة إلى الباب الزجاجى .

وبينا هى فى اندفاعها ارتطمت بعمود خشبى وضعت عليه إحدى الزهريات الصينى الكبيرة فهوى على الباب الزجاجى فحطمه .

وأسرع « رياض » خلف « هدى » ليمسك بها ويأخذ منها الشريط ، ولم تجد « هدى » طريقا للهرب أقرب من الباب الزجاجى المحطم فاندفعت منه ، وأخذت تعدو إلى الخارج بلا وعى حتى وصلت إلى العربة ، فانطلقت بها وهى تطبق على الشريط بشدة وقد تلاحقت أنفاسها كأنها ما زالت تعدو .. وضجيج العاصفة ما زال يلاحقها .

ولم تعرف كيف قطعت الطريق ولا كيف وضعت العربة فى الجراج ، ولا كيف صعدت السلم .

لم تشعر إلا وهى تدق الجرس .. و« أم حبيب » تفتح لها لترتمى على أقرب مقعد ، وتندفع فى البكاء .

وأقبلت عليها « أم حبيب » ، وقد بدا عليها الفزع وهى تمسك بذراعها صائحة :

ـــ ما هذا ؟

ونظرت « هدى » فإذا بالدماء تلوث ثيابها ، وجرح ينزف فى يمناها .

وهزت « هدى » رأسها وأجابت وهى تتنهد فى ارتياح :

ـــ لقد استعدت الشريط .

وعادت « أم حبيب » تمسك ذراعها فى جزع صائحة :

ـــ إن ذراعك تنزف .. ماذا حدث ؟

وأجابت « هدى » فى هدوء :

ـــ لا بد أن يكون زجاج الباب المكسور قد أصابنى .. أحضرى ورقة القطن وزجاجة الميركركروم .

واندفعت العجوز باكية لتحضر القطن والزجاجة .. وعادت وقد تملكها الاضطراب وهى تهتف :

ـــ يا رب .. الطف .. لماذا لا أطلب الدكتور ؟

ـــ ليس هناك ما يوجب استدعاءه .. إنى لم أشعر بالجرح إلا بعد أن رأيته الآن .

ولم يكن الجرح هينا ، كما تصورته « هدى » ولكنها ضمدته فى شجاعة ، وهى تحس به كجرح المنتصر فى معركة .. وربطته بالشاش ، ثم جلست مسترخية على المقعد الكبير أمام النافذة الزجاجية والشريط فى يدها .

وأحست بالوحدة المضنية ، وقد ضمها المقعد الذى تعوّد أن يضمهما معا .

وهزت الريح فروع الشجرة القائمة أمام النافذة ، وبدت من خلال أوراقها أضواء الجبل ، متناثرة كأنها نجوم متساقطة من وراء السحب .

متى يعود الغائب ؟ متى ؟!!

ما بال الأيام تتثاقل فى مشيتها .. كأنها السنون الطوال ؟!

بضعة أيام من غيبته ، تترك فى نفسها هذه الوحشة .. ما بالها إذن .. لو غاب بلا عودة !! لو أضحت هذه المرئيات التى تربطهما معا .. مجرد ذكريات .. حزينة شاحبة .. تبعث فى نفسها الشجن والأسى ، وتهمس بها .. أن هنا .. فى هذا المقعد أو فوق هذه الأريكة ، أو وراء هذه النافذة ، كان يجلس الغائب الذى لن يعود !

ولكنه سيعود !

ليستقر بين يديها ثانية ؟!!

إنها ما أحست مرة واحدة بأنها أخذته للأبد ، وإنما تشعر أن امتلاكها له ، لوقت ما .

ولكن من الذى يستطيع غير هذا فى حياتنا هذه ؟!

من الذى يحس بملكية مؤبدة لإنسان ما !

ولكن الناس تخشى على ملكيتهم من الموت ، أما هى فتخشى من الموت .. ومن الناس .. ومن نفسها .. ومن كل شىء .

أى أسى أكثر من إحساسها .. بأن أحب الناس إليها .. لا يملك إلا أن يكون لها عابر سبيل .. مهددا بتركها فى كل لحظة .

أى أسى أكثر من إحساسها .. بأنها لا تملك بحبها إلا أن تكون سبة لمن تحب .. خطرا على مستقبله وآماله وأمانيه .

وكانت تسمع هذا من قبل ولا تفهمه .

كانت تسخر منه ، حتى ضرب لها القدر مثلا من أمثلته .

وتملكها الحنين .. فمدت يدها إلى جهاز التسجيل لتضع به الشريط .

وبدأ الجهاز يدور .

ووسط السكون سمعت صوته الحبيب .

وفجأة دق جرس التليفون .

واختلط الرنين بالمناجاة .

ولم تملك إلا أن توقف الجهاز ، وتمد يدها لترفع السماعة متسائلة فى ضيق :

ـــ آلو .

وسمعت صوتا نسائيا رقيقا يسألها :

ـــ منزل السيدة هدى نور الدين ؟! .

ـــ أجل ..

ـــ هل أستطيع أن أحدثها ؟

ـــ من يريدها ؟

ومضت فترة تردد قصيرة قبل أن تجيب المتحدثة :

ـــ أنا فايزة .

وأحست « هدى » برجفة .. وتملكها خوف شديد وتساءلت :

ـــ فايزة مَنْ ؟

ـــ فايزة .. سكرتيرة الأستاذ سامى .

وازدردت « هدى » ريقها .. وصمتت برهة ثم أجابت :

ـــ أجل .. أنا هدى .

ـــ مساء الخير يا أفندم .

ـــ مساء النور .. أى خدمة ؟

وفى شيء من الحيرة والتردد ردت فايزة :

ـــ كنت أريد أن أحدثك فى موضوع خاص .

ـــ تفضلى .

ـــ كنت أفضل أن ألقاك .

ومرة أخرى عاودها الجزع ولم تملك إلا أن تتساءل :

ــ بخصوص ماذا ؟

ــ بخصوص الأستاذ سامى .

وفى صوت مرتجف تساءلت « هدى » فى فزع :

ــ هل حدث له شيء ؟

ــ لا .. لا .

ــ هل هو بخير ؟

ــ أجل .

ــ تفضلى فى أى وقت تشائين .

ــ أفضل لقاء عاجلا .

ــ تفضلى الآن إذا أردت .

ــ سأكون عندك بعد نصف ساعة .. مع السلامة .

ــ مع السلامة .

ووضعت هدى السماعة .. ثم ألقت رأسها على مسند المقعد .. وأطلقت زفرة حارة .

ترى ماذا تريد هى الأخرى ؟

لعلها تريد أن تكمل الإجهاز عليها .. فى هذه الليلة الحافلة .

٤١

محاولة إنقاذ

وضعت « فايزة » السماعة .. وهى تلهث .

لم يكن الحديث إلى « هدى » بالمسألة اليسيرة .. ولكن كان عليها أن تفعل .

لم تكن تستطيع أن تقف مكتوفة اليدين .. وهى تشاهد صرحها القائم .. يوشك أن ينقض .. ومعاول الهدم تكيل له الضربات .

كانت تحس أنها لا بد أن تفعل شيئا بعد كل ما حدث .. بدل أن تجلس هكذا ترقب تطور الحوادث فى صمت حزين واستسلام يائس .

وأخذت تستعيد لنفسها ما وقع الليلة فى مقر الحزب مما دفع أمامها بشبح الخطر وملأها قلقا وجزعا .

تذكرت كيف بدأ الأمر ببضعة شبان أمام جهاز الراديو ، وقد أخذ المذيع يذيع قرارات لجنة التضامن ويعلق على الانتصار الذى استطاع « سامى » أن يحققه لسورية بعد أن أدانت اللجنة تركيا وكشفت تهديدها العدوانى للعالم .. وكيف وضح الموقف فى سورية على حقيقته .. وكسب تأييد الشعوب الآسيوية الإفريقية لقضيتها .. ثم بدأ بعد ذلك فى إذاعة تسجيل لخطبة « سامى » فى اللجنة .

ومد أحد الشباب يده فأدار مؤشر الراديو على محطة أخرى .. فإذا بصوت « هدى » يعلو فيها مترنما بإحدى أغنياتها .. فصاح به أحد الشبان ثائرا :

ــ أوقف هذه المياعة ودعنا نسمع الخطبة .

وكان أحد الشبان قد استقر مسترخيا على مقعد كبير فى ركن القاعة ، وهو يرقب الجماعة الملتفة حول الراديو .. فانطلقت منه ضحكة ساخرة وقال ، وهو

يهز رأسه :

ــ يا سيدى .. هذه النعل من ذاك الوطا .

والتفت إليه الشاب المتحمس وصاح به متسائلا فى غيظ ودهشة :

ــ ماذا تقصد ؟

ــ لا تغضب هكذا .. فصاحب الخطبة نفسه قد يفضل عليها أغنية الست « هدى » .

وهتف به الشاب فى ضيق :

ــ صاحب الخطبة أرفع من أن يستمع إلى هذه المياعة .

وانطلق الآخر يقهقه قائلا :

ــ الظاهر أنه ليست لديك أية فكرة .

ــ فكرة عن ماذا ؟

ــ عن ليالى الأنس والطرب .

واندفع إليه الشاب فى ضيق وأمسك به من خناقه وصاح به متحديا :

ــ كف عن هذا الغمز الوقح .. وقل ماذا تقصد ؟

ــ لا داعى للفضائح .

وعاد الشاب يهزه فى غضب صائحا :

ــ أية فضائح يا حيوان ؟!

وأجاب الآخر فى سخرية ، وهو يحاول التخلص من قبضة الشاب :

ــ فضائح الليالى الحمر التى يقضيها « سامى بك » بين أحضان « هدى » .

ولم يتمالك الشاب المتحمس نفسه فهوى بقبضته على وجهه بضربة أسالت الدم من أنفه وجعلته يثب عليه صارخا مستغيثا .

وتشابك الشابان .. وحدث هرج ومرج .. وتعالت الصيحات من هنا وهناك ما بين مؤيد ومعارض .

صاح أحد الثلة :

— يستحق أكثر من هذا .. حتى يكف عن طول اللسان .

وصاح آخر :

— مفتر يستحق التأديب .

وانبرى ثالث يدافع عنه :

— حرام والله .. لم يقل إلا ما تردده الإشاعات .. وكلنا يعرف هذا .

وصاح رابع :

— إشاعات الشيوعيين ؟! لقد قلت مائة مرة إنه دسيسة علينا .. وإنه شيوعى فلم تصدقونى .

وصاح خامس :

— يا جماعة .. كل شيء لا يعجبكم .. تلصقونه بالشيوعيين .. مال الشيوعيين بهذا .. حتى خطايانا ننسبها إليهم !!

وهتف به الأول صائحا :

— أى خطايا يا غبى .. أنت أيضا تصدق الإشاعات .. إنهم يحاولون هدمنا .

— نحن لا يهدمنا إلا أنفسنا .

وتعالت الصيحات ، وزادت حدة المناقشات ، وهم يحاولون فض المعركة .. عندما بدا عبد الوهاب بك رئيس الحزب مقبلا من الباب الخارجى ، فتساءل فى دهشة :

— ما هذا ؟

وهدأ الشبان .. ووقفوا مطرقى الرءوس .

وعاد عبد الوهاب بك يتساءل :

— ماذا حدث بينكم ؟

وأجاب الشاب الذى اعتدى عليه ، وهو يحاول إيقاف الدم بمنديله :

— لقد اعتدوا علىّ بالضرب .

وصاح الشاب المعتدى فى حدة ، وهو يلهث :
ــ لأنك تستحق الضرب .. وإذا عدت إليها .. سأضربك ثانية .
والتفت إليه عبد الوهاب متسائلا فى دهشة :
ــ ماذا فعل ؟
ــ قال إن « سامى » يقضى الليالى فى أحضان المطربة « هدى » .
وبدا الوجوم المفاجئ على وجه عبد الوهاب وتمتم قائلا :
ــ هو قال هذا ؟
ــ أجل قاله بأعلى صوته .. والجميع شهود .
وصمت عبد الوهاب برهة ، ثم أطلق تنهيدة ضيق وقال :
ــ أهكذا يكون حديث الشبان .. والوطن على أهبة المعركة .. كنت أتصوّر أن تقضوا الوقت لمناقشة قضايا أهم من هذه السفاسف .. والأراحيف .
وصاح الشاب المعتدى :
ــ هو الذى بدأ .. لقد قال ...
وقاطعه عبد الوهاب فى هدوء :
ــ انتهينا .. لا أريد أن نخوض مرة أخرى فى هذه الأحاديث .. إن لدينا الكثير مما نعمله .. فكفوا عن هذا العبث الصبيانى وكونوا رجالا .
وتركهم عبد الوهاب وقد بدا الضيق على وجهه .. واختفى فى حجرته مع بعض أعضاء الحزب .
وكانت « فايزة » ترقب المعركة طوال الوقت مشدوهة حيرى .. وقد أحست كأن شيئا يطبق على صدرها ويمسك بخناقها هى .. وتمنت لو استطاعت أن تصيح بهم جميعا أن كفوا عن الخوض فى سيرة الرجل الغائب .. وعن قذفه برشاش هذه التعليقات الطائشة السخيفة .
ولم يكد عبد الوهاب يغيب فى حجرته .. حتى عادت الهمهمة مرة أخرى .. همهمة غير واضحة ولا مفهومة .. وهمّ البعض بمغادرة القاعة .. ومن

بينهم الشاب المضروب وقد وضع المنديل على أنفه .. عندما وصل فؤاد عبد الجبار النائب ذو الميول التيوعية ، أبصر الثلة الخارجة وبدا أنه قد ميز من بينهم الشاب المعتدى عليه فصاح به متسائلا فى دهشة :

ـــ ما بالك ؟

ـــ لا شيء .. سأعرف كيف أريهم .

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ ضربونى .. لأن أحدهم أراد أن يسمع خطبة سامى كرم .. والتانى أراد أن يسمع أغنية هدى نور الدين .. فقلت لهم .. هذه النعل من ذاك الوطا .

ونظر إليهم « فؤاد » فى سخرية ثم تساءل :

ـــ ضربوك من أجل هذا ؟!!

ـــ أجل .

ـــ اصبر عليهم .. غدا سنسمعهم .. الصوتين معا .. فى منولوج رائع .. سنكشف لهم بطلهم الصنديد .. فى أسطوانات مجانية .

وعاد يقلب بصره بين الشبان حتى استقر على وجه « فايزة » فانطلق يقهقه :

ـــ اصبر .. اصبر .. غدا .. سيقع العجل .

ثم اتخذ طريقه إلى غرفة عبد الوهاب واختفى داخلها .

وعادت الهمهمة تعلو .. وتابعت فؤاد نظرات الاستنكار وإشارات السخط .

وما لبث الجمع أن تفرّق .. وساد القاعة الصمت .

وارتمت « فايزة » على أحد المقاعد خائرة القوى .. محطمة الأعصاب .. وجلست برهة مأخوذة حيرى .. عاجزة عن التفكير أو التصرف .

كانت تحس كأنما قد دهمتها عاصفة توشك أن تودى بأعز ما تملك .. وكان عليها أن تفعل شيئا .. كان عليها أن تكف عن تلك الوقفة العاجزة المستسلمة .. وأن تمد يدها لأقرب طوق نجاة .

وفجأة نهضت من مقعدها .. وقد نوت أمرا .

كان طوق النجاة الذى فكرت فيه .. هى « هدى » نفسها .

وكان عجيبا أن تحاول أن تجعل من معول الهدم أداة إنقاذ .

ولكن لِمَ لا !؟ إذا كانت حقا تحبه .. فيجب أن تضحى بكل شىء من أجله .. بنفسها وبحبها .

لو كانت هى مكانها لفعلت .

ولكن هل هى حقا تحبه ؟

وأحست « فايزة » بضيق وهى تحاول أن تسلم بحبها له .. وأن تبنى خطتها على أساس حب « هدى » لسامى .. وعلى أساس افتراض سموها إلى درجة التضحية بكل شىء من أجله ..

ومع ذلك فلم تملك إلا التسليم بذلك .. فقد كان الطريق الوحيد الذى يمنحها أملا لإنقاذ « سامى » .

ليس هناك وسيلة لصد كل تلك الضربات التى يمكن أن توجه إليه .. إلا أن يتخلص منها فعلا .. وليس هناك سبيل لخلاصه .. إلا أن تبعده « هدى » عن نفسها .. لأنه هو نفسه لن يفعل ذلك .. ليس لأنه مسلوب الإرادة .. ولا لأنه غارق فى الحب .. بل لأنه لا يمكن أن يقدم على التخلى عن إنسان .. أو خذلانه .. أى إنسان .. فما بالك بإنسان يحبه كل هذا الحب !!

ولكى تبعده « هدى » عن نفسها ، وتقطع كل ما بينها وبينه .. يجب أن تقبل التضحية .

ولن تقبل التضحية إلا إذا كان حبها كبيرا رائعا ساميا .

وعلى « فايزة » إذن .. أن تسلم بهذا كأساس للعمل الذى تنوى أن تقدم عليه من أجل إنقاذ « سامى » .

ولكنها مع كل هذه الافتراضات .. لم تقبل أبدا أن تسلم به .

لقد عزمت على أن تذهب إليها .. لترجوها أن تترك « سامى » وتتخلى عن

حبه .. دون أن تفترض فيها شيئا يدعو إلى التقدير أو الاحترام .. لا إنكار ذات ولا سموا .

ولم تعرف كيف يمكن أن تلقاها .. ولا ماذا يمكن أن تقول لها .

لم تدر شيئا إلا أنها لم تكد تعود إلى الجريدة وتستقر على مكتبها حتى وجدت نفسها ترفع السماعة .. وتطلب رقم تليفون « هدى » .

وعندما انتهى الحديث .. أحست بأنها اندفعت لتلقى بنفسها فى اليم .. وكان عليها بعد ذلك أن تفكر كيف تتعلم السباحة .

ومرت بها فترة وهى تستعيد فى ذهنها كل ما حدث .. وأحست أنها تود لو استطاعت الفرار من المهمة التى اندفعت إليها .

لم تكن تعرف ماذا يمكن أن يكون وقع حديثها على « هدى » .. كيف تقبله وكيف تفهمه !؟

بل كيف يكون وقعه فى نفس « سامى » لو عرف بما فعلت .

وأحست أن الوقت يمر .. والموعد يوشك أن يحل .. وأنها يجب ألا تترك نفسها نهبا لتلك الأفكار والمخاوف التى تشل حركتها .. وتعيدها إلى حالة العجز والاستسلام .

إنها قبل كل شيء .. تقدم على ما تقدم عليه .. من أجل « سامى » .

من أجله عزمت أن تنفض عن نفسها غبار الاستسلام .

من أجله فقط ؟!

أجل .. لو لم تشعر بالخطر يوشك أن يدهمه لما استطاعت أن تقدم على تلك الخطوة التى توشك أن تخطوها .

وهل ستصدق هى هذا ؟

بل .. هل يمكن أن يصدق هو نفسه حقيقة إحساسها ؟

يصدق أو لا يصدق .. لا بد أن تفعل شيئا .. لا يمكن أن تتركه ينهار .. وتقف مكتوفة اليدين .. خوفا من ألا يصدق .

ونهضت من مقعدها ، واتجهت إلى المكتب الداخلى ، وفتحت الباب ثم وقفت أمام سليم وقد تلاحقت أنفاسها قائلة :

ـــ هل أستطيع أن أستأذن ؟

ـــ إلى أين ؟

ومضت برهة وهى مترددة لا تعرف كيف تجيب .. وأحس « سليم » أن شيئا قد حدث .. فعاد يسائلها :

ـــ ماذا بك يا فايزة ؟! هل أنت متعبة ؟

ـــ لا .

ـــ إذن ما لك مضطربة هكذا .. هل بك شيء ؟

ـــ أبدا .

ـــ اجلسى .. دعينا نتحدث على مهل .

ـــ ليس هناك وقت .

ـــ وقت !! ما الذى يشغلك ؟

ـــ عندى موعد .

ـــ مع من ؟

ـــ هدى .

ـــ هدى ؟!

ونطق « سليم » الاسم فى دهشة شديدة .. وعاد يسأل كأنه لا يصدق :

ـــ هدى !! هدى !!

ـــ أجل هدى .

ـــ هدى نور الدين ؟

ـــ أجل .

ـــ وماذا يدعوك إلى لقائها ؟!

ـــ ما حدث الليلة فى الحزب .

ــ ماذا حدث ؟

ــ معركة بين الشباب من أجل علاقة سامى بها .

وهتف « سليم » مأخوذا :

ــ غير معقول .

ــ هذا ما حدث .

ــ ولماذا يتعاركون ؟

ــ واحد أطلق التهمة .. والثانى لم يطق حديثه فأقدم على ضربه .

ــ وماذا بعد ؟

ــ نشبت المعركة ، واستمرت حتى فضها عبد الوهاب بك .

وصاح « سليم » غير مصدق :

ــ عبد الوهاب بك نفسه ؟!

ــ أجل .

ــ وعرف سبب المعركة ؟

ــ طبعا .

ــ وماذا قال ؟

ــ بدا عليه الوجوم برهة .. ولكنه عرف كيف يتمالك نفسه ، ولام الشباب على عبثهم الصبيانى .

ــ ما شاء الله .

وضرب سليم كفا بكف وعاد يتساءل فى سخرية مريرة :

ــ وماذا حدث أيضا ؟

ــ دخل فؤاد .

ــ فؤاد من ؟

ــ فؤاد عبد الجبار .

ــ وما الذى أدخله وقتذاك ؟

— لا أعرف .. يبدو أنه كان يريد شيئا من عبد الوهاب بك نفسه .
— وماذا فعل ؟
— رأى الفتى المصاب وعرف منه ما حدث .
— وماذا قال ؟
— قال كلاما عجيبا لم أفهم ما يقصده .. سوى أن غدا سيقع العجل .
— يقصد سامى ؟
— طبعا .

وتنهد « سليم » وهز رأسه وقال فى لهجة تشوبها السخرية :

— ومن أجل ذلك قررت أن تنقذى العجل قبل أن يقع ؟

ولم تجب « فايزة » بل زمت شفتيها فى شىء من الغضب وعاد سليم يقول بنفس اللهجة الساخرة :

— وستذهبين إلى « هدى » لمساعدتك فى إنقاذ العجل .. ستذهبين إلى ..

ولم تطق « فايزة » استمراره فى هذه اللهجة ، فقاطعته فى حدة قائلة :

— أستاذ سليم .. أرجوك .. كف عن هذه اللهجة .. ليس هذا وقت السخرية .. إنى أكره أن يتكلم إنسان بهذه اللهجة عن الأستاذ سامى حتى أنت .

وصمت « سليم » برهة ثم رفع بصره إليها ، وقال فى لهجة جادة :

— لا تغضبى يا فايزة .. إنى حقيقة حائر .. لا أعرف ماذا أقول .. لا تظنى أنى أقل منك ضيقا أو حزنا . لم أتصور قط أن الموقف يمكن أن يتطور إلى هذا الوضع .. ولست أدرى كيف يمكن علاجه .

— ألم تطلب إلىّ من قبل أن أكف عن العجز والسلبية !!
— أجل قلت لك هذا ؟
— إذن فسأقوم بمحاولة .
— مع هدى ؟

ــ ولِمَ لا ؟
ــ لا فائدة .
ــ لم ؟
ــ لقد حاولت من قبلك .
ــ أنت ؟!
ــ أجل .
ــ متى ؟
ــ عند عودتنا من بيروت .
ــ ماذا قلت لها ؟
ــ قلت كل ما يمكن أن يقال .
ــ وماذا قالت لك ؟

وهز « سليم » رأسه ، ثم ضحك فى شىء من السخرية :

ــ كادت تقنعنى بأنها على حق .. وأشعرتنى أن المشكلة أعوص مماأتصور .
ــ كيف ؟
ــ لأنها تحبه حقيقة .

وأحست « فايزة » بشىء يعتصر باطنها .. ومضت برهة قبل أن تتمالك وترد متسائلة :

ــ والنتيجة ؟!
ــ يعلمها الله .
ــ ألم تحدثه هو ؟
ــ كثيرا .. ولا فائدة ترجى .. يبدو أننا لا نملك إلا أن نترك المسألة تسير حتى نهايتها .. أو كما يقولون .. دع الأمور تجرى فى أعنتها .. حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وهزت « فايزة » رأسها فى يأس وأسى :

ــ تقصد حتى يقضى عليه .. ويذوى هذا الأمل المزدهر .. وتخبو هذه

الشعلة المضيئة .. ألم تقل أنت نفسك إنك تعتبره مشروعا ناجحا ؟

ــ أجل .

ــ وتسلم بعد هذا بأن يقضى ؟!

وضحك « سليم » ضحكة قصيرة ساخرة وأجاب :

ــ تحدثيننى بما كنت أقول لك .. وتلومينني على ما كنت ألومك عليه ؟.. على أية حال .. لماذا لا تجرّبين حظك ؟ اذهبى إلى « هدى » وقابليها .. وقولى لها كل ما تريدين . لعلك تكونين أقدر منى .. إنك امرأة على كل حال .. وقد تكونين أكثر فهما لها .. وقدرة على إقناعها .. قد تنجحين فيما فشلت فيه .. من يدرى .

وصمت « سليم » برهة ثم أردف قائلا ، وهو يهز رأسه :

ــ ومع ذلك .. أنا واثق أن هذه الأمور لا يمكن أن تحل بهذه الطريقة .. إننا لا يمكن أن نضع لها خاتمة بنصائحنا .. إن أصحابها وحدهم .. هم الذين يحلونها .. عندما يكرههم القدر على ذلك .. أو عندما يحسون أنهم لا يملكون غير إنهائها .. أما قبل ذلك .. فلا يمكن لغريب أن يستطيع وقفها .

وأحست « فايزة » باليأس يملأ قلبها .. ومدت يدها فاستندت إلى المكتب كأنما توشك أن تنهار .

ونظر إليها « سليم » وأحس بالضيق لما قال .. ونهض من مقعده واقترب منها وأمسك ذراعها برفق ، ثم قال فى لهجة رقيقة :

ــ اذهبى وقابليها .. جرّبى كل ما تستطيعين .. إن لديك من الإيمان ما قد يحقق ما فشلت أنا فيه .

لقد قلت لك دائما إنك طرف فى الموضوع .. وخصم فى المعركة . وإن لديك من المشاعر ما لا أملك أنا من أسلحة المعركة .. ولقد كنت دائما أدفعك إلى خوض المعركة .. فلماذا أحاول أن أثنيك عنها .. بعد أن فشلت فيها .. اذهبى .. وانسى كل ما قلت .. إذا كانت هى تحبه .. فأنت أيضا تحبينه .

وهزت « فايزة » رأسها فى ضيق ويأس وأجابت :

ــ أنا لا أذهب لأخوض معركة من أجل نفسى .

ــ خوضيها من أجله هو .. ولكن بأسلحتك أنت .. بمشاعرك المرهفة له .. وإيمانك الشديد به .. وحرصك العجيب عليه .. اذهبى يا « فايزة » .. مع السلامة .

٤٢

وجه الوجه

غادرت « فايزة » المكتب فى صمت .. وانطلقت فى الطريق شاردة الذهن .. وهمت بضع مرات أن تعود أدراجها .

ماذا يدفعها إلى الذهاب إليها فى بيتها ؟!

أى حق لها عليها فى مجرد الإشارة إلى علاقتها بسامى !!

ماذا تقول لها إذا أنكرت كل علاقة لها به .. وطردتها شر طردة ؟!

وظلت الأفكار تتصارع فى ذهنها .. حتى وجدت نفسها تقف على الباب لتدق الجرس .

وفتح الباب وأطلت « أم حبيب » برأسها متسائلة :

ـــ مَن ؟

ـــ السيدة هدى موجودة ؟

ـــ نقول لها مَنْ ؟

ـــ فايزة .

ودون أن تذهب العجوز لإبلاغ « هدى » فتحت الباب قائلة :

ـــ تفضلى .. إن السيدة فى انتظارك .

ودخلت « فايزة » كالمأخوذة .. لم تستطع أن تميز شيئا مما حولها .. كانت تتبع العجوز وقد تلاحقت أنفاسها ، حتى استقرت على أحد مقاعد البهو . وعابت عنها « أم حبيب » . فأخذت تلم ذهنها الشارد ، وأفكارها المتصارعة ، وبدأت ترقب ما حولها .. ولم تملك إلا أن تعترف بأن صاحبة البيت مخلوقة ذات ذوق .. كان كل ما حولها ينم عن الرقة والعناية والنظافة .. كان شيئا بعيدا كل

البعد عما تصورته .. كانت تتمثل البيت على شيء من الإهمال .. وكانت تتوقع أثاثا فاخرا بلا ذوق .. أثاثا ... صرف عليه مال دون أن يختاره ذوق سليم أو تنسقه يد ماهرة ، ولكنها وجدت نقيض ما تصوّرته .. كان الذوق أغلب من الغنى ، والرقة أغلب من الفخامة .

ولم يطل انتظارها حتى أقبلت عليها « هدى » وقد علت شفتيها ابتسامة شاحبة ، ووضعت ذراعها المضمدة معلقة بكفها فى داخل صديرى الصوف البنفسجى .. ومدت يدها الأخرى لتصافح « فايزة » وهى تقول مرحبة :

ـــ أهلا .. وسهلا .. مساء الخير .

ـــ مساء النور .

وجلست « هدى » على المقعد المقابل .. ومضت برهة قبل أن يبدأ الحديث .. كانت كل منهما تحاول أن تلتقط من الأخرى نظرات خاطفة فاحصة .

وكما أخذت « فايزة » بالبيت .. لم تملك إلا أن تؤخذ بصاحبته .. لقد وجدت نفسها أمام إنسانة رقيقة .. لا يمكن للإنسان إلا أن يؤخذ بجمالها الطيب الهادئ .. كان وجهها خلوا من كل زينة .. جميلا .. فيه شيء من الشحوب .. وكان شعرها ممشطا ببساطة .. وأحست « فايزة » بالرهبة التى ملأتها .. تزول شيئا فشيئا ، وحل محلها إحساس بالخوف المشوب بالغيرة .. وهى ترى المخلوقة التى أمامها .. إنسانا يمكن أن يحب فعلا .

واستطاعت « هدى » أن تلتقط « لفايزة » بعض نظرات كوّنت لها فى نفسها صورة مريحة .. أزالت من نفسها الكثير من القلق الذى انتابها وهى جالسة تنتظر وصولها .

لم تجد فيها شيئا يبعث على القلق أو الخوف .. بل وجدت فيها فتاة رقيقة حلوة .. لا يمكن أن تضمر شرا .. أو تسبب أذى .. وكان يمكن أن تدفع فى نفسها شيئا من الغيرة .. لولا ثقتها المفرطة فى حقيقة مشاعر « سامى » .. وفى

يقينها من حبه لها .

وعادت « هدى » تحيى « فايزة » وكأنها تستحثها على الحديث :

ـــ أهلا وسهلا .

ـــ أهلا بك .

وصمتت « فايزة » برهة تحاول أن تتمالك نفسها وترتب أفكارها .. وما لبثت أن ازدردت ريقها قائلة :

ـــ لقد أتيت لأحدثك بخصوص الأستاذ سامى .

ـــ خير .

وتذكرت « فايزة » قول سليم « أنت طرف فى المسألة .. أنت خصم فى المعركة » وكأنما خشيت أن تحس « هدى » بنفس ما أحس به « سليم » .. ودفعها إحساسها إلى أن تبدأ الحديث بنفى تلك الشكوك ، فقالت وقد أطرقت برأسها :

ـــ لست أدرى كيف أبدأ الحديث .. ولكنى أحب أن أؤكد لك أولا أنى لم أحضر إلا لأحدثك من أجل سامى وحده .

وأحست « هدى » أنها قد نطقت باسم « سامى » مجردا ، وأصابها نوع من الضيق والقلق وهى تجد « فايزة » قد وضعت « سامى » فى وضع لا يمكن أن تضعه سكرتيرة لرئيسها ، ولكنها لم تملك إلا الصبر والاستماع .

واسترسلت « فايزة » تقول :

ـــ ولكى أكون صريحة واضحة مع نفسى أولا ومعك ثانيا .. أحب أن أقول لك .. إنى أحب سامى .

وأحست « هدى » أن شيئا قد لسعها ، ولكنها حاولت جهدها أن تكتم انفعالاتها .. واستمرت تنظر إلى « فايزة » صامتة دون أن تقاطعها أو تعلق على حديثها .

واستمرت « فايزة » تقول وهى تطلق تنهيدة حارة :

— أقول لك إنى أحبه .. كشىء مقدس .. وأومن به إيمانا لا يتطاول إليه شك .. أومن بكل ما فيه من صفاء وخير وحب للبشر .. أومن بقدرته البناءة وطاقته التى لا تنفد .. أومن بأشياء كثيرة طيبة أعرفها فيه .. وأثق فى كل ما يمكن أن يأتى به من عمل طيب نافع .

وصمتت « فايزة » لتقول وكأنما تحدث نفسها :

— أقر لك أنى أحبه حبا لا يتزعزع .. حبا لم أشعر مرة واحدة خلال عملى معه أنه غير أهل له .. وأنا أقر لك بذلك الحب حتى أكون واضحة ومفهومة .. وحتى لا تظنى إن أنا أنكرته أنى أخدعك وأحاول التلاعب بك .. ولكنى بعد كل ما قلت أحب أن أؤكد لك أن شيئا ما لم يحدث بيننا ، بحيث يمنحنى حق الغيرة عليه .. أو التدخل فى شئونه .. كل ما بيننا لم يزد قط على علاقة عمل .. أو إعجاب بعمل .. وأنا أعرف كيف ألزم حدى جيدا .. أعرف قدر نفسى فلا أمنحها أكثر مما تستحق من آمال .. ولا أورطها فيما يمكن أن يخذلها ويدمر أمانيها .. ومن أجل ذلك .. ورغم ما أقررت لك به من شعور نحوه .. أوقفت نفسى من علاقتكما موقف المحايد .. لم أحاول قط أن أجعل نفسى طرفا فى قضية لم يشركنى فيها أحد .. بل يقحمنى فيها مجرد إحساس ذاتى .. لا يتعدى باطنى .

وعادت « فايزة » تلتقط أنفاسها وخشيت أن تكون قد أطالت أو تفلسفت بطريقة تجعلها غير مفهومة فتساءلت قائلة :

— أخشى أن أكون قد أطلت عليك ؟

وهزت « هدى » رأسها وردت بصوت خافت ولهجة مقتضبة :

— أبدا .. أكملى .

— ملخص القول أنى رغم ما أشعر به من حب .. لم أحاول أن أمنح نفسى حقا ليس لى .. لأنى أعرف أن الحب لم يتعد جانبى .. ولقد فعلت هذا منذ البداية ومازلت أصر على فعله حتى الآن .. حتى هذه الساعة التى أحدثك فيها .. ولقد أردت أن أؤكد لك هذا حتى أكون واضحة فى تصرفى ، كما كنت

واضحة فى مشاعرى .

وتنهدت « فايزة » ثم استطردت تقول :

— لم آت إليك إذن كفتاة محبة غيرى .. لم آت إليك كعاشقة تريد أن تستعيد حبيبها .

وهزت « هدى » رأسها وقالت فى لهجة تشوبها الدهشة والاستنكار :

— لا أظن هذا قد خطر ببالى قط .

— لم يخطر من قبل ، ولكنه قد يخطر بعد أن أقول لك ما أنوى قوله .. قد تسيئين بى الظن .. فالدوافع التى دفعتنى إلى مواجهتك والحديث إليك .. قد تجعلك تفهميننى على غير حقيقتى .

وردت « هدى » مقاطعة :

— أكملى .. أنا لا أسىء فهم الناس أبدا .

— لم آت إليك إذن كامرأة .. لا لتعفف منى .. بل لأن أحدا لم يمنحنى قط هذا الحق .. ولو منحت الإحساس به .. لما أظننى كنت أتأخر حتى هذه الساعة فى أن أخوض معك معركة .. لم آت إليك كمحبة لأنى أعرف أن ما أخذته لم أحصل أنا عليه قط .. ولو حصلت عليه لما منعنى شىء من محاولة استعادته منذ أن سلبته .

وعادت « فايزة » تتنهد وتلتقط أنفاسها ثم استرسلت قائلة :

— شخصى إذن .. ومشاعرى .. لم يكن لها دخل فى حضورى إليك .. بدليل أنى استمررت طوال هذه المدة ، أرقب فى صمت .. وكأن الأمر لا يعنينى .. وكان يمكن أن أظل صامتة .. لولا أن حدث ما جعلنى أحس أن سكوتى ، وعزلتى .. نوع من الإجرام .

ورفعت « هدى » حاجبيها فى دهشة وتساءلت :

— هكذا !!

— أجل .. الإجرام السلبى .. الذى يمكن أن نرتكبه عندما نرى اعتداء

يوشك أن يقع ولا نحاول دفعه .. أو عندما نحس أننا نملك إنقاذ حياة إنسان .. ولا نفعل .

ـــ إلى هذا الحد ؟

ـــ وأكثر .. إنى أحس أن صرحا كبيرا .. يوشك أن ينهار .. وبناء شامخا .. يوشك أن ينقض .

ـــ وماذا أيضا ؟!

ـــ لا تحاولى أن تسخرى منى .. لأنى أؤكد أنى لا أبالغ .. بل أقول لك ما أومن به .. أنت لا تعرفين قيمة « سامى » .. والأمل الذى يعلق عليه .. أنت تعرفينه كمحبة .

ـــ ألا يكفى هذا ؟

ـــ أبدا .. الجانب الذى ترينه منه .. يمكن أن يكون فى أى إنسان .. ولكن الجانب الذى لا تعرفينه .. والذى أعرفه أنا جيدا لا يتكرر كثيرا فى حياتنا هذه .

ـــ أنا أعرف « سامى » خيرا من أى إنسان على ظهر الأرض .

ـــ من أجل هذا أسألك أن تقيه من كل ما يخدشه .

ـــ وما الذى يخدشه ؟

وصمتت « فايزة » برهة ثم حملت أطراف شجاعتها وقالت كأنها تطلق طلقة :

ـــ أنت !!

ولم تجب « هدى » وساد الاثنتين صمت ثقيل .. كادت تسمع فيه أنفاسهما .. واستطاعت « فايزة » بعد جهد أن تقطعه قائلة :

ـــ لست أحاول أبدا أن أجرحك .. ولكن ما حدث اليوم .. دفعنى إلى أن أقدم على كل ما لا أطيق .

ـــ وماذا حدث ؟

ـــ معركة فى الحزب بين الشباب من أجل علاقتكما .

ــ معركة فى الحزب ؟!

ــ أجل .

ــ كيف ؟

وشرحت « فايزة » باختصار ما حدث فى قاعة الحزب .. وختمت شرحها بما قاله فؤاد .

وبدا الوجوم على وجه « هدى » .. وشرد ذهنها .. وأحست بأن عبئا ثقيلا قد ألقى على كاهلها .. وبأن صدرها يضيق وكأن الهواء قد زادت كثافته فأضحى من العسير تنفسه .

وأخيرا زفرت زفرة طويلة ، ثم قالت فى صوت خافت يملؤه اليأس :

ــ وبعد !! ما الذى أستطيع أن أفعله ؟

ــ تتركينه ؟

ونظرت إليها « هدى » نظرة شاردة .. وعادت تقول فى مرارة :

ــ لأكون غادة كاميليا أخرى !؟

وصمتت « هدى » برهة ثم عادت تتساءل ، وكأنها تحدّث نفسها :

ــ كيف أتركه !! أخبره أنى لم أعد أحبه ؟.. أهجره وأسافر ؟.. أوهمه بخيانتى ؟.. تظنين المسألة بمثل هذه السهولة التى تطلبينها !؟

وأطرقت مستغرقة فى التفكير .. وأحست « فايزة » باليأس الذى أطبق عليها ، والأسى الذى كسا ملامحها ولم تملك إلا أن تتمتم فى صوت خافت :

ــ أنا آسفة لما قد أكون سببته لك .

وهزت « هدى » رأسها وهى تحاول أن تتمالك :

ــ أبدا .. ليس هناك ما يدعوك للأسف .. لم تأتى بجديد ، إلا أنك تحبينه .. ولست ألومك على هذا .

ــ حبى لم يكن هو الدافع لتدخلى فى الأمر .. إنى لم أشعر أبدا أنى طرف فى القضية .

ـــ أعرف هذا .

ـــ إذن .. ابذلى كل ما تستطيعين حتى نقضى على تلك التهم التى يلصقونها به .

وعاد الصمت يسود بينهما مرة أخرى .. ولم تلبث « هدى » أن قطعته قائلة فى مرارة :

ـــ حسن .. لست أعرف بماذا أجيبك .. إن كل شيء مختلط فى ذهنى الآن .. لست أعرف ما أستطيع وما لا أستطيع .. ولكنى مع ذلك أومن بأننا لا نستطيع أن نعاند القدر .

وأحست « فايزة » بمدى ما يبدو على « هدى » من إجهاد ولم تعرف ماذا يمكن أن تقول ولا كيف تجيب .. وأحست بأنها تشارك « هدى » إحساسا بالضياع والعجز والاستسلام لقدر لا تملك إلا الرضوخ له .

ومدّت يدها تودع « هدى » وهى تتمتم فى حزن :

ـــ آسفة .

ثم عادت إلى البيت وكأنها عائدة من جنازة .

٤٣

ليتنى أستطيع

عادت « هدى » تسير مطرقة بعد أن ودعت « فايـزة » ، وأحست بالسكون يخيم من حولها ، وتملكها إحساس أليم بالخوف والوحشة .. وهى ترى النذر تتوالى عليها .. وريح الخطر تصفر من حولها .

وأحست بأنها توشك على الانهيار .. فاتجهت إلى « البار » فى ركن القاعة ومدت يدها فملأت كأسا وجرعتها مرة واحدة ، ثم ملأتها ثانية واتجهت بها إلى حجرة الجلوس واستقرت على المقعد الكبير المواجه للنافذة .. ووضعت الكأس على المنضدة الصغيرة بجوارها .. ثم ألقت رأسها على حافة المقعد وأغمضت عينيها وأطلقت زفرة حارة .

أحقا قد قربت النهاية ؟! أأضحى عليها أن تسلم فى أعز ما حصلت عليه من هذه الحياة ؟.. أأضحى عليها بعد كل هذا الحرمان الذى ذاقته والجهد الذى بذلته .. والاستتار الذى استترته .. لكى تحتفظ بحبها .. أن تتنازل عنه طائعة مختارة .. أن تجهز أكفانه .. وتحفر قبره .. ثم تقوده بيدها .. لتئده .. وهو أوفر ما يكون حياة .. وأجمل ما يكون رونقا وبهاء ؟!

أى شىء يدعوها .. إلى أن تقدم على مسرح الحياة .. كاميليا جديدة .. تضحى بحبها .. على مذبح الشهامة .. والمثل العليا ؟!

ثم .. ما رأيه هو ؟!

هل يقبل منها مثل هذه التضحية ؟.. إن المسألة لا تخصها وحدها .. أيحتمل هو التضحية إذا احتملتها هى ؟!

أم ترى التضحية ستكون على حساب آلامه وتعذيبه ؟!

وهبه لم يقبل التضحية ؟.. أيتحتم عليها أن تفرضها عليه ؟

كيف ؟.. تختفى من وجهه ؟.. تفرض عليه الفرقة ؟.. أم تنتزع حبها من قلبه ؟

وأحست بشىء يعتصر باطنها .

أيمكن أن يحدث هذا ؟

إنها قد تحتمل فراقه .. تحتمل كل شىء فى هذه الحياة .. إلا مجرد أن تتصور أنه لم يعد يحبها .

أجل .. إنها تستطيع أن تفعل من أجله كل شىء .. إلا أن تدفع فى نفسه بغضها أو احتقارها .. أو حتى مجرد التبرم بها أو الملل منها .

لا تطيق حتى مجرد التفكير فى ذلك .. لأنها قد باتت تحيا على حبه .. على همساته وضماته ولثماته .. ولهفته عليها .. وشوقه إليها .

لقد أضحى كل هذا جزءا من قوتها اليومى .. كالماء والهواء والطعام .. لا يمكن أن تمارس العيش بدونه .

لا تستطيع أن تتصور أبدا .. كيف يمكنها أن تقدم على استئصال حبها من نفسه .. وهو أعز غرس غرسته فى حياتها .. وأشد ما حرصت على رعايته وإنمائه وازدهاره .

لا .. لا .. لن تستطيع قوة على الأرض أن ترغمها على ذلك .

لن تسلم فى حبها أبدا !!

وأطبقت كفها على الكأس فى عنف حتى كادت تحطمها .. وهى تصر على أسنانها قائلة :

ـــ لا .. لا .

ثم أرخت يدها .. واندفعت فى نوبة بكاء .

وفجأة أحست بكف توضع على كتفها .. وأصابتها رجفة .. وتلفتت فى خوف فوجدتها « أم حبيب » .. فرفعت إليها جفنين قرحهما البكاء .

وتساءلت « أم حبيب » فى صوت حنون ، وهى تقبع على الأرض بجوار المقعد :

ـــ وبعد .. ما آخرة كل هذا ؟

وازدردت « هدى » ريقها وهتفت فى صوت متحشرج يخنقه البكاء :

ـــ دعينى يا أم حبيب .. أرجوك .

ـــ لماذا كل هذا العناد .. لماذا لا ترضخين للأمر الواقع ؟

ـــ أى واقع هذا الذى تتحدثين عنه .. لست أعترف إلا بواقع واحد .. وهو أنى أحبه وسأحتفظ به .

ـــ إلى متى ؟

ـــ إلى الأبد .

ـــ أبد ؟ أى أبد ؟.. أتظنين حقا أن هناك شيئا يدوم إلى الأبد ؟

وهزت « هدى » رأسها ، وهى تعض نواجذها وهتفت فى عناد :

ـــ لن أسلم فيه .

ـــ حتى يسلم هو .. فيك ؟

وأجابت « هدى » بصوت متنمر وصدرها يغلى بالانفعال :

ـــ هو لن يسلم أبدا .. إنه يحبنى كما أحبه .

ـــ إلى متى ؟

ـــ ماذا تعنين بقولك إلى متى ؟

ـــ كل شىء له حد .

ـــ حبنا بلا حد .

ـــ بلا حد .. حتى من شبابك ؟

ـــ ماذا تعنين ؟

ـــ بلا حد .. حتى من الشعيرات البيض .. والتجاعيد المتسللة .. بلا حد حتى من الصبا المتآكل .. والعمر المنصرم .. ماذا تظنيننا .. أيتها الآدمية .. ماذا

تطيق قوانا واحتمالنا .

ـــ لست أفهم .. عم تتحدثين .

ـــ أتحدث عن الحب الذى تقولين عنه بلا حد .. أتظنين مثل هذا الحب .. المتأجج .. الملتهب .. يمكن أن تحتمله مشاعرنا .. إلى الأبد !؟ أتظنين أن طاقة الإنسان تستطيع احتماله بلا توقف !؟ أتظنين حقا أنه يمكن لإنسان أن يحب كما تحبين مدى الحياة ؟.

ـــ لِمَ لا ؟!

ـــ هل سمعت عن هذا ؟

وردت هدى فى ضيق :

ـــ أرجوك يا أم حبيب .. ليس هذا وقت الجدل والمناقشة دعينى من فضلك .

ولكن « أم حبيب » استمرت تقول فى عناد :

ـــ إلا إذا كنت تريدين أن تجعلى منه رواية .. كقيس ، وروميو .. أحدهما جن .. والآخر مات .

ـــ أتظنين أنه يتحتم على الإنسان لكى يحتفظ بحبه .. أن يجن أو يموت ؟

ـــ أو ترتخى شدة حبه .. ويخبو تأججه .. وتعتاده المشاعر .. كما يعتاد الأصبع الخاتم .. ويصبح جزءًا من حياته العادية لا يكاد يحس به .. أو يفكر فيه .. ولا يعود رباطه الوثيق أكثر من رباط يشد دابتين تسيران فى طريق محتوم لا تكاد إحداهما تشعر أن الرباط موجود إلا إذا وقع تنافر فى الطريق أو اختلاف فى وجهة السير .. فإذا بالرباط الجميل يصبح قيدا ثقيلا .

ـــ لن يكون رباط حبنا قيدا أبدا .

ـــ حتى بعد أن يذبل العود ، ويهن الجسد ؟

ـــ تتحدثين عنه كأنه شيء يتعلق بالجسد .

ـــ أو ليس كذلك ؟!! أهناك شيء فى دنيانا لا يعلق بأجسادنا .. حتى الحياة

نفسها ؟! أتنكرين أن نضارة الحب معلقة بنضارة الجسد .. وأن وهجه مستمد من حرارته .

ـــ حبنا يستمد وجوده من شيء أكثر من الجسد ، شيء لا تفهمينه أنت .

ـــ تتحدثين كغريرات الصبايا .. الذى أفهمه أنا أن حبك المتأجج له حدود .. له مدى .. من قدرتك وقدرته .. لا يمكن لمشاعرنا أو طاقاتنا أن تحتمل انفعالا أبديا .. وعندما يهدأ انفعال الحب وتخبو جذوته .. نحس بحاجتنا إلى روابط أخرى تشد أحدنا بالآخر .. أشياء مشتركة لا بد أن توجد بعد أن تهدأ فورة الحب .. حتى لا يولى أحدنا من الآخر فرارا .

ـــ ماذا تعنين بأشياء مشتركة ؟

ـــ أتضللين نفسك .. أم حقا لا تعرفين ؟

ـــ تعنين الزواج .. مجرد وثيقة .. يمكن أن تشد اثنين انتهى بينهما الحب ؟

ـــ لست أقصد بالزواج وثيقته .. بل أقصد الأشياء المشتركة التى يخلقها .

ـــ مثل ؟

ـــ الأطفال .. المصالح المتبادلة .. الآمال المشتركة والمستقبل الواحد .

وطافت بوجه « هدى » سحابة حزينة أعتمت ملامحها .. وصمتت برهة تحاول أن تتمالك .. واسترسلت « أم حبيب » تقول :

ـــ أحقيقة لم تطف هذه الأشياء بذهنك ؟؟ أحقيقة حسبت أن حياتك يمكن أن تستقر إلى الأبد على هذا الشعور الفائر !؟ ألم تشعرى أن هناك أشياء أرسخ من هذا هى التى تكون دعائم حياتنا وتسندها فى المدى الطويل .

ومدت « هدى » يدها تضغط بها على جبينها وهى تحس أن رأسها يوشك أن ينفجر .. وتمتمت بصوت خافت :

ـــ لا أحب أن أفكر فى هذا كله .

ـــ حتى بعد النذر البيض التى تتسلل إلى شعرك .. والتجاعيد الخفيفة التى تحاول أن تجد طريقها أسفل عينيك ؟

ـــ لا تحاولى أن تبعثى اليأس فى نفسى .. إننى ما زلت صغيرة .

ـــ إلى متى .. إلى متى يمكن أن تعتمدى على جمالك .. لكى يضع لك دعائم حياتك !؟ إلى متى يمكن أن تشدى من حولك .. بشبابك .. خمس سنوات .. عشر سنوات .. وبعدها .. تبقين وحدك فى تلك السنين الطويلة الباردة الموحشة من خريف العمر .

وألقت « هدى » رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها ، وأطلقت زفرة طويلة .. ومدت العجوز يدها فربتت كفها فى حنان واسترسلت تقول :

ـــ سلينى أنا .. على ما يبدو لك من جهلى وغبائى .. قد علمنى الزمن شيئا .. لماذا لا تستفيدين منه ؟.. لقد كدت أستقر فى حياتى على مقر .. فى زواجى الأول .. ثم أحببت .. حبا جارفا مجنونا كهذا الحب الذى تعيشين فيه .. ولم أطق الحياة مع زوجى .. وتركته .. وفضلت أن أعيش مع الآخر .. بلا أى نوع من أنواع الروابط سوى الحب .. ولا أكتمك القول أنى استمتعت بحياتى فترة .. ظننتها ستطول مدى الحياة .. لأننا نحب .. والحب يبدو لنا فى أوجه عملاقا ساحرا لا تستعصى عليه معجزة .. ثم بدأت المشكلات .. فقد كانت له زوجة .. وعزمت أن أحتمل .. ولكنه لم يحتمل هو .. ولست أدرى ما هو هذا الذى لم يحتمله .. أهى المشكلات فعلا .. أم هو الشباب المدبر .. والجسد المترهل .. أم كلاهما معا .. فإن المشكلات لا تستعصى .. إلا إذا فقدنا الرغبة فى حلها .. والجمال الذاوى .. يجعل الرجل دائما أقل رغبة فى حل مشكلاته .. المهم .. افترقنا .. ووجدت نفسى .. فى منتصف الطريق .. حائرة شاردة منهكة القوى ذليلة النفس .. وكان علىّ أن أقطع بقية الطريق المقفر الموحش وحدى .. لولا قطعة ظل .. وغدير لم يجف نبعه بعد .. لاحت لى على جانب الطريق .. تلاحقنى فى المسير .. أبل بها ريقى وأظل بها رأسى عندما يجهدنى السير وتحرقنى الوحدة .. وجدت بقية من حياتى الأولى فى ولدىّ وأحفادهما .. وأحسست بهم كأوراق تتكاثف من حولى لتقينى وهج

الشمس .. أحسست بهم على طول الزمن .. كشيء يمنحنى إحساسا بالألفة فى حياة موحشة مقفرة .

وصمتت العجوز برهة تلتقط أنفاسها .. وبدا الشرود فى عينى « هدى » .. وعادت العجوز تقول فى صوت خافت كأنما تحدث نفسها :

— عمرنا طويل يا بنيتى .. طويل وموحش ومضن .. وأشق ما فيه رغبات جسدنا التى تتبدل على مدى العمر .. وأحمق ما نفعله أن نجعل لرغبات هذا الجسد فى فترة من فترات العمر .. حكما على العمر كله .. فنظل نقاسى منها بقية العمر .

وصمتت العجوز مرة أخرى .. وطال صمتها هذه المرة .. وزفرت « هدى » زفرة حارة .. ثم همست متسائلة :

— وماذا تريديننى أن أفعل ؟

— لا تجمدى بقية عمرك على هذه الفترة من حياتك .. ليس هناك سعادة دائمة فى هذه الحياة .. من العبث أن نطبق بأيدينا على مواردها .. ونظنه سيكفينا مدى الحياة .. فإذا ما اكتشفنا بعد فترة أنه نضب .. أصابتنا الخيبة وقتلنا اليأس .. السعادة فى هذه الحياة محدودة الكم .. متعددة الموارد .. وعلينا أن نعرف متى نترك المورد قبل أن ينضب معينه .. حتى لا نخذل فيه .. ويصبح مبعث يأسنا ، بعد أن كان منبع آمالنا .. وتجف على كأسه حلوقنا .. وتنهك قوانا .. لقد عشت فى حبك أجمل أيام عمرك .. فلماذا لا تحمدين الله عليها ؟! لماذا لا تعتبرين ما أخذته من حبك ربحا .. وتدركين مما تلقيته من نذر بأن نهايته قد أوشكت .. ولم يعد وراءه غير الخسارة !؟ لماذا لا تؤمنين بأنك شربت الكأس .. ولم يعد بها غير الثمالة ؟

وصمتت العجوز وعادت « هدى » تسأل فى لهجة ضيق وتبرم :

— وماذا تريديننى أن أفعل ؟

— ضعى بنفسك النهاية .. تجعلى من أيامك السعيدة .. ذكرى جميلة ..

تعاودك كالنسمة العطرة فى خريف عمرك . كونى حازمة .. واطوى صفحة حبك قبل أن تتلفها الأيدى العابثة .. لا تمنحي الزمن الساخر الفرصة لكى يحيل حبك الجميل .. مشكلة مزمنة تنغص حياتك وحياته .. انطلقى فى الحياة مرة أخرى ورددى مع القائل : « فى بقية الزهر عزاء عن النرجس » .. عودى إلى أصدقائك ووسطك وعملك .. وحاولى أن تجدى لنفسك طريقا آخر غير هذا الطريق المغلق . امنحى نفسك فرصة حب آخر .. من يدرى .. سبيله أسهل من هذا السبيل الشائك الوعر .

وهزت « هدى » رأسها وهتفت قائلة .. دون أن تحاول وقف الدمع المنساب من عينيها :

ـــ ليتنى أستطيع .

وقبل أن تكمل حديثها دق جرس التليفون .. وبلهفة مدت يدها ورفعت السماعة ، وأحست بخذلان عندما افتقدت الصوت الذى تهفو إليه ، وسمعت صوت شكرى يهتف بها قائلا :

ـــ آلو .. هدى .

ـــ أجل .

ـــ أنا شكرى .

ـــ أهلا شكرى .. كيف حالك ؟

ـــ كيف حالك أنت أيتها الهاربة ؟

ـــ الحمد لله .

ـــ إلى متى ستظلين مختفية !؟

ـــ أبدا .. أبدا .. كان لا بد من قضاء فترة نقاهة بعد العملية .

ـــ لقد سألت عليك عدة مرات .. فلم أجدك .

ـــ كنت فى بيروت .

ـــ وحدك يا خائنة .. لماذا لم تدعينا ؟

— لم تسمح الظروف .. لقد ذهبت فى عجلة .

— وإلى متى ستستمرين فى هذا الكسل ، لقد استمرأت الراحة ؟

— أبدا .. بضعة أيام .. وأعود إلى العمل .

— وكيف صحتك الآن ؟!

— أحسن .. الحمد لله .

— إن لدىّ أخبارا كثيرة أود أن أقولها لك .

— ما هى ؟!

— ليس فى التليفون .. تحتاج إلى جلسة .

— إذاً نتفق على موعد .

— متى ؟

وصمتت « هدى » برهة فى حيرة .. ثم قالت :

— أتحدثنى غدا لكى نحدد الموعد ؟

— أم لكيلا أجدك ؟

— أبدا سأكون فى البيت طوال اليوم .

— إذاً لماذا لا نتفق الآن ؟

— لأنى فى الواقع لدىّ بضعة مواعيد ستأتى إلىّ الخياطة .. وعندى موعد مع أحد الصحفيين .

وقاطعها شكرى قائلا :

— اسمعى يا هدى .. أنا أعرف مواعيدك هذه ، وأعرف طريقتك فى الزحلقة .. إنى أريد أن أحدثك فى أشياء هامة .

— مثل ...

— أولا لدىّ عرض لك مع كازينو الفردوس .. عرض مغر جدا ، وثانيا لدىّ لحن جديد ممتاز أحب أن أسمعك إياه قبل أن يلطشه أحد .. وثالثا .. أريد أن أراك ، لأننى أحس أنى قد أصبحت عاجزا عن العمل بدونك .. أيكفى كل

ذلك مبرراً لكى ألقاك ؟

وقبل أن تجيب « هدى » هزتّ « أم حبيب » رأسها فى غيظ وقالت :

دعيه يأتى .. أعطى لنفسك فرصة ، وحطمى هذا الحصار الذى فرضته حول نفسك .

وردت « هدى » فى لهجة مقتضبة :

تعال غدًا .. فى العاشرة .

وضعت « هدى » السماعة .. واسترسلت « أم حبيب » تقول :

ــ إنسان طيب ونافع ويحبك .. ويريد الزواج منك .. لماذا تبعدينه عنك !؟ إنك فى حاجة إلى سند يسندك .. قبل أن تنزعى الوثاق الذى شددت نفسك إليه .. فى حاجة إلى من يتلقفك قبل أن تهوى عن صخرة حبك التى اعتليتها ، ونأيت فيها عن كل من حولك .. فى حاجة إلى حقنة مخدر .. قبل أن تقدمى على عملية البتر التى يجب أن تقومى بها .

وأحست « هدى » من كلام « أم حبيب » كأن سكيناً يحز فى قلبها لينزع منه حشاشته .

وبدت لها العجوز كأنها جلاد يقف على المقصلة .. وحاولت جهدها .. أن تتمالك وتتجلد .. ولكن أعصابها أفلتت وهتفت باكية بصوت ملؤه المرارة :

ــ لا .. لا .. لن أفعل .. إنى أحبه .. أحبه .

وأحست العجوز أن دموعها تنساب فى تجاعيد وجهها وتمتمت قائلة :

ــ ليتنى أستطيع أن أفديك ببقية عمرى .. ليتنى أستطيع أن أفعل شيئًا .. ولكننى أعرف القدر خيراً منك .. وأنه يهبنا بيد .. ويسترد باليد الأخرى ما وهب بالربح المركب .. هذا القدر .. مراب كبير .. يمنح السعادة ويستردها مستفادًا .. بالربا الفاحش .. بقدر ما يمنحنا من متعة .. بقدر ما يفرض علينا

من ألم .. حتم علينا .. لكى نتجنب رباه الفاحش من المتاعب .. أن نقبض يدنا عن متعه ، وأن نكف عن التعامل معه .. فنخرج من حياتنا كما دخلنا .. بلا سعادة ولا شقاء .. حتم علينا أن نعيش حياتنا صفر اليدين من المتع .. حتى لا نسدد عنها أبهظ ضرائب الآلام والمتاعب .. علام إذًا خلقنا .. ولماذا أتينا ؟!

٤٤

شكوك حمقاء

ضم « سامى » المعطف على جسده وأحكم « الكوفية » حول عنقه ليتقى هبة الهواء القارس التى لسعت وجهه وهو يغادر باب الطائرة قبيل المغرب .. وهبط درجات السلم وسط رهط المسافرين وأخذوا يتبعون مضيفة الطائرة إلى مبنى المطار .. وفى طريقه استطاع أن يميز وجه أخيه ، وفايزة ، وسليم ، وبعض رفاق الحزب ، والمحررين يلوحّون بأيديهم وسط المستقبلين .

وعانقه أخوه وشدتّ « فايزة » على يده فى لهفة ، وأقبل « سليم » مع بعض المستقبلين يصافحونه مهنئين بسلامة الوصول .. ووقف الجميع يتحدثون فى انتظار الانتهاء من إجراءات الجوازات والتفتيش الجمركى .. وانتحى « سامى » بأخيه وفايزة وسليم ووقفوا بجوار إحدى مدافئ الغاز النحاسية المجاورة لمكتب أحد رجال الشرطة وأحس « سامى » وجوماً على وجه أخيه فسأله مستفسراً :

ـــ كيف حال والدتى ؟

ـــ شديدة القلق عليك .. لم تكف لحظة واحدة منذ أول أمس عن السؤال عن موعد وصول الطائرة .. قد تركتها على حال من القلق الله أعلم بها .

وتدخل سليم قائلا :

ـــ لماذا لاتحدثها فى التليفون لتطمئنها عليك ؟!

ثم تلفت حوله ، وقبل أن يرد سامى سحبه من ذراعه قائلا :

ـــ تعال إلى مكتب ضابط الجوزات .. فلا أظنه سيمانع فى استعمال تليفونه .

وسار سامى مع سليم إلى حجرة الضابط ونهض الرجل مرحباً به :

ــ أهلا وسهلا أستاذ سامى .. حمد الله على السلامة .. لقد أديتم عملا رائعاً فى القاهرة .

ــ شكراً .. هل أستطيع أن أستعمل التليفون لحظة ؟

ــ طبعاً .. طبعاً .. تفضل .. أتأمرون بقهوة ؟

ــ شكراً .. لن أزعجكم أكثر من دقيقة واحدة .

ــ أستغفر الله .. المكتب تحت أمركم .

وانسحب الرجل فى كياسة من الغرفة ليتيح لسامى فرصة الحديث ، وتبعه سليم .. ووقف « سامى » أمام التليفون يطلب رقم البيت ، وبعد بضع دقات سمع صوت الخادمة تهتف متسائلة :

ــ آلو .. من ؟

ــ أنا سامى .. كيف حالك يا مجيدة ؟

ــ الحمد لله على السلامة يا سيدى :

ثم صاحت فى فرحة :

ــ سيدتى .. سيدى سامى فى التليفون .

وما لبثت أن وجهت إليه الحديث قائلة :

ــ دقيقة واحدة حتى أحمل لسيدتى التليفون .

وبعد برهة سمع صوت والدته ، وقد غلبها البكاء تهتف به :

ــ سامى !؟ أين أنت ؟

ــ فى المطار .

ــ حمد الله على السلامة يا حبيبى .. لماذا غبت كل هذه المدة ؟! ولماذا لم تراسلنى لتطمئننى عليك .. لقد ...

ورد سامى مقاطعاً :

ــ لنرجئ كل هذه الأسئلة حتى آتى إليك .

ــ وكيف صحتك ؟

ــ على ما يرام .. كيف حالك أنت ؟

ــ كما أنا .. ما زلت أحس بالخفقان كلما تركت الفراش .. ولم أذق النوم ليلة أمس .. وأنتابتنى الهواجس والأفكار لخوفى عليك .. متى تأتى ؟

ــ مسافة الطريق ... لن أغيب أكثر من نصف ساعة .. مع السلامة .

ووضع « سامى » السماعة .. ووقف أمام التليفون برهة .. وأحس بحنين شديد إلى أن يسمع صوت « هدى » .. وإلى أن ينبئها بأنه وصل .. لقد ذكر حزنها لأنها لا تملك حتى وداعه .. وأحس أن من حقها عليه أن تشارك فى استقباله بطريقة ما .

وأدار القرص وقد أصابه نوع من الاضطراب والقلق .. وهو يحس بالحنين المفرط إلى سماع صوت « هدى » .. ودق الجرس بضع دقات .. وما لبث أن سمع صوت « أم حبيب » ترد عليه متسائلة :

ــ آلو .. من ؟

ــ مساء الخير يا أم حبيب .. أنا سامى :

ــ أهلا وسهلا سيدى سامى .. حمد الله على السلامة .

وأحس « سامى » بشىء من خيبة الأمل وهو يسمع صوت « أم حبيب » ترد .. وكان يتمنى أن يفاجئ « هدى » بحديثه .. وزاد من ضيقه وهو يجد المرأة تنتظر على السماعة .. مما أوحى إليه بأن « هدى » غير موجودة .. وإلا تركت السماعة وأسرعت إليها لتخبرها بنبأ وصوله ، ووجد نفسه مضطراً إلى أن يسأل :

ــ أين الست هدى يا أم حبيب ؟

ــ لقد خرجت .

ــ أين ؟

وترددت « أم حبيب » برهة قبل أن تجيب :

ـــ لا أعرف يا سيدى .

ـــ ومتى ستعود ؟

ـــ أغلب ظنى بعد الانتهاء من عملها .

ـــ عملها !! ومنذ متى بدأت العمل ؟

ـــ لا أعرف يا سيدى .

ـــ ومتى خرجت ؟

ـــ لقد تناولت الغداء فى الخارج .

ـــ أين ؟

وردت العجوز ببساطة :

ـــ لا أعرف يا سيدى .

وهتف « سامى » بشىء من الحدة :

ـــ كل شىء لا تعرفين .. ما الذى تعرفينه إذن !؟

ـــ لا أحب أن أتدخل فى شئونها ياسيدى .

ـــ عندما تأتى أخبريها أنى وصلت .

ـــ حاضر يا سيدى .

ووضع « سامى » السماعة وقد بدا عليه الضيق .. وأقبل « سليم » فأحس بما أصابه فسأله فى قلق :

ـــ خير .. ماذا بك ؟

وحاول « سامى » أن ينفض عنه الضيق فرسم على وجهه ابتسامة وأجابه :

ـــ لا شىء .

ـــ ألم تجد الوالدة بخير ؟

ـــ أجل .. أجل .

ـــ إذن ما الذى ضايقك ؟

ـــ قلت لك لا شىء .

واستطاع « سليم » أن يدرك شيئاً مما حدث ، ولم يشك فى أن « سامى » قد طلب « هدى » وأحس بأن هذه المحادثة هى التى سببت له الضيق .. فقال وكأنه يحدث نفسه :

— والبقية تأتى .. ربنا يتوب عليك منها ومن كل ما وراءها من متاعب .

وكانت إجراءات المطار قد انتهت ، وشكر « سامى » ضابط الجوازات ثم اتجه إلى الخارج .. وقبل أن يهم بركوب العربة تساءل :

— من سيأتى معى ؟!

وأجاب سليم :

— سأعود أنا إلى المكتب .. لأراجع بقية الصفحات .

— لن أتأخر عليك .

— أتنوى الحضور إلى المكتب الليلة ؟

— طبعا ..

— لماذا لا تستريح !

— ممّ أستريح ؟

— من السفر .

— لقد مكثت ساعتين فى الطائرة لا أفعل شيئا سوى الراحة ..

— إن كل شيء يسير على ما يرام .. وليس هناك ما يستدعى حضورك الليلة .

— المفروض أن أقابل عبد الوهاب بك .. وأقدم له تقريرا عما حدث .

— يا أخى .. الصباح رباح .. لم تطر الدنيا .

— بل توشك أن تطير .. ليس لدينا وقت نضيعه .. وخصومنا يتربصون بنا .

وتدخل أخو سامى قائلا :

— كنت أظنك ستقضى الليلة معنا فى البيت .. إن والدتى فى أشد الشوق إليك .

ـــ سأجلس معها كما تريد ثم أعود إلى المكتب .. هيا بنا .

وجذب أخاه إلى السيارة وهو يسائل فايزة :

ـــ أستذهبين إلى المكتب ؟

ـــ أجل .

ـــ لن أتأخر عليك .. إذا سأل عنى أحد قولى له إنى سأكون فى المكتب فى الساعة السابعة .

وودع « سامى » مستقبليه ، وانطلقت به العربة وقد جلس أخوه إلى جواره .

وقطعت العربة طريق المزة وكلا الأخوين واجم شارد .. ولم يستطع « سامى » أن يمنع ذهنه من معاودة التفكير فى الحديث القصير .. المخيب لأمله .. الذى دار بينه وبين « أم حبيب » .

كان يتمنى لو أجابته « هدى » .

ولكنها قطعا لم تكن تعرف أنه عائد .

وأنى لها أن تعرف !!

لو حاولت أن تسأل الجريدة أو الحزب أو البيت لعرفت .

ولكن تسأل مَنْ ؟!

أى إنسان ؟! أى عامل تليفون . كان لا شك سيخبرها .

باعتبارها مَنْ ؟!!

أى إنسان أيضا ؟! صديقة .. قريبة .. صحفية .. إن السؤال لن يستعصى عليها لو أرادت ، فهى ليست غبية .

ولكن من يدرى .. ربما حاولت وفشلت .

أو ربما أرادت أن تجنبه أى احتمال لريبة أو شكوك .

ولكن هبها لم تعرف .

ألا تتوقع هى أن يعود بين يوم وآخر ؟!

وماذا تفعل إذا هى توقعت ؟!

تلازم الدار ليل نهار ؟

بالطبع لا .. إنه لا يمكن أن يفرض عليها ذلك .. رغم أنه غير مستبعد لا سيما وهى لم تزل بعد فى دور النقاهة .

إنه لا يطلب منها ملازمة الدار ليل نهار فى انتظار عودته .

ولكنه أيضا لا يتوقع منها أن تتركها .. ليل نهار .. وهى تعلم باحتمال عودته .. أو حتى لا تعلم .

ليس المفروض أن تنتهز فرصة غيابه .. لتهرب من الدار .. تخرج قبل الغداء .. وتتناول الغداء فى الخارج .. وتظل طول النهار وساعات من الليل غائبة حتى تعود فى آخر الليل إلى البيت بعد انتهاء العمل !!

هذا .. إذا عادت .

وأحس بغليان فى جوفه .. وكره أن يترك نفسه نهبا لوساوس حمقاء .. وحاول جهده أن يغير مجرى أفكاره .. وكانت العربة قد أخذت تعبر بيوت المزة البيض المنخفضة وتمهل السائق وهو يضرب النفير لبعض صبية تجمهروا وسط الطريق .

ونظر « سامى » إلى أخيه .. فاستطاع أن يميز للمرة الثانية ما علاه من وجوم واكتئاب فقال متسائلا :

ـــ ما بالك ؟

وأجاب الأخ وهو مستمر فى شروده :

ـــ لا شىء .

ـــ بل بك شىء .. منذ لقيتك .. لم أجد فى وجهك ما تعوّدت أن ألقاه من بشاشة .. إن الدنيا بخير .. فماذا يدعوك إلى الاكتئاب ؟!

وهز أخوه رأسه وأجاب فى صوته الخافت ولهجته المقبضة :

ـــ لا شىء .

وعاد سامى يسائله :

— هل هناك ما يضايقك فى الجامعة ؟

وتنهد أخوه قائلا :

— فى الجامعة ، وفى غير الجامعة .

— شيء خاص بالدراسة ؟

— لا .

— شيء خاص بك أنت ؟

وصمت الصبى ، وأحس « سامى » من نظرته إلى ظهر السائق أن الحديث فى متاعبه ليس مجاله العربة .. فمد يده وربت ساقه برفق قائلا :

— ستحدثنى بكل شيء عندما نعود إلى البيت .. لم تتعوّد أن تخفى عنى متاعبك .. أليس كذلك ؟!

وتنهد الصبى ولاذ بالصمت .

وأخذت العربة تجتاز مدخل دمشق المتسع بأشجاره الباسقة الجرداء على الجانبين ، وبردى ينساب يمينه ومن ورائه أبنية المعرض وقد بدت مقفرة تعصف فيها الريح .

ولم يستطع « سامى » أن يرخى عينيه وهو يمر ببيت « هدى » ، وتعلق بصره بالشرفة وراء الشجرة العالية التى تعوّد أن يقبع وراء زجاجها على المقعد الكبير وفى حجره « هدى » .. وتمنى لو استطاع أن يقفز من العربة ويعدو ليضم « هدى » بين أحضانه .. ولكنه أحس باستحالة أمنيته .. لأن « هدى » ذاتها غير موجودة .. وهو لا يعرف متى تعود الليلة .

وأخيرا وقفت العربة أمام باب البيت .

ولم تمض لحظات حتى كان يستقر بين ذراعى أمه ، وقد أخذت تضمه كأنه طفل صغير .

ونظر إليها وهو يرى دموعها تنساب وقال ضاحكا :

ـــ علام البكاء ؟.. على عودتى ؟.. ماذا كنت تفعلين إذا لم أعد ؟
ـــ أبعد الله الشر عنك ، ولا أرانى فيك أو فى أخيك مكروها .
ثم نظرت إلى أعلى وهتفت داعية :
ـــ يا رب اجعل يومى قبل يومهما .. يا رب اجعلهما يحملانى بأكفهما .. ولا ترنى فيهما يوما بغيضا .
وهو « سامى » رأسه قائلا :
ـــ يا ستى لِمَ كل هذا ؟! لماذا تتحدثين عن يومك ويومنا .. ادعى الله أن يحفظنا جميعا . إن قدرته على حفظنا لا تقل على قدرته على أخذنا .
وضحكت الأم قائلة :
ـــ يحفظكما أنتما كفاية .. لن آخذ أيامى وأيام غيرى .
وأجاب « سامى » بما يعرف أنها تريد منه :
ـــ ما زلت صبية يا أماه .. ربنا يعطيك طول العمر .
وانتهى « سامى » من تحية أمه .. وأخرج ما أحضره من هدايا لها ولأخيه وللخادمة .. ولبقية الأهل والأصدقاء .. ثم ذهب يبحث عن أخيه ليعطى له هديته .

٤٥

لهفة على لقاء

كان الصبى قد اختفى فى حجرته ، وجلس إلى مكتبه متظاهرا بالقراءة فى أحد الكتب ، وأدهش « سامى » إصراره على الاعتكاف وخلوده إلى الوحدة فى حجرته .. وانطواؤه .. على حين ينبغى عليه أن يفرح للقائه ويتلهف على أخباره .

ووضع « سامى » أمامه رباط العنق والصديرى الذى أحضره له وقال باسما :

ــ ما رأيك فى هذا ؟

وهز الصبى رأسه وأجاب فى صوت خافت :

ــ لطيف .. متشكر .

ومد « سامى » يده إلى الكتاب فأغلقه قائلا :

ــ لا تحاول أن تفهمنى أنك تستذكر . هيا قل لى ما بك ؟

ــ لا شىء .

ــ لا داعى لأن تقول لى لا شىء ، لأنى أعرف تماما أن بك شيئا .. فأفض به لكى تريح نفسك وتريحنى .. قل ماذا حدث ؟

وفجأة رفع الصبى رأسه قائلا فى حزم :

ــ لن أذهب إلى الكلية .

وتساءل « سامى » فى دهشة :

ــ لن تذهب إلى الكلية !؟ لماذا !؟ ماذا حدث ؟

ــ الشيوعيون يعايروننى بك .

ــ بى أنا ؟! ماذا يقولون ؟

ــ يسمونك .. الأستاذ « هدى نور الدين » .

وأحس « سامى » كأن ماءً باردا قد سكب على رأسه .'. ومضت برهة ، وهو يحملق فى أخيه فى شىء من الذهول .. وما لبث أن تمتم قائلا :

ــ الأوغاد .. أهذا كل ما استطاعوا أن يحاربونى به ؟

وهز أخوه رأسه فى ألم وتساءل ، وهو يكبت نوبة بكاء :

ــ أحقيقة ما يقولونه ؟

ــ هبه حقيقة .. ما لهم وعلاقات الناس !؟

ــ لا يا أخى !! هذه ليست علاقة خاصة .. إنها وصمة .. إنهم يتحدثون عنها بطريقة مخزية .. إنهم يجعلون منها سبة فى جبينك .. يتحدثون عنك كعشيق من عشرات العشاق .. ويصفونك بأنك تقضى الليل مخمورا بين أحضانها .. وسط القمار والرقص والعربدة .

وأحس « سامى » كأن قول أخيه مدية تحز فى صدره .. وأجاب ، وهو يحاول جهده أن يضبط أعصابه .

ــ إن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك .

ــ كيف يكون إذن ؟ .. هل يمكن أن يتصوره أحد إلا كذلك ؟

وكره « سامى » لنفسه أن يقف من أخيه الصغير موقف المذنب .. وأن يقدم له تفسيرا عن علاقة .. وشرحا لوضع لا يمكن أن يكون على أفضل الوجوه وبخير التفسيرات .. إلا خاطئا .. وضع لا يبرره سوى الإحساس الحقيقى بالحب .. وهو مبرر لا يمكن أن يقنع إلا فردين .. هم طرفا الحب نفسه .

ولم يطق « سامى » أن يقف من أخيه موقف المحب العاجز .. ولا أطاق أن يدخل وإياه فى جدل يفسر به موقفه أو يقنعه بالتسليم بشىء يحس هو نفسه لو وضع مكانه .. لما استطاع أن يسلم به .

ووجد أن المشكلة أكبر من مجرد إقناع أخيه .. إن أخاه يمثل قطاعا من الشباب الوطنى الثائر الذى لا يمكن أن يسلم به إلا كنموذج رائع للكفاح والوطنية .. لا يمكن أن يتصور أبدا .. أن له قلبا يحب .. وإرادة تضعف أمام ذلك الحب ..

لا يمكن أن يتخيله إلا أنه يكتب ويخطب ويناضل ويخوض معارك الكفاح من أجل الحرية والاستقلال .. لا يمكن أن يقرنه إلا بمسميات العزة والكرامة والنصر .. مسميات يبدو الحب بجوارها ضعفا ومذلة وهوانا .

ولم يحس فى نفسه القدرة وقتذاك على مناقشة تلك المشكلة .. سواء مع أخيه أو مع غيره من الناس .

لم يجد أن الوقت قد حان بعد لكى يواجه نفسه بالصراع المحتم الذى لابد أن سيخوضه مع جانبى المشكلة .

لم يشعر أنه قد وصل إلى النقطة التى يتعذر معها المحافظة على توازنه والاحتفاظ بكلا الجانبين .. والتى يتحتم عليه أن يضحى بأحدهما لكى يحتفظ بالآخر .

كان يحس بأنهما معا قد باتا يكوّنان حياته .. لم يتصور مرة واحدة أنه يستطيع أن يتخلى عن دوره القيادى فى معركة وطنه .. أو ينأى بنفسه عن ميدان الصراع لكى يحيا حياته الخاصة مستمتعا باسترخاءة ناعمة لينة .

ولا بات يتصوّر أيضا كيف يمكن أن يواصل السير فى حياته تلك مجردا من حبه .. يعدو فيها لاهثا مكروبا .. دون أن يجد ملجأ يلجأ إليه أو مقرا يستقر فيه .

لقد أمضى حياته صائما .. زاهدا .. وكان يمكن أن يواصل السير فى زهده وصومه .. كان يمكن أن ينطلق فى بيداء الحياة .. غير عابئ بقفرها ويبابها .. إذ لم يجد فيها ما يغريه بالتمهل للرى والزاد .. حتى صادف ملجأه .. الذى خلقه الله له .. فأحس بلسعة الأرض تحت قدميه ووهج الشمس فوق رأسه .. فاندفع إليه وتشبث به .

لماذا يحرمونه عليه ؟

لماذا يحاولون أن يقيسوه بمقاييسهم ؟

ولماذا يجبن هو عن الارتباط علنا .. وفرض وجوده عليه كجزء من كيانه !

أيمكن هذا ؟!

إذا كانوا لم يحتملوها كعشيقة .. أيحتملونها كزوجة ؟!

أم تكون القاضية .. على كل آمالهم فيه .. وإيمانهم به ؟

وهز رأسه كأنه ينفض عن ذهنه ثقلا يوشك أن يودى به .. ونظر إلى أخيه الصامت فى حزن ، المطرق فى يأس واكتئاب .. وقال له ، وهو يتنهد فى أسى :

ـــ حسن .. لا أظن الوقت مناسبا لمناقشة الموضوع .. كل إنسان له كيانه البشرى .. وله ميوله الخاصة ، ولست أقول ذلك لأعتذر عن نزوة بشرية ، ولكن لأوضح لك أن على كل إنسان يخوض معركته البشرية مع نفسه .. هو وحده الذى يستطيع أن يعرف ما هو حق وما هو غير حق .. وهو الذى يقرر نتيجة صراعه وعليه أن يحتملها وحده وأنا مهما بدوت لك أو لغيرك .. لا أزيد عن إنسان .. وعلىّ أن أخوض معركتى مع نفسى .. وعلىّ أن أتحمل نتائجها ، وهمس به أخوه :

ـــ لست وحدك الذى تتحملها .. إننا سنتحملها معك .

ـــ أرجو الله أن يجنبنى كل ما يسيئكم أو يخذلكم .

ونهض الصبى فمد ذراعيه وضم أخاه فى لهفة واندفع فى نوبة من البكاء .. ولم يملك « سامى » إلا أن يضم إليه الجسد الصغير المرتجف فى حنان .. وأن يبذل كل ما يملك من جهد حتى يجمد الدمع فى مآقيه .. فلا تصيبه نوبة البكاء .. وتختلط دموعه بدموع الصبى .

وعاد « سامى » إلى حجرته .. والأفكار تضطرب فى ذهنه .. وكل شىء قد بدا من حوله مبهما غامضا .. عدا شىء واحد كان يلح عليه فى وضوح وإصرار .. هو لقاء « هدى » .

ومن أجل هذا .. كان عزمه على العودة إلى المكتب .

ولم يكد يستقر فى البيت هنيهة ليبدل ملابسه .. حتى كان يهبط مرة ثانية ، ليأخذ السيارة فى طريقه إلى الجريدة .

وكانت « فايزة » تجلس فى انتظاره وبها إحساس الجالس على بركان لا يعرف متى سينفجر .

لم تعرف ماذا يمكن أن تكون نتيجة عملها الذى أقدمت عليه .

إنه عمل أحمق لا شك فيه .

لم تعرف « فايزة » ما به من حماقة ، إلا بعد أن فعلته .

ومع ذلك .. لم يكن هناك مفر من عمله .

لم تكن تستطيع أن تجلس صامتة .. وهى تراهم يقذفونه بالقاذورات والحجارة .. كان عليها أن تفعل شيئا لحمايته .

ولم تستطع أن تفعل إلا ذلك الشىء .

وعليها الآن أن تجلس فى انتظار نتائجه .

ودخل « سامى » فنهضت لتحيته ورد عليها التحية متسائلا :

ــ ألم يطلبنى أحد ؟

ــ لم يطلب أحد فى هذا الرقم .. والتليفون الآخر دق بضع مرات ورد عليه الأستاذ سليم .

ودخل « سامى » مكتبه فاستقبله « سليم » مهللا وهو يقول :

ــ أخيرا .. منّ الله علىّ بالفرج .. تسلّم مشكلاتك . لقد بذلت كل ما أستطيع لمضاعفتها لك .. تفضل .

وأزاح إليه كوما من المقالات والرسائل :

ــ مشكلات قراء ، وكتاب ، ومحررين ، ورسائل إعجاب ، وشتائم .

وأخلى المقعد لسامى وهو يسترسل قائلا :

ــ لقد أخذت الإعجاب .. وتركت لك الشتائم .

وجلس « سامى » على مقعده .. وبلا وعى امتدت يده إلى السماعة وهو يتساءل :

ــ هل سأل عنى أحد ؟

ــ كثيرون سألوا عنك .. قلت لهم إنك مسافر .

ــ أقصد الآن .. بعد أن عدت ؟!

ــ لا .

وبدت الخيبة على وجه « سامى » وراح يدير القرص طالبا رقم هدى ، وجلس سليم يرقبه وهو يسأل :

ــ السّت حضرَت ؟

وردت عليه « أم حبيب » قائلة :

ــ لا يا سيدى .

ــ ألم تتكلم ؟

ــ لا .

ووضع السماعة فى ضيق .

وأحس « سليم » أن هناك أشياء كثيرة .. يجب أن تقال ، وكان هو أحق الناس بقولها .

معركة الشبان فى الحزب .. والضجيج الذى أحدثته .. وتهديد فؤاد ، وذهاب « فايزة » إلى « هدى » .

كل هذا يجب أن يعرفه بتفاصيله ، حتى يستعد لمواجهته .

وقبل أن يفتح « سليم » شفتيه للحديث دق جرس التليفون .

ورفع « سامى » السماعة فى لهفة .

وبدت على ملامحه الخيبة وهو يهتف محيًّا :

ــ أهلا وسهلا عبد الوهاب بك .

ــ حمد الله على السلامة يا سامى .. لقد علمت الآن فقط أنك وصلت .. كيف الحال ؟

ــ الحمد لله .. لقد فعلنا أشياء كثيرة .

ــ أعلم هذا .

ــ استطعنا أن نشرح قضيتنا جيدا .. وأن نُسمِع الرأىَ العام العالمى صوتَنا .

ــ كنت موفقا جدا .. ولعلك تكون قد اقتنعت بإصرارى على سفرك أنت بالذات ؟

ــ أجل كان يجب أن أكون هناك فعلا . إن هناك أشياء كثيرة حققناها بالاتصال الشخصى ، وأريد أن أسردها عليك .

ــ تعال فى أى وقت .. إنى فى انتظارك فى البيت .. هل تستطيع أن تأتى الآن ؟

وتردد « سامى » برهة ولكنه ما لبث أن قال :

ــ أجل .. إذا لم يكن هذا يضايقك .

ــ قلت .. إنى فى شوق إلى رؤياك .

ووضع « سامى » السماعة وهو يحس بشىء من الضيق .

كان يتلهف على لقاء « هدى » ، وكان يحس أنها ستتصل به بين آونة وأخرى ، فلابد أن تحضر أو على الأقل تتحدث إلى « أم حبيب » ولابد أن تخبرها « أم حبيب » بوجوده .

كان يشعر بفرط الإجهاد .. وكان يعرف جيدا المكان الذى يريحه .. هناك على المقعد الكبير .. فى الحجرة الدافئة ، وراء الزجاج الذى يبدو منه مجرى بردى .. ينساب حتى يختفى بين الهضاب . والأنوار تتلألأ فى حضن الجبل .. وذراعان تضمانه فى شوق .. وشفتان تتحسسان عنقه وذقنه ، وأنفاس هادئة تدفئ وجهه .

وبدا له كأن القدر يعانده .

وأنه قد تحتم عليه أن يرى كل الناس قبل أن يراها .. ولم يملك إلا أن ينهض فى استسلام قائلا لسليم :

ــ سأذهب إلى عبد الوهاب بك .. انتظرنى هنا .

ــ هل تمكث كثيرا ؟

ــ لا أظن .

ــ إذاً سأنتظرك إذا أردت .

وبدا التردد على وجه « سامى » وكأنما يود أن يقول شيئا .. وعندما وصل إلى الباب التفت إلى « سليم » قائلا :

ــ إذا تحدثت .. قل لها إنى سأكون هنا فى الساعة الثامنة .

ورفع « سليم » رأسه وأجاب :

ـــ كنت أود أن أقول لك شيئا هاما ..

ـــ عندما أعود .

ـــ أفضل أن أقوله لك قبل أن تذهب .

ـــ ما هو ؟

ونهض « سليم » مقتربا من « سامى » .. وأمسك بذراعه برفق وقال ببساطة :

ـــ عبد الوهاب بك يعرف علاقتك بها .

ورفع « سامى » حاجبيه فى دهشة :

ـــ ماذا يدعوك إلى أن تقول هذا ؟

ـــ لأنى أخشى أن يحدثك فى موضوعها فتفاجأ .

ـــ وما الذى يدعوك إلى هذا الظن ؟

ـــ لأن المسألة قد شاعت .. إن المشكلة لم تكن فى أن يعرف هو .. ولكنها فى أن يعرف أن الناس كلها تعرف .

ـــ ما هذا الذى تقوله ؟

ـــ حدثت معركة فى قاعة الحزب بين الشبان حول علاقتك بهدى .

ـــ معركة فى الحزب حول علاقتى بها ! ما هذا الذى تقوله ؟

ـــ وبلغت مسامعه عند دخوله إلى حجرته .. واضطر إلى تهدئة الشبان وفض معركتهم .

وبدا الوجوم على وجه « سامى » واستطرد « سليم » يقول :

ـــ وحضر بعدها فؤاد عبد الجبار .. وتفوّه بكلام سخيف من الذى تعوّد أن يقوله وأكد بأنه سيوقع بك قريبا .

وأطرق « سامى » برأسه وبدا عليه الشرود ثم تمتم قائلا :

ـــ كل هذا حدث ؟!

وأحس « سليم » بالضيق الذى أصابه .. وكره أن يخبره بما فعلته « فايزة »

ووجد أن من حقها هى أن تخبره إذا شاءت .

ومد يده فشد على ذراعه قائلا :

ـــ لقد أردت أن أخبرك بكل ما حدث ، حتى لا تفاجأ بشيء وتكون على استعداد للتصرف .

ونفخ « سامى » من أنفه نفخة ساخرة .. وتمتم قائلا :

ـــ تصرف .. أى تصرف ؟!

ـــ كل شيء يمكن إصلاحه .. ولكن يجب عليك أولا أن تتحمل عملية البتر .

وأطلق « سامى » زفرة حارة وهو يردد بصوت خافت :

ـــ بتر .. ما أسهل الأقوال !

ثم انفلت خارجا وهو يكاد لا يبصر ما أمامه .

٤٦

طريق الصواب

وصل « سامى » إلى بيت « عبد الوهاب بك » واجتاز الساحة التى تتوسطها البحرة .. وصعد الدرجات الرخامية العريضة المؤدية إلى الطابق الثانى .

وكان « عبد الوهاب بك » قد استقر على الأريكة متدثرا بالروب .. وقد أمسك بيده أحد الكتب السميكة التى تزخر بها مكتبته ، ولم يكد يحس بسامى يطرق الباب ويخطو داخل الحجرة حتى نهض لاستقباله مرحبا وقال وهو يشد على يده :

ــ أهلا .. وسهلا .. حمد الله على السلامة .. تفضل .

واستقر على أحد المقاعد المريحة بجوار الأريكة .. ودخل أحد الخدم يحمل القهوة .. ودفع إلى جوف المدفأة بكتلتى حطب ثم انصرف .

وبدأ « سامى » حديثه فأعطى لعبد الوهاب تقريرا موجزا عن كل ما حدث حتى انتهى إلى الحديث الذى دار بينه وبين مندوب الاتحاد السوفييتى الذى قارن معه بين أسلوبى الصداقة والتعاون التام مع احترام مبادئ الشعوب وحريتها ونظمها .. وأسلوب احتضان بعض العملاء لتكوين أحزاب تضمن نوعا من التبعية والسيطرة وفرض مبادئ معينة لا تلائم طبيعة الشعوب .

وابتسم عبد الوهاب وتساءل قائلا :

ــ هل قلت له ذلك ؟

ــ أجل .

ــ وبماذا أجاب ؟

ــ بالصمت .. وإن كان يغلب على ظنى أنه قد اقتنع بقولى فى قرارة نفسه ..

بل أعتقد أن حكام الاتحاد السوفييتي يؤمنون بذلك ، وإن كان التنظيم الحزبى لا يستطيع أن يخذل أتباعه الذين حاول الاستناد إليهم قبل أن يكتسب الصداقة العلنية للشعوب خشية أن يفقد ثقة أتباعه الذين ما زال يحتاج إليهم فى تهيئة مواطئ لقدمه فى المناطق المحرمة عليه .

وهز « عبد الوهاب » رأسه وعادت الابتسامة تعلو شفتيه ، وأجاب فى هدوء :

ـــ جائز .. وإن كنت فى بعض الأحيان أحس أن الشيوعية فى حقيقتها لا يمكن أن تشكل ذلك الخطر الذى يكمن فى أذهاننا وراء اسمها .

ـــ كيف ؟

ـــ لأنى أرى للشيوعية مفهومين .. مفهوما كمبادئ .. ومفهوما كنظام للحكم .. أما مفهومها كمبادئ .. فهى شيء نموذجى لسعادة البشر لا يمكن تطبيقه أبدا فى دنيانا هذه وبطبائعنا البشرية تلك .. ولا أظن نظاما ما يمكن أن يطبقها بالطريقة التى تحقق أهدافها إلا إذا كان نظاما إلٰهيا فى دنيا الملائكة .. فإذا ما حاولت تطبيقها بمفهومها كنظام للحكم .. أضحت فى حد ذاتها سخرية المساخر إذا ما قورنت بمفهومها كمبادئ .. ولم تعد أن تكون نوعا من أنواع السيطرة على الجهود .. من أجل عملية بناء .. ورهن حرية جيل أو بضعة أجيال .. لكى نورثها رخاء للأجيال التالية .. وهى بهذا المفهوم الواقعى الذى انتهت إليه لا يمكن أن تكون إلا مرحلة انتقال فى حياة الشعوب .. أو دور تربية .. أو فترة تقشف .. أو عملية بناء .. تتطلب سيطرة كاملة على الحريات وحشدا تاما للجهود .

ورفع « سامى » حاجبيه فى دهشة وتساءل قائلا :

ـــ هل تعتقد ذلك حقا ؟

ـــ طبعا . إن الشعوب جميعا ككل كائن حى يمر بفترات طفولة وشباب وعجز ، وموت ثم إعادة ميلاد .. ودور العجز والوهن تمثله فترة الانحلال التى

تتحكم فيها قلة متخومة فى كثرة محرومة .. ويتفشى الفساد ، وتختل الموازين ، وتضيع الثقة ، ويتبدد الإيمان ، ويسود القلق والحرمان والطمع .. حتى يصل الانحلال بالشعب إلى حالة انهيار أو احتضار .. أما إعادة الميلاد فتمثلها الثوارت .. التى تعقب فيها صرخات الوضع بكل ما فيها من آلام وأوجاع .. صيحات المولود الجديد .. الذى تحشد الجهود من أجل حمايته .. ووقايته من كل عدوان .. والتضحية من أجله بالكثير من الراحة .. وتمر الشعوب بعد ذلك بفترات الطفولة والنمو التى تحتاج إلى نوع من التربية .. تفرض فيه القيود وتحدد الحريات .. حتى يستكمل الصبى بنيانه ، ويحس بعنفوانه ويكبر على القيود .. ولا يجد مبرراً الرهن حرياته .. وينطلق لينعم بحياته ، وبقدر انطلاقه وتحلله يكون إشرافه على النهاية .

وصمت « عبد الوهاب » برهة ثم أطلق نفخة ساخرة من فمه واسترسل يقول :

ـــ تلك حياة الشعوب .. لا بد من فترات تربية وبناء ، وللتربية ، كما تعلم ، أساليب مختلفة من الشدة واللين ، وعمليات البناء تختلف فى مدة إتمامها .. والمسألة بعد ذلك تحتاج إلى موازنة .. بين تضحية جيل من أجل جيل آخر .. أو التضحية ببعض عمر جيل من أن يسعد الجيل نفسه ببقية عمره .. وطبائع الشعوب تختلف .. وقدرتها على احتمال التضحيات تتفاوت .. ونوع التضحية المطلوبة تختلف أيضا بين شعب وآخر .. وعندما يتحتم على شعب أن يتنازل عن حريته لكيلا يموت جوعا .. لن يجد أمامه بديلا للتنازل عن هذه الحرية .. ولكن إذا خيّرته بين حريته ، وبين مزيد من الطعام .. فقد يتنازل بسهولة عن المزيد من الطعام .. إن الحرية قطعا شيء جميل .. ممتع .. ولكن علينا فى بعض الأحيان ، أن نتنازل عن بعضهما .. لتحقيق ما هو أفضل منها .

ـــ هل هناك ما هو أفضل من الحرية ؟!

ـــ الحياة .. وأشياء كثيرة أخرى لا تستطيع أن تنالها فى هذه الحياة إلا بالتنازل

عن بعض هذه الحرية .

ـــ مثل ؟!

وصمت « عبد الوهـاب » .. وأطرق برأسه واستغرق فى التفكير .. ومالبث أن رفع رأسه وقال فى هدوء :

ـــ مثل .. كل شيء فى هذه الحياة .. لا يمكن أن تحصل عليه .. إلا إذا تنازلت عن حريتك من ناحية أخرى .. فلكى تتمتع بحريتك المطلقة .. لا يمكن أن تنعم بشيء من مظاهر الحضارة من حولك .. وكل منحة يمنحها لك المجتمع لا بد أن يأخذ ثمنها من حريتك .. والمسألة لا يمكن أن تكون إلا موازنة بين ما تفقد من حرية .. وما تحصل عليه من مزايا بدل ما فقدت من حرية .. وأنت بعد كل ذلك .. حر فى أن تنطلق فى غابة لتنعم بحريتك بين وحوشها ، وبين أن تدخل فى مجتمع لتسلم إليه جزءا من حريتك .. وتلتزم بالتزاماته وتنعم بمزاياه، فإذا أحسست بأن مجتمعك قد جار على حريتك .. وسلب منها أكثر مما تحتمل وأكثر مما منحك إياه .. فليس عليك إلا أن تثور .. لتقوّض هذا المجتمع الجائر بكل ما فيه ، وتعود لبناء مجتمع آخر توازن فيه بين ما يمنحك وما تمنحه .

وابتسم « سامى » ورد عليه قائلا :

ـــ هذا هو ما أحب أن نصل إليه .. ما دمنا لا نستطيع أن نملك الحرية المطلقة فى مجتمعنا .. فعلى الأقل نكون أحرارا فيما نمنحه له من حرياتنا .

ـــ لا يمكن أن نكون إلا كذلك .. لا يمكن أن يستقر مجتمع إلا إذا حدد أفراده بأنفسهم ما يتنازلون عنه من حرياتهم .. فى سبيل ما يهيئون لأنفسهم فيه من رخاء ، وما يحصلون من مزايا .

وصمت « عبد الوهاب » برهة ثم استرسل يقول :

ـــ المسألة كما قلت لك .. موازنة .. يجب أن نوازن دائما بين ما نمنحه وما نحصل عليه ، وكما لا نستطيع أن نمنح دون أن نحصل .. لا نستطيع أن نحصل دون أن نمنح .. أنت مثلا لا بد أن تتنازل عن بعض حرياتك إذا أردت أن تواصل

السير فى الطريق الذى تسير فيه .

وأحس « سامى » أن دفة الحديث قد تحوّلت فجأة .. إلى اتجاه ينذر بالخطر .. وكان « سليم » قد أنذره بما عرفه « عبد الوهاب » ولكنه لم يتوقع أن يخوض الرجل فى المسألة بمثل هذه السرعة .. ولم يجب « سامى » وأطرق صامتا منتظرا .. كيف يمكن أن يطرق « عبد الوهاب » الموضوع .. وماذا ينوى أن يقول .

وعاد « عبد الوهاب » يقول بعد برهة صمت :

ــ لست أدرى فى الواقع كيف أبدأ الحديث فى هذا الموضوع .. بل ولا أدرى حتى إذا كان من حقى أن أطرقه أم لا .. ولكنى أحس أنى أملك فيك حقين : حق الوالد ، وحق المعلم .. وأنا أعرف سلامة تفكيرك وأعرف سعة أفقك وكنت واثقا عندما بلغتنى بعض الشائعات عن هذا الموضوع أنك لا يمكن أن تتورط فى مشكلة .. وإذا تورطت فأنت أدرى الناس بحل مشكلاتك .. ولكنى أحسست منذ بضعة أيام عندما حدثت المعركة فى الحزب .. أنك بحاجة إلى من يساعدك .. وأحسست فى نفسى أنى أولى الناس بمساعدتك .

ومرت برهة صمت أطرق خلالها « سامى » وشرد بعينيه فى جوف المدفأة .. وأخذت الصور تتوالى بسرعة على ذهنه هدى .. وفايزة .. وسليم .

وتنهد « عبد الوهاب » ثم عاد يقول :

ــ هل ضايقتك بحديثى فى الموضوع ؟

وهز « سامى » رأسه بالنفى فى شىء من الأسى وقال :

ــ حديثك لا يضايقنى أبدا .. وإنما تطور المسألة هو الذى أضحى مزعجاً .

ــ كان لا بد أن تتطور إلى شر من هذا .

ــ لماذا ؟! أنا لم أفعل شيئا أسىء به إلى أحد .

ــ مجرد العلاقة .. أسأت بها إلى نفسك .. ونفسك يمثلها كل هؤلاء الشباب الذى يؤمن بك .

ـــ ماذا يظنوننى .. نبى !!

ـــ لِمَ لا ؟!

ـــ وماذا يعاب علىّ ؟

ـــ أحقا لا تعرف ؟

ـــ هل يعيبون شكل العلاقة ؟

ـــ وموضوعها .. لا يمكن أن تقنعهم بوضعك فى هذه العلاقة .. على أية صورة من الصور .. أو بأى شكل من الأشكال .

ـــ لماذا ؟!

ـــ لأنهم لا يهضمون أن يكون نموذجهم .. شىء تربطه بالمطربة « هدى نور الدين » علاقة ما .

ـــ إنها خير من أية سيدة .

ـــ فى نظرك أنت ، وبعينك المحبة .. فإذا كنت تستطيع أن تقنع كل فرد منهم بوجهة نظرك .. وإذا كنت تستطيع أن تجعلهم جميعا ينظرون إليها بعينك المحبة .. فلن تكون هناك مشكلة .. فهل لديك الاستعداد للقيام بهذه العملية ؟

وصمت سامى .

لم يستطع أن يتصور نفسه وهو يبشر الشباب بحب هدى بدل من تبشيرهم بالقومية .. والكفاح .

وعاد « عبد الوهاب » يقول :

ـــ على أية حال .. هذا جدل لا فائدة منه .. يجب أن تعرف حقيقة بسيطة واقعة .. أنت منطلق فى سبيل يصعب عليك السير فيه بهذا الحمل الذى تحمله .. فإما أن تلقيه عن كتفك .. وإما أن تبدل سبيلك .

وتنهد « سامى » وهو يحس أن « عبد الوهاب » قد قرر له الحقيقة الواقعة التى لم يحاول هو أن يقررها لنفسه .

واسترسل « عبد الوهاب » قائلا بطريقة حازمة :

ـــ فإذا كنت تقدر قيمة العمل الذى تقوم به .. وإذا كنت تحس بحيويته.. لوطنك ، ولمن حولك .. بل ولنفسك أيضا .. فقد تحتم عليك أن تقطع كل علاقة لك بها .

ورفع « سامى » رأسه وتساءل فى صوت ملئ بالمرارة :

ـــ حتى ولو كانت هى أيضا قد باتت شيئا حيويا لى ؟!

واعتدل « عبد الوهاب » فى جلسته ، ثم مد يده فأمسك بذراع « سامى » وضغط عليه بكفه قائلا :

ـــ اسمع يا سامى .. أنت واهم .. أنت تعيش فى أوهام حب يشد أعصابك .. ويرهف أحاسيسك .. ماذا تقصد بأنها قد أضحت حيوية بالنسبة لك !! لقد فقدت ابنى منذ عامين .. وظننت أن حياتى ستذوى بعده .. ومع ذلك وجدت نفسى أعيش .. وأعمل كل ما يعمله الناس .. أنا أكثر منك تجربة فى هذه الأشياء .. ما كان عليك أن تترك أحاسيسك تجرفك إلى هذا الحد .. مثل هذه العلاقة يمكن الاستمتاع بها لفترة ما على ألا ندعها تستأثر بنا .

وهز « سامى » رأسه وقال فى أسى :

ـــ هذه ليست مجرد علاقة .

ـــ كان يجب أن تجعلها مجرد علاقة .. كان يجب أن تحسم الأمر منذ البداية .. إننا نحن الذين نصنع الحب لأنفسنا .. نحن الذين نغرسه وننميه ، ونعوّد أنفسنا عليه حتى يصبح جزءا من حياتنا ، ومن كياننا ، ونبيت ولا غنى لنا عنه .. كان يجب عليك أن تعرف منذ البداية أن لا طاقة لك بمثل هذه العلاقة ، أو الحب ، أو سمه كما تشاء .

ـــ كنت أظنه شيئا خاصا بى وحدى .

ـــ وحدك ؟! أنت لست موظفا فى دائرة .. وهى ليست مخلوقة عادية .. وكان يجب أن تعرف أن مثل هذه العلاقة بين إنسانين شهيرين لا بد أن يذاع أمرها فى يوم ما .. وأنها ستكون مغمزا لك .. وأنت فى حاجة لأن تكون

بلا مغمز ، ولا مطعن وسط المعركة التى تخوضها .. يجب أن تكون قويا حتى تواجه خصومك فى ثقة .. يجب أن تنهى كل شىء .

وصمت « عبد الوهاب » ونظر إلى « سامى » يرقبه فى شرود وإطراق .

وتحدث سامى فى صوت خافت كأنه يحدث نفسه قائلا :

ــ لست أظن إنهاء المسألة بمثل هذه السهولة التى تتحدث عنها .. لا يكفى أن تقرر فيها أمرا .. ثم تنوى تنفيذه .. حتى تنتهى منه .. سهل جدا أن نجلس أمام المدفأة فى هدوء ثم ننصح بما يجب وننهى عما لا يجب .. وقلوبنا خالية .. وأعصابنا مسترخية .. عندما أقول لك إنى أحس أنها قد باتت شيئا حيويا فى حياتى .. فأنا أعنى ما أقول .. إننى لا أبالغ إذا قلت لك إنى أشعر أحيانا أنها أكثر حيوية من أى شىء آخر .

ــ حتى عملك وكفاحك ورسالتك.؟

ــ أحيانا .. أجل .

ــ إلى هذا الحد ؟

ــ لِمَ لا !؟ ألم تقل أنت نفسك أن علينا دائما أن نوازن بين ما نمنحه لمجتمعنا من حرياتنا .. وبين ما نجنيه لقاء هذه الحريات .. إنى أحس أحيانا أنه ليس هناك ما يعادل حرية مشاعرى .. حريتى فى أن أحب كما أشاء وأحيا مع من أشاء .. ليس ما يعادل هذه الحرية .. حتى انتصاراتنا التى نحققها بكفاحنا .. حتى كل هذه الأشياء الباهرة التى نضحى بكل شىء من أجلها .

ــ هذه فترات ضعف من الخطأ أن نجعلها تسيطر على تصرفاتنا وتحوّلنا عن طريق الصواب .

ــ طريق الصواب ؟.. كيف يحدد طريق الصواب ؟ تحدده هراسات عمياء صارمة تدوس كل مشاعرنا .. وتحطم كل ميولنا .. فنضطر إلى اتباع طرق جانبية تلائم طبائعنا .. طرق الصواب المستقيمة فى مجتمعنا وضعت لمناقضة تكويننا غير المستقيم .. طرق مستقيمة استقامة غير طَبيعية .. لا يمكن أن تلائم

بشرا طبيعتهم عدم الاستقامة .. والنتيجة مجتمع حاشد بالدروب الملتوية الزاخرة والطرق المستقيمة الخاوية .. أترى الطرق حقا قد وضعت للبشر الكائنين .. أم لبشر موهومين ؟ إن لنا سمات وطباعا وخلقا .. ما أظن الذى شق طريق الصواب قد افترض وجودها قط .

وصمت « سامى » وعاد إلى إطراقه وشروده .

وأحس عبد الوهاب بكل ما يصطخب فى باطنه من مشاعر .. ولم يجد هناك جدوى من الاستمرار فى الحديث .. فهز رأسه ببطء قائلا :

ـــ إنى أفهم مشاعرك جيدا .. لا تظن أنى أحكم عليك كما قلت ، وأنا جالس أمام المدفأة مسترخى الأعصاب خالى القلب .. أنا أحبك .. وأعرف قدرك .. ومن أجل هذا قلت لك ما قلت .. إنى أشعر أنها أزمة لا بد أن تمر .. وأدعو الله أن يمنحك القوة والجلد على تخطيها .. إنى رغم كل ما قلت لى .. أثق فيك ، وفى إرادتك ، وفى حسن فهمك ، وفى قدرتك على اجتياز المحنة .

وصمت « عبد الوهاب » .. وساد السكون الغرفة .. فلم تعد تسمع إلا « طرقعات » الحطب داخل المدفأة .

ووقف « سامى » ومد يده مودعا فى صمت .. ونهض « عبد الوهاب » لمصافحته قائلا :

ـــ لدينا أعمال كثيرة .. لدينا اجتماع المقاومة الشعبية .. واجتماع فى مجلس النواب .

وأجاب « سامى » قائلا :

ـــ سأعود الآن لمكتبى .. لأعد لكل ذلك .

وغادر الحجرة وكأنه يحمل على كتفيه عبئا يثقل كاهله وينقض ظهره .

٤٧

مزيد من اليأس

عاد « سامى » إلى مكتبه منهكا مكدودا وكانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف ؛ ولم يكد يدخل مكتب « فايزة » حتى وجد ثلة من الشباب فى انتظاره .. ولم يحس سامى قدرة على الترحيب بهم والحديث معهم .. فقد كان فى أشد الحاجة إلى أن يخلو لنفسه .. فى حاجة إلى أن يجلس ويفكر وحده .. كان يملؤه إحساس بالحيرة والضياع .. كان يحس أن ثمة شيئا لا بد أن يفعل .. ولكنه لم يكن يعرف ما هو هذا الشيء ..

ووسط كل هذه المشاعر المتصارعة فى ذهنه .. لم يستطع أن يمنع حنينا جارفا يشده بعيدا إلى مكان وراء الشرفة الزجاجية المطلة على النهر المواجهة لأضواء الجبل .

ولم يملك إلا أن يرسم ابتسامة عريضة على شفتيه ويحيى الشبان مرحبا فى حرارة ثم يطلب منهم التفضل داخل مكتبه .

وسأل « سامى » فايزة وهو يتجه إلى مكتبه :

ـــ ألم يسأل عنى أحد ؟

ـــ سأل عنك إبراهيم زكى وحسين طلعت .

وأخذت « فايزة » تسرد بضعة أسماء لم يجد « سامى » فيها ما يدفعه إلى الاهتمام .. واسترسلت « فايزة » تقول :

وقد ترك الأستاذ سليم المكتب بعد أن اطلع على تجارب المقالات واعتمدها .. وقال لى أن أخبرك أن لديه موعدا هاما فى العاشرة .

واستقر سامى على مكتبه وجلس الشَباب على بقية المقاعد المرصوصة فى

الحجرة ، ودار الحديث حول اجتماع القاهرة وتهديد الأتراك وموقف الأمريكان والقرض الروسى .. وأشياء كثيرة .. أحس « سامى » أنه ينطقها بلا وعى .. وأذنه معلقة بجرس التليفون .

ودق الجرس .. فأصابته رجفة ، ومد يده فرفع السماعة .. فلم يسمع غير صوت سليم يسأله :

ـــ هل عدت ؟

ـــ أجل .

ـــ ماذا حدث عند عبد الوهاب بك ؟

ـــ تحدث فى الموقف السياسى وفى اجتماع القاهرة .

ـــ فقط ؟

ـــ وتحدثنا عن الشيوعية .. وعن ..

ـــ هل حدثك فى الموضوع إياه ؟

وأحس « سامى » بشىء من الارتباك .. وخيّل إليه أن الشباب يسمعون حديث سليم وأنهم يعرفون كل شىء عن الموضوع إياه .. وأنه يجلس أمامهم عاريا .

ولم يملك إلا أن يجيب سليم بسرعة :

ـــ أجل .. تحدثنا فى كل شىء .

ـــ وماذا قال لك ؟

ـــ سأحدثك فيما بعد .

ـــ أرجو ألا يكون قد حدث ما يضايقك ؟

ـــ ليس أكثر مما هو مفروض .

ـــ هل تريد أن آتى إليك ؟

ـــ لا .. لا ..

ـــ لماذا لا تعود إلى البيت وتستريح ؟

— إن لدّى بعض شباب الحزب .
— اصرفهم وعد إلى البيت .. إنك فى حاجة إلى الراحة .
— سأعود بعد أن أنهى أعمالى .
— أمرك .. ألا تريد أية مساعدة ؟
— متشكر .
وتردد « سامى » برهة ثم سأل :
— هل سأل عنى أحد فى التليفون ؟
وأحس سليم بما يعنيه من سؤاله .. وبدا له كأنه فى أزمة ، وأنه ينتظر تليفونا من « هدى » .. وأن كل خروجه وبقائه حتى الآن لم يكن إلا انتظارا له .. فعاد يقول :
— لماذا لا تعود إلى البيت وتستريح بدل هذا الانتظار المضنى ؟
وأحس « سامى » بضيق من قول « سليم » وعاد يتساءل فى حدة :
— قلت لك .. هل سأل عنى أحد ؟
— لا .
— انتهينا .. تصبح على خير .
— وأنت من أهله .. سأراك صباحا ؟
— إن شاء الله .
وأغلق « سامى » التليفون واستدار إلى الشباب وأخذ فى الحديث إليهم والاستماع إلى مناقشتهم .
وكان يحس بقلق خلال المناقشة .. كان يتوهم فى نظراتهم اتهاما بذلك الشىء الذى دارت من أجله المعركة بينهم فى قاعة الحزب .. كان يخشى أن يتساءل أحدهم فى أية لحظة عن حقيقة المسألة .. كان يحس أنه يجلس وبه ذلك المغمز الذى حدثه عبد الوهاب بك عنه .
وكان يتوق إلى أن يدق جرس التليفون ويسمع صوت « هدى » .. ولكنه

كره أن يدق وهم يجلسون أمامه .. وكأنهم سيسمعون صوتها أو يرقبون آثار الحديث على وجهه .

وطالت المناقشة وبدا فى طريقة حديث بعضهم نوع من الخصومة والتحدى .. وأحس بأن توتر أعصابه قد بلغ أشده .. ولم يملك إلا أن ينهى المناقشة محاولا جهده أن يبدو هادئا .. ونهض الشباب يودعونه وقد بدا عليهم أنهم ينوون الاستمرار فى المناقشة بعد مغادرته مكتبه .

وأحس « سامى » بأنه كان يمكن أن يكون أقوى مما كان لولا هذا الإحساس الذى يكمن فى باطنه بأنه مخطئ .. وبأن هؤلاء الصغار يعرفون أنه مخطئ .

وعاد يذكر حديث عبد الوهاب ، بأنه يجب أن يكون بلا مغمز ولا مطعن .. يجب أن يكون قويا واثقا .. حتى يستطيع أن يواجه كل خصومه .

ونهض من مكتبه .. وملء نفسه اليأس .. وهو يحس أن العبء يزداد على كتفيه .. ويتمنى لو استطاع أن يحطم قيد الحب عن يديه وينطلق من أسره حرّا قويا .. بلا مغمز ولا مطعن .

ومع ذلك فقد كان حنينه أقوى من يأسه .. فمد يده إلى التليفون وأدار القرص .

وعلا صوت « أم حبيب » خافتا متحشرجا يملأه بمزيد من حزن ويأس ، قائلا :

ـــ آلو .

ـــ أنا « سامى » يا « أم حبيب » .

ـــ السيدة لم تأت بعد يا سيدى .

ـــ ألم تتحدث فى التليفون ؟

ـــ لا .

ـــ متشكر .. تصبحى على خير .

ـــ تصبح على خير .

ووضع السماعة فى يأس .. ونظر إلى الساعة فى يده .. فإذا بها قد أوشكت على الثانية عشرة .. منتصف الليل .. ولم تعد .. ولا تحدثت فى التليفون !؟

وعاد الشك ينخر فى نفسه ، ليضيف مزيدا من اليأس والحزن والمرارة والأسى .

وبعد ؟!!

ما آخرة كل هذا ؟!

لماذا لا يحطم القيد ويستريح ؟!

لماذا لا يخلص من كل هذا ؟

لماذا لا يستعيد حريته .. وسلامته .. وقوته .. وثقته بنفسه .. وثقة الناس به ؟!

لماذا لا يحررها من عبودية الحب !؟ لماذا لا يكون حاسما فى أمره ؟

ونهض عن مكتبه .. وتناول معطفه .. وهمّ بمغادرة المكتب ، وقد أحس كأن النهاية المحتومة تقترب .

وفجأة دق الجرس .

وتوقف مكانه .

وعاد الجرس يدق .. وسار إلى التليفون .. ورفع السماعة .. فتسلل إلى أذنه .. أرق الأصوات وأجملها هاتفا :

ـــ آلو .

وأحس « سامى » كأن كتل الحزن والأسى والمرارة الراسخة على صدره .. قد ذابت .. وبرغمه ملأ نفسه شعور بالراحة وأجاب هامسا :

ـــ هدى ؟!

وهتف به الصوت الذائب :

ـــ سامى !؟

وصمتت لحظة كأنها تحاول التقاط أنفاسها وعادت تسأل :

ــ متى عدت ؟

ــ قبل المغرب .

ــ وإلى الآن لم أرك ؟

ــ ظللت أدق لك التليفون منذ السادسة حتى الآن .. و« أم حبيب » تخبرنى أنك لم تعودى .

ــ متأسفة جدا .. لو علمت أنك آت لما غادرت البيت .

ــ أين كنت طيلة اليوم ؟

ــ أتنوى أن تضيع الوقت فى الحديث فى التليفون !!

ــ لو خطر ببالك أن تتحدثى .

ــ اسمع .. ضع السماعة حالا وتعال .. إنى أكاد أموت شوقا إليك .

ووضع « سامى » السماعة .. وانطلق إليها .

٤٨

عبء على كتفيه

بدت المدينة مقفرة فى منتصف ليل قارص البرد صافر الريح .. لا ترى فى طرقاتها الخالية سوى عربة مارقة .. أو بائع يقف بعربته على ناصية الطريق يتصيد بقايا زبائن الليل .. وقد لف وجهه « بالكوفية » حتى لم يعد يبين منه سوى حدقتى عينيه وطاقتى أنفه .

والدور قد أطبق عليها الصمت وسادها السكون ، إلا من هبات ريح تلطم نوافذها وتعصف بالأشجار الجرداء من حولها ، والظلام قد خيم إلا من مصابيح تبدو كأنها تتثاءب ، ولافتات الإعلانات فى أعلى الدور تنطفئ وتضيء فى رتابة كأنها هزة عصبية لإنسان ضاق بالملل .

و« سامى » ينطلق بعربته وسط الطريق متجها من مبنى الجريدة إلى بيت « هدى » .. وقد شرد ذهنه وبلغ به التعب أشده .

لم يستطع أن يصدق .. عندما ارتد به الذهن إلى بداية اليوم .. أن كل هذا حدث فى يوم واحد .

لقد بدا أول اليوم بعيدا .. بعيدا ..

بدأ اليوم فى القاهرة .. باستيقاظه المبكر وترتيبه « الحقائب » وذهابه فى عجلة إلى شوارع وسط القاهرة لابتياع ما تبقى من هدايا .. ثم عودته إلى الفندق ، والتقائه ببعض الصحفيين ، ثم خروجه للقاء رئيس مجلس الأمة المصرى ، ثم تناوله الغداء فى سفارة ألمانيا الديمقراطية .. وعودته بسرعة إلى الفندق وانطلاقه إلى المطار .

ولم تذهب رحلة الطائرة سدى .. لقد جلسَ يكمل التقرير الذى بدأه فى

القاهرة .. وقطع عليه الكتابة راكب عراقى حضر المؤتمر وأخذ يناقشه فى قراراته .

وأخيرا وصل إلى دمشق .. وقد بدا له أنه قد أنهى يومه الحافل المرهق .. وأنه أوشك أن يستقر فى أمتع ملجأ وأهدأ مستقر .. بعد طول بعد وغيبة وشوق ولهفة .

ولكنه لم يكد يهبط إلى المطار .. حتى جرفته موجة من الوساوس والمتاعب والأزمات .. ظلت تتقاذفه حتى أحس بأنه يعيش يوما بلا نهاية .. وأن القدر قد أبى عليه نعمة الاستقرار .

بل أكثر من هذا .. فقد أحس لأول مرة فى حياته ، أن مقره الآمن قد بات فى مهب الريح .. تتقاذفه الأمواج .. وتعصف به الأنواء .. وأن الأرض قد مادت به .. حتى كاد يفقد إحساسه به كمستقر يمنحه الراحة والأمان فى حياته المرهقة .

ومر بذهنه شريط سريع لدوامة المتاعب .. بدأ بافتقاده « هدى » وبحديث أخيه عن شائعات علاقته بها بين الطلاب ، ثم بإنذار « سليم » له بما حدث فى قاعة الحزب بين الشباب .. ثم الحديث الذى دار بينه وبين « عبد الوهاب بك » والذى أنهاه بتحذيره من علاقته بهدى .. وأخيرا هذه المناقشة المريرة بينه وبين الشباب .

ووصل إلى بيت « هدى » ، فأوقف العربة فى الطريق الجانبى ، ثم اتجه إلى باب البيت وقد ضم المعطف على جسده ، وأحكم « الكوفية » حول عنقه .. ليتقى بها هبة ريح باردة .. هبت على بردى واندفعت تصفر فى الطريق الجانبى الضيق .

وصعد السلم .. متثاقل الخطى .. وقد غلب الإجهاد ذهنه وجسده .. وأثقلت الوساوس والتحذيرات ، والمشكلات المعقدة من حوله .. خفة الشوق وقيدت اندفاع اللهفة .

ووقف أمام الباب وتردد بين ضغط الجرس وفتح الباب بمفتاحه .

وأحست « هدى » بخطواته أمام الباب ، فاندفعت من الأريكة .. وكانت أسبق منه إلى فتحه .

ولم يكد يخطو إلى القاعة حتى اندفعت إليه واستقرت فى أحضانه مرتجفة كالعصفور بلله القطر .

ومضت برهة وهى مستقرة فى أحضانه .. وقد تشبثت به فى خوف ولهفة .. وأخذت أنفاسها تتلاحق فى صدره .. وقد نسيت كل ما حولها .. حتى الباب المفتوح لم تلتفت إلى غلقه .

وأخيرا رفعت رأسها .. ثم همست قائلة :

ــ حرام عليك .. كل هذه الغيبة .

ومدت يدها فأغلقت الباب ، وأجابها « سامى » هامسا وهو يضمها إليه ويمس شفتيها وأنفها وعينيها بشفتيه .

ــ لا يمكن أن تتصوّرى فرط حاجتى إليك .. أريد أن أرقد بجوارك وأنسى كل شىء .

ــ تعال .. تعال يا حبيبى .. إنك تبدو مرهقا .

ــ لا تكاد قدماى تحملاننى .

ــ لماذا تجهد نفسك هكذا ؟!

ــ لكى أراك .. كان مفروضا أن أرقد فى فراشى منذ بضع ساعات بعد هذا اليوم الشاق والرحلة المنهكة .

ــ أنا متأسفة .. لو علمت لما تركت البيت لحظة .

وتوقفت أمام باب حجرة الجلوس متسائلة :

ــ أتحب أن تجلس هنا أم فى حجرة النوم ؟

ــ بى شوق شديد إلى مقعدنا ، والشجرة وراء النافذة ، وأضواء الجبل وراء الشجرة .. وأنوار المصابيح فى مجرى بردى .

ـــ أنا أيضا بى لهفة إلى لوحتنا الحبيبة .. بى لهفة إلى أن أعيدها واقعا .. بعد أن خشيت من طول الحرمان أن تكون قد أضحت ذكرى . .

واستقر « سامى » على المقعد الكبير .. وجلست « هدى » على جانب المقعد ، ومدت يدها تتحس جبينه وأنفه وشفتيه فى حنان زائد .. ثم انحنت على وجهه تمس شفتيه فى رفق .

وجذبها « سامى » إلى حجره ، فاستقرت فى جلستها المعتادة منكمشة فى أحضانه .

وأحاطها « سامى » بذراعيه .. وأطلق بصره من وراء النافذة إلى الأغصان المهتزة والأضواء المرتجفة .. ومد ساقيه وتنهد وحاول أن يريح جسده المشدود ويرخى أعصابه المتوترة .

ولم يكن الاسترخاء فى جلسته تلك بالأمر العسير .. كان يكفى أن يستقر على المقعد المريح ويمد ساقيه ويريح أعصابه .. ويجذب « هدى » إلى حجره .. ويضمها بين أحضانه ويسرح بعينيه فى المنظر الحبيب .. حتى يحس بأعصابه هدأت وجسده قد استرخى .

ولكنه أحس وهو يجلس جلسته ساعتذاك ، أن شيئا أقوى من إرادته يوتر أعصابه .. وبدا له كأن فرط التعب قد أصابه بحالة تصلب فى جسده وفى ذهنه وفى نفسه .

ولم يكن هناك أقدر من « هدى » على الإحساس بما به .. بما فى أقصى أعماقه .. من مجرد مسحة همّ على وجهه .. أو لمحة شرود فى عينيه .

ومضت فترة وهى منكمشة بين ذراعيه .. تحس بشدة أعصابه وتوتر ذهنه .. وكانت تعرف حالته تلك عندما يصاب بفرط الإجهاد .. وكانت تضمه إليها ، وتريحه فى أحضانها ، حتى يروح فى النوم .. يسند رأسه على ذراعيها .. كالطفل .. وتظل الساعات ترقبه فى إغفاءته حتى تشعر بتنميل ذراعها دون أن تجسر على سحبه من تحت رأسه .. خشية أن توقظه .

وكانت تحس بأشياء كثيرة تود أن تفعلها وتقولها بعد تلك الغيبة الطويلة .. ولكن إحساسها بحاجته إلى الراحة كان أقوى من لهفتها عليه وشوقها إليه .. فرفعت إليه وجهها وأخذت تتأمل عينيه الشاردتين فى زجاج النافذة .. وهمست متسائلة :

ــ ماذا بك ؟

ــ مجهد .

ــ فقط !

وهز « سامى » رأسه قائلا :

ــ وضيق الصدر .

ــ ممّ ؟

ــ من اليوم المرهق الذى مرّ بى .. لقد بدا لى يومى بلا نهاية ، ولم يخطر ببالى أنى سأستقر فى آخره بجوارك أبدا .

وتساءلت « هدى » فى دهشة :

ــ لماذا ؟

ــ لأنى .. لأنى ....

وتردد « سامى » برهة .. لم يعرف .. هل يصرح لها بكل ما حدث ؟!

هل يخبرها بكل ما وجه إليه من تحذيرات ؟

هل ينطق بكل ما لاقاه من نذر تزلزل حبهما ؟!

وعادت « هدى » متسائلة فى خوف :

ــ لأنك ماذا ؟

ــ لأنى لم أجدك .

ــ فقط ؟!

ــ أجل .

ومدت « هدى » ذراعيها تضمه إليها فى لهفة .. وعادت تمسح رأسها فى

صدره كالقطة .. ثم تساءلت :

ـــ أتحب أن تسترخى فى الفراش ؟

ـــ كما تشائين ؟

ونهضت « هدى » من فوق ساقيه .

وسارا إلى حجرة النوم ..

وبعد لحظات ضمهما الفراش الدافئ الوثير .

ومرة أخرى حاول « سامى » أن يسترخى .. أن يريح ذهنه ويرخى أعصابه .. ولكنه أحس أن حالة التصلب الباطنى .. والتوتر النفسى .. كانت أقوى من أن يرخيها .. بمجرد استلقاء على الفراش .

وأحست « هدى » بعجزه عن الاسترخاء .. فأخذت تتحسس رأسه وجفنيه فى رفق ، وهمست وهى تتحسس شفتيه :

ـــ أغمض عينيك يا حبيبى .. ونم .

وأغمض « سامى » عينيه وتنهد ، ولكنه لم ينم .

وعادت « هدى » تهمس به :

ـــ لا تفكر فى شىء .. انس كل ما مرّ بك .

وأجابها وهو يهز رأسه ببطء ، وقد فتح عينيه :

ـــ لا أستطيع .

ـــ لماذا ؟! ضع رأسك فى صدرى ، وأغمض عينيك .

ـــ إنى أحس كأن مصباحا قويا يشع داخل رأسى . ويشد أعصابى ويمنعنى من الاسترخاء أو النوم .

وأحست « هدى » بأن ما به شىء أكثر من مجرد إجهاد ، إنها تعرف إجهاده ، تعرف كيف يستطيع هو نفسه أن يتخلص منه بمجرد الاسترخاء ربع ساعة بين أحضانها .. تعرف كيف أضاعته هى منه فى دقائق بعد كأس من الويسكى .. رغم أنه أنكر أى تأثير للخمر عليه .

وسحبت جسدها من أسفل الغطاء ، ومدت يدها فأضاءت « الأباجورة وأمسكت بكفه تتحسسها فى رفق ، وهتفت به :

— سامى .. قل ماذا بك ؟

وهز « سامى » رأسه قائلا :

— لا شىء .. أطفئى النور .. سأحاول أن أغمض عينى وأستريح .

— لا أظنك ستستطيع النوم .. دعنا نتحدث .. قل لى ماذا بك ؟

— قلت لك لا شىء .

— منذ متى تخفى عنى متاعبك ؟

— ليس هناك ما يستدعى الإخفاء .

— أتحب أن أكتم عنك متاعبى .. أتذكر إلحاحك علىّ بأن أذكر لك ما بى حتى تساعدنى على إزالته ؟

— لا أظن هناك شيئا يمكنك فعله .

— ولكنك قلت لى إن مجرد الإفضاء كاف لإراحتنا .

ومد « سامى » يده ليطفىء النور ويجذب « هدى » بجواره قائلا :

— نامى .. نامى .. سينتهى كل شىء بمجرد أن أستريح .

— لن أنام حتى أعرف .. هل ضايقك غيابى عن البيت ؟! إنى على استعداد لأن أذكر لك كل ما فعلت منذ أن خرجت حتى عدت .

وهز « سامى » رأسه وعادت « هدى » تتساءل وهى تحاول أن تتضاحك :

— هل عاودتك وساوسك الحمقاء ؟! قل يا حبيبى .. قل .. هات كل سخافاتك ، فلن أغضب منك أبدا .

وعاد « سامى » يهز رأسه بالنفى ، وقالت « هدى » وقد تملكها الأسى :

— إذن ماذا بك ؟! لماذا لا تصارحنى ؟

ورد سامى متسائلا :

— أصارحك بماذا ؟

— بكل شيء .

وتنهد « سامى » وأجاب :

— كل شيء يبعث على اليأس .. والمرارة .

— كيف ؟!

— أحس أن المطارق تتهاوى على حبنا من كل جانب .

وأحست « هدى » بيد تعتصر شيئا فى باطنها .. وتساءلت فى صوت خافت :

— هل قال لك أحد شيئا ؟

— بل أسألينى .. ألقيت أحدا .. لم يقل لك شيئا ؟

— إلى هذا الحد ؟

— وأكثر .

— ماذا قالوا لك ؟

— قال لى أخى .. إنه لا يريد أن يذهب إلى كليته .

— لماذا ؟

— لأنه لا يستطيع أن يواجه الطلبة وهم يشيعون عنى الإشاعات ، ويطلق البعض منهم علىّ اسم « سامى نور الدين » .

وتنهدت «هدى» وهى تحس كأن سكينا تحز فى الوثاق الذى يربطهما معا .. وعادت تهمس متسائلة :

— وماذا أيضا ؟

— لم أكد ألقى سليم حتى حدثنى عن المعركة التى نشبت فى قاعة الحزب بين الشباب من أجل علاقتنا .

— علاقتنا نحن !! داخل الحزب !؟

— أجل .

— أمعقول هذا ؟! ألا يحتمل أن يكون سليم ...

وقاطعها سامى بهزة يائسة من رأسه واسترسل يقول :

ـــ لم يكن سليم وحده هو الذى قال لى .

ـــ من أيضا ؟! لعلها فايزة ؟!

ـــ بل عبد الوهاب بك .. رئيس الحزب .

ـــ ماذا قال لك ؟

ـــ أبدى لى رأيه صراحة .. قال لى إنى لا أستطيع السير فى طريقى بالعبء الذى أحمله على كتفى .

٤٩

قـرار

أحست « هدى » بموجة من الأسى واليأس تغمرها .. وهى تجد أن أعز ما تملك قد أحاطت به الأيدى وضيقت عليه الخناق .. تحاول سلبه منها .. ولم تعرف كيف تقاوم .. ولا ما هى نتيجة مقاومتها .

وهمست قائلة فى يأس وكأنها تحدث نفسها :

ـــ هذه الدنيا العجيبة ! هل أصبح لأعز الناس عندى عبئا على كتفيه ؟!

وتذكرت ما قاله لها « سليم » و« فايزة » ، و« أم حبيب » .

وتذكرت نواياها من أجل الخلاص .. النوايا التى أطارها مجرد لقائه .. وإحساسها به بين ذراعيها .. وأنفاسه الدافئة تلفح وجهها .

وأحست بأن عليها أن تنحنى لتحمل عبء الخلاص .. وتسير به فى طريق الفرقة الشائك الدامى .

أجل .. إذا كانت تنوى أن تفعل شيئا من أجل خلاصه .. فهذا هو وقته .. وعليها أن تحزم أمرها .. وتقدم عليه .

وساد الصمت برهة .

وأحس « سامى » أن حديثه قد آلمها .. وتمنى لو لم يقله .. لا سيما ، وهو يعرف .. أنه لن يلقى عبئها أبدا من على كتفيه .. وأنه لا يستطيع أبدا أن يقدم على فرقتها .

وتنهد وهمّ بأن يقول شيئا .. يريحها به .. عندما سمعها تهمس قائلة :

ـــ أنا أيضا أحس أننا يجب أن نفكر فى أمرنا ونحكم عقلينا .

وأحس « سامى » فى لهجتها شيئا جديدا .. شيئا كوخز الإبر .. فسألها

قائلا :

ـــ ماذا تقصدين ؟

ـــ أقصد أنه من غير المعقول أن تستمر علاقتنا على ما هى عليه الآن .

ولم يعرف « سامى » ماذا تهدف « هدى » بقولها هذا .. ولكنه أحس كأن دقات ناقوس .. تصل إليه من بعيد .. وعاد يسألها فى لهجة يأس :

ـــ وماذا تقترحين ؟

وازدردت « هدى » ريقها وأحست كأنها حامل أثقال يجمع كل قواه ليرفع الحمل مرة واحدة .. ولمت شجاعتها وضغطت على أعصابها ، وشدت الزناد وأطلقت طلقتها .. قائلة فى لهجة منحتها ما استطاعت من هدوء :

ـــ هناك إنسان تقدم للزواج منى .

وصمتت برهة لتتمالك أنفاسها ، ثم عادت تطلق الطلقة الثانية قائلة :

ـــ وأعتقد أنه إنسان ملائم لى .

واستقرت الطلقتان فى جوف « سامى » .. ولكنه لم يبد هزة ولا رجفة .. ولا رمش له جفن ولا انتفضت له جارحة .. وأجاب فى هدوء كأنه يقرر أمرا لا يعنيه :

ـــ ولِمَ لا !؟ ما دام ملائما لك .. إنى لم أحاول قط أن أمنعك من الزواج .

وساد الصمت .

صمت عجيب .

صمت أشد صخبا من كل ما فى الدنيا من ضجيج .

وطوى صمتها البادى .. صراخا فى باطنها .. وعويلا كأنه عويل المآتم فى أقاصى الصعيد .

أبهذه السهولة يأخذ قولها ؟

أبتلك البساطة يقذف بها من على كتفيه .. وكأنها قطعة حلى يسلمها الصائغ لأول شار !

أهذه حقا قيمتها عنده ؟!

وفى صدره كانت ثورة أعنف .. وضجيج أشد .

أهكذا فجأة قررت الخلاص !

أكان ردها عليه جاهزا معدا !

أتراها كانت تنوى .. بينها وبين نفسها .. أن تواجهه به حتى ولو لم يقل ما قال ؟!

ولكن ما قاله كان عن أزمة طارئة .. فلماذا تواجهه بمثل هذا الحل القاطع البتار ؟

ولكن من هو هذا الطارق المفاجئ .. الذى طرق بابها وأحست هى أنه ملائم لها !

من ؟! لماذا لم تقل اسمه ؟!

لقد تعودت دائما أن تخبره مازحة بأسماء الذين يطلبون القرب منها .. سواء بالزواج .. أو بالعشق أو بمختلف الوسائل والطرق .

فلماذا لا تنطق اسم هذا الطارق الجاد ؟

ونظر إليها فى صمت .. وانتظر أن تنطق به .. ولكنها لم تفه بكلمة .

وأحس بقلق .. وخوف .. من اسم الطارق الجديد .. كيف تقدم إليها ، وكيف عرفته !؟ ما نوعه !؟ ما شكله !؟ ما سنه !؟ ما عمله ؟

ومع كل ما به من لهفة على معرفة حقيقته .. لم يحاول أن يسأل .

إحساس بالكرامة .. دفعه أن يتمسك بمظاهر الجلد والصبر والتسليم بالواقع .

واستمرت هى فى صمتها الظاهر تحاول أن تكبت كل ما فى باطنها من انفعالات .. حتى نفد صبره هو ، فسأل فى لهجته الهادئة المقتضبة :

— من هو ؟

وتريثت برهة .. كانت تكره أن تسبب له أى ألم :

وعاد يسأل :

ـــ لماذا لا تخبريننى من هو ؟

وصمتت برهة ثم أطلقت طلقتها الثالثة :

ـــ إنه شكرى رئيس الأوركسترا .

وأصابته الطلقة فى الصميم .

أهذا هو الإنسان الملائم لها ؟

كان يظنها تعرف الملائم من غير الملائم .

كان يظن الطارق رجلا كبيرا .. محترما .. ذا مال .. يستطيع أن يوفر لها حياة رخاء وطمأنينة .. ويجعلها تنعم بأسرة طيبة وبيت هادئ مريح .

أما هذا الرجل .. وما يعرفه عنه وعن وسطه وبيئته .. فعاشق ملائم .. وليس زوجا ملائما .

وهى فى حاجة إلى زوج .. لا عاشق .. لشد ما أخطأت الاختيار .

ونظرت هى إليه .. والصراخ ما زال يدوى فى باطنها ، والعويل يمزق أحشاءها .. كانت تتلهف على ضمة منه .. كانت تتلهف على كلمة حنان .. يسكت بها ذلك النحيب فى باطنها .

ولكنه لم يقل شيئا .

كان يحس بشىء يدمى فى باطنه هو الآخر .

وكان يتمنى لو استطاع أن يهرب من كل شىء .. وأن يجرى .. ويجرى .. بلا توقف .

وهمس بها كأنه يحدث نفسه :

ـــ أهذا هو الإنسان الملائم ؟

وأجابته فى مرارة :

ـــ أيتحتم عليه أن يكون عجوزا .. حتى يلائمنى .

وهز « سامى » رأسه وأجاب :

— أنت أدرى بما يلائمك .. كنت فقط أظنك أعقل من هذا .

وأحست « هدى » كأن كل شيء قد انتهى .

انتهى ببساطة غير معقولة .. كأنه خطف البصر أو لمح البرق .. ووجدت نفسها تقف فجأة وحدها .. وسط الأعاصير والعواصف والأنواء .

وكأنها اكتشفت فجأة ما فعلته بنفسها .. ولم تستطع أن تكتم العويل فى باطنها فانفجرت باكية .

وصمت هو .

كان أقدر منها على أن يكتم جرحه الدامى .

واستمر جالسا بجوارها على الفراش يرمق فراغ الحجرة .. بعينين جامدتين كالمأخوذ ، وجسدها يهتز بجواره من فرط البكاء .

وازداد إحساسها بالضياع وهى تجد نفسها مغرقة فى البكاء دون أن يأخذها بين ذراعيه أو يضمها إليه .. وهو الذى لم يكن يحتمل دمعها أو يطيق حزنها .

وتملكها إحساس الغريق .. وأخذت المرئيات تبهت أمام عينيها ، والجدران تتأرجح .. وتمنت لو قال لها شيئا ، أو مد لها يدا .

وهتفت به وحدة بكائها تخف ، وهى توشك أن تروح فى غيبوبة :

— ضمنى إليك .

وأغمضت عينيها .. لتختفى تلك المرئيات .. التى تتواتر أمامها .. وتبعد عن نفسها ما توشك أن تقع فيه .

وأحس « سامى » بما أصابها فانحنى عليها برفق ، وأخذ يضمها إلى صدره ويقبل وجهها المغرق بالدموع ، ويهمس بها فى جزع ولهفة :

— هدى .. ماذا بك ؟! هدى .. حبيبتى !!

وهمست « هدى » وهى تنظر إليه فى ضعف وكأنها تصعد من قاع بعيد الأعماق :

— سامى .. لماذا تتركنى هكذا ؟! كيف تحتمل أن تتركنى وأنا أبكى !؟

وأجابها « سامى » وهو يرقدها على الوسادة :

ـــ آسف يا حبيبتى .. ولكن يجب أن نحتمل من الآن أشياء كثيرة .. لم نكن نحتملها

وتنهدت « هدى » .. وهمست وقد خنقها البكاء :

ـــ أجل .. أشياء كثيرة يجب أن نحتملها .

ثم همست وهى ترفع إليه ذراعيها :

ـــ ضمنى إليك ثانية .. علنى أقوى على الاحتمال .

وضمها « سامى » إليه .. ثم سحب نفسه من بين ذراعيها .. وترك الفراش فى صمت .. ووقف يرقب جسدها وقد غمره إحساس موحش مرير .. إحساس الثاكل يلقى نظرة أخيرة على أحب الناس إليه ليتركه إلى غير رجعة .

وأحست هى أنه يوشك على الخروج وتحاملت على نفسها .. وجلست فى الفراش وهمست به :

ـــ هل قررت الذهاب ؟!

ـــ أجل .

ـــ ومتى ستعود ؟!

وسادت فترة صمت .. قطعها « سامى » بقوله :

ـــ أفضل ألا أعود .

وأحست « هدى » كأن يدا تطبق على عنقها لتكتم أنفاسها ، وتساءلت وهى ترفع إليه عينين ينهمر منهما الدمع :

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنى أحب أن أترك لك الفرصة لتنفيذ القرار الذى اتخذته .

ـــ ولكن .. أن أفقدك هكذا مرة واحدة .. غير معقول .

ـــ بل غير المعقول .. أن تتخذى قرارا كهذا .. ونحن ما زلنا نلتقى .. وغير معقول أن آتى إليك .. وإنسان آخر قد دخل فى حياتك .

وصمتت هدى .

كان سامى على حق .

إذا كانت قد نوت أن تتخذ قرارا كهذا فيجب أن تكون حاسمة فيه .

وغير معقول أن تكون جاسمة إذا كانت ستظل تراه كما كانت تراه .

ولكن .. أن ينتهى كل شيء الآن !

فى هذه اللحظة !. هكذا فجأة !. شيء مخيف .. مروع أن يتركها .. وهى تحس أنها تراه لآخر مرة وأن رحيله إلى غير عودة .

وأن كل هذه الأشياء التى تحيط بها والتى تحس أنها جزء لا يتجزأ منهما معا .. والتى تذكرها دائما .. بأنه سيعود ليجلس وإياها على هذا المقعد .. أو تلك الأريكة .. أو يسترخى وإياها فى هذه الشرفة ويرقب هذه الشجرة الوارفة ، وتلك الأضواء المتلألئة .. كل هذه الأشياء التى لم تعد لها قيمة فى حياتها إلا أن تذكرها به .

قد باتت أشياء مفزعة .. تشعرها دائما .. بأنه كان هنا ، ولن يكون ، وبأن كل ما فعلته معه .. لم يعد بوسعها أن تفعله .

كل هذه الأشياء ستكون فى نظرها ، مبعثا لليأس والكآبة والوحشة المروعة .

ولم يكن هو أقل منها ارتياعا .. فى باطنه .. ولكنه كان يحس أن جدارا قد قام بينهما .. وأن من العبث زحزحته .

وأن عليه أن يحزم أمره وينطلق .

وأن يتحمل الآلام .. التى يوشك أن يتحملها كجزء من آلام الحياة .. التى لا مفر منها .. وهو يحس دائما أن الحياة فى حد ذاتها رحلة مزعجة .. لا بد من قضائها .

ومع كل ذلك .. ومع كل ما حاول أن يحيط به نفسه من سياج التحمل والجلد .. أحس وهو يرقب دمعها الجارى .. أن يدا تطبق على رقبته .. وأنه

يحتاج إلى مزيد من الجهد لكى يوقف الدمع الذى يوشك أن ينهمر من عينيه .

وهمس بها وهو يحاول أن يبقيها فى الفراش .. حتى يقصر. فترة الوداع :

ـــ ابقى هنا .. إنك فى حاجة إلى الراحة .. لا داعى لأن توصلينى للباب .

وهمّ بأن ينطلق إلى الخارج ولكنها تشبثت بذراعه قائلة :

ـــ ما تركتك تخرج مرة دون أن أودعك إلى الباب .. فدعنى أوصلك للمرة الأخيرة .

وسارت بجواره وقد حجب الدمع عنها كل ما أمامها .. حتى وقفت وراء الباب ، وحاولت جهدها أن تتمالك ، ومدت ذراعيها لتضمه .. وهى تكتم صيحات العويل فى باطنها .

وضمها إليه فى لهفة ومد شفتيه يقبل شفتيها المبللتين بالدمع .. وانتقلت شفتاه لتمسح الدموع من عينيها .

وأحس بمقاومته تنهار .. وبقدرته على كبت الدموع تتهاوى .

وأحس بشىء ساخن ينزلق على خديه .. لم يدر أكان من عينيها أم عينيه ، وفتح الباب بسرعة .. واندفع منه إلى الفراغ المظلم والريح الصافرة .

٥٠

مقاومة وحنين

خرج « سامى » إلى الطريق ، وقد انتابه إحساس عجيب .. أشبه بإحساس الخارج من معركة سكن فيها الدوى وانطفأ اللهيب وخفت الصياح .. وأحاط به صمت موحش ينبئ بأن كل شيء قد انتهى .. وأنه يستطيع السير دون أن يشعر أن حياته معلقة بضجيج طلقة أو دوى قذيفة ، وسار فى الطريق .. وكل شيء غريب من حوله .. أشباح الدور وهياكل الشجر .. والأضواء المرتجفة .. تبدو مروعة كأطلال المعركة .. وقدماه تحملانه كالمأخوذ .. لا يكاد يعرف حتى طعم حياته التى نجا بها من الدمار .. ولا يشعر بآثار الجراح التى أثخنته بها شظايا الفرقة ، وسهام القطيعة .

وعاد إلى البيت .

لم يعرف كيف عاد .

كيف أدار العربة .. وكيف سار بها .. وأين وضعها ، وكيف حملته قدماه على الدرج ، وكيف دخل البيت ؟!

لم يعرف إلا أنه يرقد على الفراش ، وعيناه تحدقان فى السقف .. والمصباح الكبير الذى يضيء ذهنه ما زال يشد أعصابه ، ويفقده كل أمل فى الراحة أو الاسترخاء .

وبرغمه أطلق زفرة حارة .

انتهى كل شيء .

أخيرا .. بسرعة عجيبة .. وبسهولة لم يكن يتوقعها قط .

بسهولة ؟!

أحقا !! انتهى بسهولة ؟

لِمَ لا !؟ ألم يزل على قيد الحياة .. يتنفس ويتحرك .. ويستيقظ غدا كما تعود أن يستيقظ وسيذهب إلى عمله ، وينهمك فيه كما تعوّد أن يفعل .. و .. ويمر يومه .. كما كان يمر .. ليدفع به إلى يوم آخر .. وآخر .. وتسير الحياة .

وأطلق زفرة أخرى .

وحاول أن يغمض عينيه .. ولكن المصباح الذى يضىء داخل ذهنه .. لم يجعل لإطباق جفنيه قيمة .. واستمر تلازمه اليقظة .

وأحس بذكراها تتسلل إلى ذهنه .. بطريقة مريحة .. مخدرة .. ولكنه لم يلبث أن قطع الطريق عليها .. ونفضها عن ذهنه كما ينفض الساهر .. غفلة نوم تتسلل إلى عينيه .

وعاد يستمع إلى دقات ناقوس يقرع فى باطنه .

انتهى كل شىء .

هذه الدنيا العجيبة .. تأبى دائما إلا أن تضع أبسط النهايات لأروع الأحداث .

كل شىء ينتهى فيها بنفس الطريقة .. السريعة الخاطفة .. كل شىء ينتهى بمسة سيف مرهف بتار .. يقطعه فى غمضة عين .. فكأن الحياة لم تجش فيه .. وكأنه ما كان .

ومرة أخرى عاد يردد :

— عجيبة !!

عجيبة .. أن ينقطع عن أقرب الكائنات إليه فى هذه الدنيا .. وأشدهم ارتباطا به .. بمثل هذا البتر الحاسم القاطع ، دون أن تنزف منه قطرة دم أو تند عنه صيحة ألم !!

عجيبة أن يرقد هكذا فى صمت .. لا يشعر بأكثر من شد أعصاب ويقظة ذهن .. ويفكر فى حياته كما تعوّد أن يفكر .. وينتظر طلوع الفجر فى غده ،

كما تعوّد أن يطلع .. وبشروق الشمس كما تعوّد أن تشرق .. ليرتدى ملابسه ويخرج ويقابل الناس ويتكلم ويكتب .. و .. و .. و ...

ولِمَ لا !؟

الحمد لله .. الذى منحه هذه السكينة .. وهذا الصبر .

ولكن أحقا .. يحس بالسكينة والصبر !؟

أم هى ما يسمونها.. سرقة السكين.. أو تخدير المعركة؟ ليكن ما يكون.

إنه يشعر بأنه قادر على السير .. قادر على أن يواصل العيش .. وأن يعاود الحياة وحده .. كما كان .. قبل أن يوثق وإياها فى حياة واحدة .

وحاول أن يذكر كيف كانت حياته من قبل .. وأحس بها كأنها شيء بعيد .. بعيد .. كأيام الطفولة .. وبدت أيامهما معا مديدة مبسوطة .. كأنها فروع الكروم تظلل كل حياته .

ولم يعرف إلى متى ظل يفكر .. إلى متى ظل المصباح الذى يضيء فى ذهنه موقدا .. ليشد أعصابه .. ويرهق جسده .

حتى انبلج الصبح .. وفتح عينيه واستيقظ .. لم يعرف من نوم .. أو من سهاد .

وغادر فراشه .. وحلق ذقنه .. وقرأ الصحف .. وارتدى ملابسه .. وأفطر .

فعل كل ما يفعله فى صباحه .. وكأن جديدا لم يطرأ على حياته ، وغادر البيت .

ولكنه لم يذهب إلى مكتبه .

لم يجرؤ على أن يذهب .. كأن ثمة شيئا فى المكتب يقربه منها .

لم يجرؤ على أن يجلس إلى مكتبه بجوار التليفون الذى تعوّد أن يسمعه صوتها كل صباح .

كان يحس بأنه انطلق من مكمن الخطر .. وأن عليه أن يظل يعدو .. ويعدو

حتى يصبح بمنجاة منه .

وساعدته الظروف على الانطلاق .

كان لديه من الأعمال ما يمكن أن يغرق فيه من أخمصه إلى قمة أرسه .

وطواه العمل .. أو طوى هو نفسه فيه .. بطريقة فدائية لم يكن هناك أقدر منه على فعلها .

ومنحه إحساسه بالخلاص .. نوعا من القوة على خوض المعارك المتعددة التى نشبت من حوله .. بينه وبين الشيوعيين من ناحية .. وبينه وبين الرجعيين من ناحية أخرى .. وبينه وبين الانتهازيين من ناحية ثالثة .. غير المعارك الفرعية بين الحمقى والمتهوّسين والمتشنجين والأغبياء والأدعياء .

وراح يقضى أيامه بين مجلس النواب والحزب والمقاومة الشعبية .. ومطبعة الجريدة ، وحجرات المحررين .. لا يتوقف لحظة .. لراحة ، أو تفكير ، ولا يمنح نفسه فرصة استرخاء ليتسلل إلى ذهنه فيها ذكرى .. أو تتطرق إلى قلبه خلالها لهفة .

انطلق يعدو فى عمله .. وكأنه هارب من طيف يلاحقه .. ونجح فعلا فى الهروب .. أسبوعا كاملا .

سبعة أيام بلياليها .. استطاع أن يهرب من كل شىء .. حتى من نفسه .

لم يدخل مكتبه خلالها إلا عابرا .. ولم يمنح نفسه فرصة الإنصات إلى دقة تليفون .. ولا حاول أن يسأل عن إنسان سأل عنه .

وأحس كل من حوله باندفاعه فى العمل ، وبدا لهم فرط حماسه وتهوّره .

مخلوقة واحدة .. كانت ترقبه .. وتدرك ما به .. كانت تحس بما فعل ومايفعل .. وكان شىء يدمى فى باطنها من أجله وكانت تتمنى لو استطاعت أن تمسك به وتحدثه وتعاونه .

ولكنها لم تملك سوى الصمت .

كانت « فايزة » تحس بعملية البتر التى أقدم عليها .. لم تكن تعرف .

كيف .. ولا لماذا .

ولكنها أحست بقلب المحب .. أنه أقدم على خطوة حاسمة .. وأنه فعل شيئا خطيرا ، وأنه يحاول الهروب .. حتى لا تصيبه نكسة .

وكانت تدعو الله من قلبها ألا ينتكس .

وبدا كأن الله قد استجاب .

وخيل إليها أنه قد اجتاز المحنة .. عندما عاد ذات مساء إلى مكتبه وحياها باسما :

— مساء الخير يا فايزة .

— مساء الخير .

— كنت أود أن تكتبى لمصلحة الهاتف كى تبدل رقمى الخاص .

— هل أجعله مكتوما ؟

— أجل .

وقبل أن يستقر على مكتبه سألها بطريقة عابرة :

— هل سأل عنى أحد ؟

— دق التليفون عدة مرات ثم سكت .

وجلس « سامى » على المقعد ، وأحس وهو يستقر فى مكتبه .. بأنه فى حاجة إلى فترة استرخاء وتفكير .

إحساس جديد بدأ ينتابه .

إحساس خطير لا يعرف مبعثه .

النواقيس الحزينة التى كادت دقاتها تنبعث من قلبه بعيدة خافتة قد أخذت تقترب وتتعالى .

وشعور بالقلق ، والضيق ، والتبرم .. قد نبت فى نفسه وأخذ يتزايد رويدا رويدا .. حتى أحس أخيرا أن شيئا فى داخله يكاد ينفجر .. وأن الصراخ المتعالى فى باطنه يكاد ينطلق من شفتيه .

وازداد به التعب والإرهاق .. من فرط العدو والهروب .. وأحس بفرط الحاجة إلى أن يتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه .. ويرخى أعصابه .

ولم يعرف بالضبط ماذا أصابه .. أهو إحساس بالإجهاد من فرط العمل .. والعدو والهروب ، والإمعان فى المقاومة .

أم هو إحساس بالحنين .. والرغبة فى العودة .

أهو مجرد إرهاق ؟ أم نكسة ؟

أيا كانت .. وأيا كان مصدرها من باطنه أو من خارجه .

وأرهاقا كان أم مللا .. أم حنينا .. أم أى شىء آخر لم يفهمه .. ولا حاول أن يفهمه .

لقد وجد ساقيه تقودانه إلى مكتبه .. ووجد نفسه يستقر على مقعده .

وأحس بأن صراعا قد قام فى باطنه .

لم يعد الأمر مجرد صراخ وعويل .

فقد أيقظ الصراخ فى باطنه شيئا هاجعا .. أخذ يتمطى ويتثاءب .. ويسأله عما فعل به .

وبدأ الصراع .

بدأ يلطمه من جانب العقل المقاوم .

لطمة تشكيك ولوم .. للصاحب الهاجر .. المهجور .. إنه لم يحاول أن يسأل عنه مرة واحدة خلال هروبه .

لقد بدا وكأنه كان ينتظر القطيعة بفارغ صبر .

ورد الحنين المتيقظ اللطمة هامسا :

ما الذى يدرى .. بأنها لم تسأل ؟

سألت ! متى ؟ وأين !؟ ولماذا لم تترك خبرا ؟! أتراها حقا كانت تعجز عن الاتصال به .. واستدعائه إليها .. لو أرادت .

وعاد الحنين يرد :

جائز جدا .. أن تكون حاولت أن تسأل عنه وفشلت .

وجائز جدا .. أن يكون قد ألم بها شيء .

وعاد الذهن المقاوم يرد فى صرامة :

كلام فارغ .. إنها استطاعت المقاومة بغيره ، بل أغلب الظن بأنها لم تشعر بحاجة قط إلى المقاومة .. لأنها وجدت من تستند عليه .. وتشغل بأمره .

وازداد الحنين يقظة .. وتحوّل همسه إلى صياح .

لا .. لا .. إنها تحبه .. تحبه .

لقد كان هو السبب فى كل ما حدث .. كان عنيفا قاسيا ، وكان يتصوّر أن الأمر يمكن إنهاؤه بضربة سيف .

وبدا الأمر له سهلا .. هينا .. وهو يمعن فى الجرى والهروب ، محيطا نفسه بسياج من العمل المرهق .

ولم يعرف وقتذاك .. أكانت قدرة منه على المقاومة .. أم هى سرقة سكين .. حتى أحس فجأة أنه يكاد يسقط إعياء فأدرك .. أن سرقة السكين قد انتهت ، وآلام الجراح قد بدأت .

وإذا بقدمى الجريح تقودانه .. بجراحه النازفة .. إلى أقرب مستهقر .

وردت المقاومة .. على دقات الناقوس .. بأن أغلقت الباب فى وجه الجريح العائد .. بالعزم على تغيير رقم التليفون حتى يوقف كل احتمال ، لتسلل الخطر منه وحتى يصيبه اليأس . فلا يعود ينتفض لكل دقة من دقاته ، ولا يعود يحس بالخذلان .. إذا سمع صوتا .. غير الصوت الوحيد الذى يتلهف على سماعه ، ولكن شيئا لم يستطع أن يوقف الحنين المستيقظ .. والشوق العائد ، وأخذت النكسة تتضاعف ، وآلام الجراح تزداد .

وأحس برغبة شديدة فى أن ينطلق ليرتمى بين أحضانها .

ودق جرس التليفون .

وتمنى أن يسمع همسها الحلو .

ولكن صوتا خشنا هتف به :

— آلو ..

— مساء الخير يا « سليم » .

— ماذا تفعل ؟

— أبدا .. سأراجع تجربة مقالى .

— ثم ؟.

— ثم ...

ولم يعرف ماذا ينوى أن يفعل .. فقد خلا ذهنه من كل شيء إلا من الحنين إليها والتفكير فيها .. ولكن أحس أن عليه أن يقول شيئا .. فأجاب :

— ثم .. أعود إلى البيت لأنى مرهق .

— لماذا لا تأتى إلينا ؟

— أين ؟

— هنا .. فى الحزب .. إن لدينا بعض الأصدقاء المصريين وهم يودون رؤيتك .

وأحس بأن طوق نجاة قد قذف إلى مقاومته التى توشك أن تغرقها موجات الحنين .. فأسرع بالتقاطه قائلا :

— سآتى حالا .. مسافة الطريق .

ونهض من مقعده .. كأنه ينطلق من قفص سجن .. فتح له السجان بابه . انطلق .. ليعود إليه مرة ثانية ، وهو أشد ما يكون ضيقا ، وأضعف ما يكون مقاومة .

لماذا .. فعل كل ذلك ؟

لماذا أقدم على عملية التعذيب التى أقدم عليها ؟.

إنه يعرف جيدا .. مدى تسللها إلى كيانه .. يعرف جيدا .. تعذر استئصالها من قلبه ، فلماذا أقدم .. على هذه الهزة القاسية .

واستمر الصراع الداخلى .. فى ازدياد .

والحنين يتضاعف ، والمقاومة .. تترنح .

حتى بدأت هجمة شوق جديدة من خارجه .

كان يجلس فى مكتبه عقب انتهائه من العمل يتصفح بعض المجلات .

وأمسك بإحدى المجلات .. فإذا بصورتها تطالعه على غلافها .

وحاول أن ينحيها بعيدا .

ولكن بصره ظل معلقا بها ، وانتقلت عيناه إلى التعليق الذى كتب أسفلها « نفى إشاعات الزواج » .

وانتابه إحساس بالارتياح ، ولكنه ارتياح مشوب بالوساوس !

لماذا ادعت إذن أن « شكرى » قد تقدم إليها ، وأنها قد قررت الزواج منه ؟

أتراها قد استقرت معه على مجرد علاقة ؟

وأحس كأن لطمة قد أصابته ، وملأه إحساس بالمرارة والألم .

ولكنه عاد ينفض الوهم عن ذهنه .

لا .. لا .. غير معقول أن تفعل هذا .

لا بد أنها قد عدلت عن الفكرة .. أو ربما لم يكن لها أساس من الأصل ، ولم تكن إلا محاولة لإنقاذه منها بعد أن قال لها ما قال .

لشد ما كان قاسيا !!

وزاد به الحنين .

ولكن لماذا لا تتحدث إليه ؟.. لماذا لا تطلبه ؟

لماذا استطاعت أن تقاوم كل هذه المقاومة ، وقد أوشكت مقاومته هو أن تنهار ؟

ومد يده يدير مفتاح الراديو .

ليمنعها من أن تمتد إلى سماعة التليفون .

وأخذ يستمع إلى حديث سياسى عن الأحداث فى العالم .

وانتهى المتحدث من حديثه .

ومد « سامى » يده ليغلق الجهاز ، وينهض للعودة إلى البيت ، حتى يهرب من حنينه المتزايد .

ولكن قبل أن يدير المفتاح .. سمع صوت المذيع يقول :

ــ والآن سيداتى سادتى نقدم إليكم بعض الأغانى .. نبدؤها بأغنية للمطربة هدى نور الدين .

ورفع « سامى » يده عن المفتاح ، وأخذ يرهف السمع .

وبدأت المقدمة الموسيقية .

وخيل إليه أن القدر يرفع المعول .. ليهوى به على آخر حصن من حصون المقاومة .

كانت أغنيته الحبيبة المسجلة على الشريط مع المناجاة .

وعلا صوت هدى .. ينشد الأغنية .

وحمله الصوت الرقيق .. بعيدا .. بعيدا .

إلى مكان وسط الثلوج البيض ، والمدفأة تتراقص فيها ألسنة اللهب .

وهى تجلس أمام البيانو ، وصوتها العذب يهمس له بالأغنية .

ونظر إلى الساعة .. فإذا بالليل قد انتصف .

وانتهت الأغنية .

ليجد نفسه بلا وعى ولا إرادة .

يتسلل من المكتب .. لينطلق إليها فى سكون الليل . بعد أن طوى الحنين كل أثر للمقاومة .

٥١

لقاء ... وفرقة

انطلق « سامى » .. كما ينطلق عصفور حبيس فتح له القفص .

انطلق يسابق الريح .. خفيفا .. لطيفا .. يكاد يحتضن كل شيء .. ويقبل كل شيء .. وقد أحس لأول مرة أن العبء الذى جثم فوق أكتافه ، والذى راح يعدو به هاربا خلال الأيام الثقيلة الماضية .. قد تفتت وذاب وذرته الرياح .

خفت العويل فى باطنه .. وهدأ الصراخ .. وانتهت المعركة التى شدت أعصابه وأقضت مضجعه .. والتى أثارت فى جوفه إعصارا لم تسكن ريحه ، ولا استقر غباره فى يقظة أو رقاد .

انطلق سامى يعدو إلى بيت هدى .. إلى مستقره الطبيعى ، وملجئه المريح .

وكأن ما أصابه لم يكن سوى جنوح عاصفة ، وشرود أنواء ، أفضى به إلى بهمة اليأس ، وعتمة الضلال .. فلما سكنت العاصفة وهدأ الموج .. انطلق إلى المرفأ ، ينفض عنه آثار الصراع ، ويضمد جراح المعركة .

انتهى الكابوس المروع الذى أمسك بخناقه وكتم أنفاسه .

انتهى تماما .. بنفس البساطة والسرعة التى بدأ بها .

ولم يعرف وهو ينطلق إليها .. كيف بدأ الكابوس وكيف انتهى .. ولكن كل الذى عرفه ، هو أنه يريد أن يعدو إليها ليأخذها بين ذراعيه ويضمها إليه فلا يتركها أبدا .

وأضحت الشائعات خرافات ، وكلام الناس هراء ، والمجد سخافة ، والسياسة ترهات ، ومعاركها أباطيل .. و .. و .. كل شيء لم يعد له قيمة ، وهو ينطلق إليها ، وكأنه يهيم ولا يمشى ، يسرى ولا يسير .

شيء واحد فقط فى هذه الحياة يمنحها الطعم والرونق والبهاء ، شيء واحد يمنحه الإحساس الحقيقى بها .

هو هذه المخلوقة الحبيبة ، التى أحبته وأعزته ، وأراحته ، ولم تسئ إليه مرة واحدة .

المخلوقة .. الجميلة .. الرقيقة .. التى لم تطمع من حياتها فى شيء أكثر من أن يحبها .

المخلوقة العزيزة ، التى رضيت بأن ترقد ببابه الخلفى ، وقنعت بكل ما يستطيع أن يمنحه إياها بلا ضيق ولا إقلاق .

لم تحاول مرة أن تتعدى مكانها .

لم تحاول أن تسأله المزيد .

لم تحاول أن تطالبه بوضع طبيعى ، غير وضعها بالباب الخلفى الذى تستتر وراءه .

بل أمعنت فى التستر .. خوفا عليه .. وحرصا على سمعته .

كانت تخاف عليه .. خوف أم على طفلها .

كان حبها عجيبا .

كان ؟!

أوَ لم يزل .. كما كان ؟

لماذا يتحدث عنه كشيء مضى ؟!

إن هذه الفرقة .. كانت وهما .. كانت حلما بغيضا بددته اليقظة .

سيذهب إليها الآن .. ليجدها قد أوشكت أن تأوى إلى الفراش .

وابتسم وكاد يقهقه .

عندما تذكر كيف أصابته الوساوس مرة .. فذهب إليها فجأة دون أن يخبرها .

وكيف دخل فوجدها قد أغرقت شعرها بالزيتَ .. وعصبته بمنشفة ثم

فرشت منشفة أخرى على الفراش ، وهمت بالرقاد .

وخجلت من أن يراها .. كما هى .

ولكنه لم يجد وجهها أروع ولا أبرأ مما وجده وقتذاك .. بتقاطيعه الحلوة الدقيقة .. وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خجل .

وضمها إليه .. وأخبرها أنه عاد فجأة ليقضى على بعض الوساوس التى نبتت فى نفسه .

وزادت ابتسامتها .. ثم انطلقت ضاحكة سعيدة .. وهى تهتف به وتضمه إليها :

ــ أحب غيرتك .

ــ أحقا لم أضايقك ؟

ــ أبدا .. افعل دائما كل ما يحلو لك .. إنى لا أفعل أبدا ما أحس أنه يسيئك .

ــ لقد ظللت برهة مترددا .. ولكن الوساوس الحمقاء أثقلت علىّ .

ــ أعرف يا حبيبى .. وساوسك البلهاء .. أعرفها جيدا وأحب دائما أن أريحك منها .

ــ من أجل هذا فضلت أن آتى إليك .

ومضت فترة صمت قطعتها « هدى » بقولها :

ــ لعلك قد استرحت ؟

ــ جدا .

ــ لا تتردد أبدا فى الحضور فى أية لحظة .. يخطر فيها ببالك الحضور .. لأننى أحب أن أراك .. وأحب أن أريحك .

وعادت تضمه إليها ، وهى تسترسل قائلة :

ــ لا تتصور كم أسعدتنى مفاجأتك .. رغم أنك رأيتنى على هذه الحال .

وأمسك برأسها الصغير الملفوف فى المنشفة .. وأخذ يقبل شفتيها وأنفها وعينيها ، وهو يهتف ضاحكا :

ـــ أحبك جدا وأنت على حالك هذه .

ووجد نفسه يبتسم وحيدا .. وهو يوقف العربة فى الشارع الجانبى .

وبدا له أن الوقت لم يمر .

كان هنا بالأمس .

أبدا .. لم تمر أيام طويلة ثقيلة .. خانقة .

كان مجرد حلم مقبض سخيف .. عاد كل شىء إلى ما كان عليه .. بمجرد أن فتح عينيه .

النهر المنساب بالمصابيح المنعكسة فى مجراه .. والشجرة الطويلة القائمة .. والأضواء المتلألئة فى الجبل .

و« البواب » قد انكمش فى حجرته أسفل السلم :

وأحس بالألفة نحوه .. حتى كاد يطرق بابه ويحييه وينبئه أنه قد عاد .

و« أم حبيب » لا شك قد رقدت .

و« هدى » .. قد لفت شعرها بالمنشفة .. واستلقت فى فراشها .. واستغرقت فى النوم .

ولكن ...

وأحس بطرقة إنذار خفيفة فى ذهنه .

أواثق هو أنها ستكون قد همت بالرقاد !

ألا يحتمل ألا تكون قد عادت ؟

لا عليه .. لينتظرها حتى تأتى .. وتكون المفاجأة أتم وأروع

أجل .. سيقبع فى انتظارها فى الفراش .

ولكن لا .

إن المفاجأة قد تكون أشد مما تخيل .. قد تظنه لصا .. أو شبحا .. وقد تؤذيها المفاجأة .

يجب أن يكون أعقل من هذا .

أجـل .. سيضيء النـور ويجلس فى حجـرة الجلـوس .. ويتسلى بإدارة التسجيل .. وسماع المناجاة .

وقد تأتى فى تلك اللحظة ويكون ذلك أجمل استقبال لها .

ولكن ألا يحتمل أن تكون فى الدار ؟

ولكنها ليست وحدها .

ألا يحتمل أن تكون فى إحدى تلك الولائم الصاخبة .. التى تضم حثالة الزملاء والمعجبين ؟

لِمَ لا !! ماذا يمنعها من هذا ؟

إنها قطعا لا تتوقع حضوره .

وتصوّر نفسه وهو يفتح الباب .. ثم يواجهه كل هؤلاء السكارى .. المغرقين فى الرقص والعربدة .

أية مهزلة .. يمكن أن يحدثها .. لو فعل !؟

ولكن لماذا يخشى مثل هذه المفاجأة ؟!

إنه بلا شك سيشعر بالضجيج وهو خارج الباب .. وسيعطيه ذلك إنذارا بالانصراف .

ولكن .. هب أنها مع أصدقاء لا يحدثون ضجيجا .

مثل مَنْ ؟!

وأحس بشيء يلتوى فى باطنه .

وأخذ يجيب نفسه ، وهو يصعد آخر الدرج .. مثل .. أى معجب .. أو صديق .

شكرى مثلا .

وملأت نفسه المرارة ، وكاد ينكص على عقبيه .. عائدا القهقرى .

ولكنه توقف فى عناد وهو يلوم نفسه قائلا : « غير معقول أن يفعل هذا » .

لماذا يأبى إلا أن يكون بمثل هذه القسوة فى وساوسه وشكوكه ؟

ولكن ألم تنذره هى بأنه تقدم لزواجها !؟

وعاد يرد على نفسه :

تقدمه لزواجها شيء .. وحضوره فى منتصف الليل ليجلس وإياها شيء آخر .

غير معقول أن تفعل هذا أبدا .

إنه يثق فيها ثقة مطلقة من هذه الناحية .

يعرف أنها أعقل من أن تسلم نفسها ببساطة لعلاقة مثل هذه .

يعرف أنها إما أن تتزوجه .. أو تتركه .. فليس هناك ما يضطرها أبدا إلى أن تنشئ معه علاقة .. بين بين .. فلا هى تحبه ، ولا هى فى حاجة إليه .

ولكن ألم تنذره هى بأنه قد دخل فى حياتها ؟!

لِمَ كل هذا التردد ؟

لماذا لا يتقدم ويفتح الباب ويدخل حتى يقطع الشك باليقين !

هب أنها خذلته .. وحطمت أمله .

وعادت المرارة مرة أخرى تملأ نفسه .. وعاد الشيء يلتوى فى باطنه .

لِمَ كل هذه الوساوس والهواجس والمخاوف ؟

إنه يعرف جيدا كيف تحبه .

ويستطيع أن يتصور تماما .. كيف كان وقع صدمة فراقه عليها .

إنه يذكر كيف كانت تقول دائما : « لا أتصور أبدا أن يأتى اليوم الذى تتركنى فيه .. سأموت بلا جدال .. إن مجرد تصورى بعدك ، يجعلنى أرتجف » .

أجل .. قالت له هذا أكثر من مرة .

فلماذا يقسو عليها فى وساوسه ؟!

حتى يتصوّر أنها ببساطة قد أبعدته لتضع آخرِ فى موضعه .

وعاد شيطان الوساوس يلح عليه فى عناد وإصرار .

ولكن هب أنها فعلت !

ورد بيأس وحنق وقسوة :

« لو أنها فعلت .. فخير لى أن أواجهها .. حتى يكون البتر فى هذه المرة قاطعا .. حاسما » .

وأحس بشعور الجلاد يتسلل إلى نفسه .

وكره من نفسه هذه الرغبة .. المدمرة اليائسة .. التى دفعته إليها ريبته وظنونه .

لماذا لا يعود من حيث أتى .. ويقى نفسه نتائج كل هذه الاحتمالات ؟

دقة من التليفون .. تجعل كل شىء واضحا .. وتقضى على هذه المخاوف .

وإنذار واحد .. كفيل بأن يجعل الطريق ممهدا .. ويقضى على أى احتمال لمفاجأة مزعجة ، ويجعل زيارته مأمونة من كل العواقب .

ولكن الخاطر لم يزده إلا إصرارا على الدخول .

غير معقول أن يرجع لأنه يشك فيها .

بل المعقول أن يدخل لأنه يشك فيها .. فلو عاد وهو محمل بالشك .. لظل الشك معلقا فى نفسه أبد الدهر .. مهما حاولت هى أن تقنعه بأنها كانت ترقد وحدها .. بالزيت فى شعرها ، والمنشفة تعصب رأسها .

أجل .. يجب أن يدخل .. لأنه يريدها دائما مبرأة من كل شك .. يريدها بين أحضانه .. وفية مخلصة ، لا يشعر أبدا إلا أنها له وحده .. فى كل لحظة .. وبكل جارحة .

أما مع الشكوك ، فإن حياته معها تصبح كارثة .

وإذا كان قد وصل إلى أعتابها .. والشك يملأ رأسه .. فخير له أن يدخل ، ويقضى على الشك .

أو ...

يقضى على كل شىء .

وبإحساس المغامر .

وضع المفتاح فى ثقب الباب .

لقد كانت تتمنى دائما أن يعود إليها فى كل وقت .. كانت تحب مفاجآته .

وهو يقدم لها الليلة .. أجمل مفاجأة .. بعد الفرقة .. وطول البعد .

وأحس بشىء من الطمأنينة ، وهو يجد السكون خيم والصمت قد أطبق .

لا صياح غناء .. ولا ضجات رقص ، ولا أصوات عربدة .

وأدار المفتاح فى الباب دورتين .. ثم دفع الباب فانفتح ، وبدت القاعة أمام عينيه مغرقة فى الظلمة .

لا همسة .. ولا نفس .

وخطا إلى الداخل .. ثم أغلق الباب خلفه فى هدوء .

وتقدم بضع خطوات فى القاعة .. متلمسا طريقه فى الظلمة .. ثم توقف .

ووصلت إليه أنفاس نائمة .

الأنفاس المنتظمة الطويلة .. التى يتخللها مقاطع حشرجة أو شخير .

ولم يشك فى أنها أنفاس « أم حبيب » ترقد على حشيتها .. التى طالما استعارها للجلوس عليها فى ركن الشرفة فى ليالى الصيف .

وكان يعرف طريقه بلا حاجة إلى ضوء .. فاتجه يمينا .. فى الممر المفضى إلى حجرة الجلوس وحجرة النوم .

وتوقف أمام باب حجرة الجلوس .. أو حجرتهما معا .

الحجرة ذات المقعد الكبير المريح الذى طالما استرخى عليه وهى فى حجره ، وعيناه تشردان فيما وراء النافذة الزجاجية العريضة .. فى فروع الشجر المهتزة ، والنهر الممدود والنجوم المتلألئة .

وأحس بحنين شديد .. إلى وقفة وراء النافذة .

لقد بدا له فى أيام حرمانه أن عهده بها قد انقضى .

لم يخطر بباله ، أنه سيعود مرة أخرى ليسترخى وراءها ، ويريح عينيه بالشرود

من خلالها بين أضواء النهر ، وأضواء الجبل .

كان يظنها قد أضحت مجرد ذكرى .

فإذا بها تعود حقيقة مرة أخرى .

وبحنين العائد ، وشوق الغائب .. مد يده ليدفع الباب ، ويلقى على الحجرة والمقعد والنافذة ، وما وراء النافذة ، نظرة حنين .. قبل أن يتسلل إلى حجرة النوم .

ولم يكد يفتح الباب قليلا ، وترى عيناه الحجرة من خلاله حتى جمد فى مكانه .

كأنما قد أصابه شلل .

وأحس أنه فقد السيطرة على حواسه .. وبدا له كأن أعضاء جسمه قد اختلطت .. فلم يعرف أين ساقاه وأين يداه وأين رأسه .

بل لقد بدا .. كأن الواقف فى مكانه مخلوق آخر لا سلطان له عليه .

لقد أبصر أمامه .

ما طاف بذهنه كمجرد وهم .. أو شك مرير .. يستحيل وقوعه .

وجد رجلا يجلس على مقعده .

نفس الجلسة .

وفى نفس المكان .

يمد ساقيه فى استرخاء عند حرف النافذة .. لا فرق بينهما سوى أنه أمسك بيده اليمنى كأسا .. وباليد الأخرى أحاط « هدى » .

وجمد وراء الباب المنفرج عن المشهد المروع عاجزا عن التصرف والتفكير .

ومضت ثوان .. وهو يقف مشدوها مذهولا لا يعرف ماذا يفعل .

أينسحب متسللا .. كما أتى .. وينطلق إلى الظلام البارد الذى كان فيه ؟!

أيعود فى صمت .. ليختفى حيث كان .. فإن أحدا لم يحس به ولم يلتفت إليه ؟

أيعود بالجرح يدمى فى باطنه .. والطعنة المسمومة تنفذ إلى صدره ؟!

ولم يحس برغبة فى التقهقر .

وتملكه نوع من عناد اليأس .. فى أن يستأصل كل شىء من جذوره ، وأن يقطع ما بينهما حتى آخر عرق .

ودفعه الشعور بالمرارة ، إلى أن يجرع مزيدا من المرارة ، وأحس بأعصابه من شدة التوتر تسترخى .. وأحاسيسه من فرط الفوران تخمد وتتبلد .

وتملكته رغبة جارفة فى أن يواجهها ، وكأنه قد وجد أخيرا أن كل وساوسه التى خدعته فيها .. قد تجمعت فى تهمة لا ترد .

وجعله الشعور بالهزيمة والمرارة واليأس يميل إلى القسوة والاستهتار واللامبالاة .

وانتهت ثوانى التردد والحيرة .

ورفع يده فدق الباب وهو يرقب من ورائه .

وبصوتها المنغم ، ونبراتها الممدودة .. ردت « هدى » :

— أجل يا أم حبيب .

نفس الرد الذى كانت تجيبه على دقات « أم حبيب » عندما تكون فى أحضانه .

وأحس بالدم يغلى فى عروقه ويتصاعد إلى قمة رأسه .

ومن خلال أنفاسه اللاهثة .. رد بكل ما يملك من قوة أعصاب :

— أنا لست أم حبيب .. أنا سامى يا هدى .

ومضت برهة صمت .

بدا كأن كل من بالحجرة قد تجمدوا فى أماكنهم .

لا صوت .. ولا حركة .

لم تتكلم هدى .

ولم تلتفت .

لقد بدا كأن الصوت وهم .. أو حلم .

وانتهت ثوانى الصدمة .. والتفت كلاهما .

هى .. وصاحبها .

لم يستطيعا التحرك من مكانهما .

واستدارت « هدى » برأسها لتجد « سامى » يقف بالباب أمامهما ، وينظر إليهما وجها لوجه .

وبدا كأن ريقها قد جف ، ولسانها قد تصلب .

ومضت برهة أخرى وهى تنظر إليه كالطير الجريح .. ملء نظراتها اليأس والحزن والأسى .

وبدا الاضطراب على « شكرى » .. ولم يعرف كيف يتصرف .

وأحس « سامى » بأنه أكثر الثلاثة قدرة على التصرف .

فخطا خطوة إلى الداخل ، وتساءل فى مرارة :

ـــ زيارة غير ملائمة .. ولكن ما دامت قد وقعت فلا بد أن نواجهها .

وهمست « هدى » همسة التائه الهائم :

ـــ تفضل .

وغادرت مقعدها وتقدمت إليه وهى تكاد تسقط إعياء ، لا تعرف ماذا تقول ، ولكنها تمالكت نفسها وتمتمت ببعض كلمات اعتذار قائلة :

ـــ لم أكن أود أن يحدث هذا قط .. ولكنى أحس أنى لم أخدع منكما أحدا .

ونظرت إلى شكرى قائلة :

ـــ لقد قلت لك إنى أحب إنسانا .

ثم أشارت إلى سامى قائلة :

ـــ هذا هو الإنسان الذى أحبه .

ثم أشارت إلى شكرى قائلة لسامى :

ـــ الأستاذ شكرى .

وارتمت « هدى » على المقعد فى إعياء ويأس .

وجلس « سامى » على مقعد ثالث .

ومضت برهة صمت .. بدا الموقف خلالها ثقيلا خانقا .

ولم يعرف أحد .. ماذا يمكن أن يقال .

وأحس « سامى » بأنه المسئول الأول عن هذا الموقف ، وأنه كذلك أقدرهم على الكلام .. فبدأ حديثه قائلا :

— قد أكون أكثركم مرارة .. وأشدكم إحساسا بالخذلان والهزيمة ، ولكنى مع ذلك أحس بأنى أملك زمام أعصابى .. وأحس بأن شيئا يجب أن يقال ليوضح هذا الموقف المرير الذى وجدنا فيه .. وإنى لقائله .

ثم نظر إلى « شكرى » موجها إليه القول :

— لقد أحببت « هدى » . أحببتها كما لم يحب أحد ، وقد كانت دائما أهلا لهذا الحب . إنها مخلوقة تستحق كل شىء طيب فى هذه الحياة ، وقد حاولت أن أمنحها كل ما أستطيع ، ولكن الظروف أعجزتنى أن أحقق لها ما يبدو أنك تستطيع أن تمنحها إياه .. وأن تهيىء لها به ما تستحق من سعادة وحياة هانئة طيبة .

وصمت « سامى » برهة ، وأحس « بهدى » تهز رأسها ، وتضغط بأسنانها على شفتيها .

ونهض « سامى » متثاقلا ، وهو يشعر أن الموقف المرير يجب أن ينتهى .

وهز رأسه قائلا فى شىء من الأسف المشوب بالسخرية :

— كان مفروضا أن تبدأ أنت حيث انتهيت أنا ، ولكن يبدو أنه قد حدث تشابك بيننا ، لم أكن واثقا أنك قد دخلت حياتها ، ولا كنت أنت تعرف أنى لم أخرج من حياتها بعد .

وعاد يهز رأسه ، وهو يمد يده مصافحا ويتمتم ويقول :

— ماذا نفعل . إذا كنا لا نملك مصائرنا !؟

وسار متجها إلى الباب الخارجى ، وسارت « هدى » وراءه .

ووقف الاثنان وراء الباب .

كان الجمر المشتعل بينهما ، يبدو وكأن ماء قد صب عليه ليجعل منه فحما أسود باردا .

وتنهدت « هدى » فى يأس وقالت :

ـــ كنت دائما أحترمك ، وزاد احترامى لك اليوم حتى ...

وأحس « سامى » بمرارة فى كلمة الاحترام ، وهمس مقاطعا :

ـــ احترام .. فقط .. أهذا كل ما تبقى لنا من مشاعر !؟

وطأطأت رأسها وهمست قائلة :

ـــ أخجل أن أقول حبا .

ومد « سامى » يده ، فشد على يدها قائلا :

ـــ أتمنى لك من كل قلبى حياة سعيدة . لن أنسى أبدا . أنك كنت أجمل ما فى حياتى .. كنت أود أن تكون خاتمتنا جميلة كحبنا ، ولكن ماذا نفعل ؟! كل ما أرجوه هو أن تتزوجى فعلا .. فقد يمنح ذلك حبنا ، خاتمة أكرم وأفضل .

وشرد برهة ثم تنهد قائلا :

ـــ كان يجب أن أقنع بالوداع السابق ، ولكنى كنت طماعا .

وهزت « هدى » رأسها قائلة فى أسى ويأس :

ـــ يبدو أن الله قد أبى لحبنا إلا مثل هذه الخاتمة لكى ينهيه فعلا .. إن ما بيننا لم يكن ليقطع إلا بمثل هذا .

وبغير همسة ولا ضمة ، ولا مسة شفة .. انساب إلى الظلام .. ليحتويه الفراغ البارد مرة أخرى .

٥٢

عودة إلى الهذيان

ترك « سامى » بيت « هدى » .. وسار فى طريقه . لم ينطلق هذه المرة .. ولم يعد هاربا .

لم يشعر أنه فى حاجة إلى الهروب .. وإلى المقاومة .. وإلى الخوف من الارتداد .

وممن يهرب ؟!! وماذا يقاوم ؟.. وإلى من يخشى أن يعود ؟

ممن يهرب .. ومطاردة الحب قد انتهت .. والمطارد .. قد أغمد سيفه .. ولوى عنانه .. وكف عنه .

وماذا يقاوم .. والجذب قد توقف .. والشد قد أرخى .. والصراع .. لم يبق به سوى جانب واحد .

وأى عودة يخشاها .. بعد أن أحرقت مراكبه .. وسد الطريق فى وجهه .

لم يكن هناك مبرر للهروب أو المقاومة .. ولا كانت لديه القدرة عليهما .

كان كل ما يملك هو أن يسير صامتا .. واجما .. يائسا .. وأن يحاول وقف الانهيار الذى يحس أنه بات منه قاب قوسين أو أدنى .

كان يشعر فى قرارة نفسه أن كل شىء قد انتهى .

انتهى بقسوة .. وعنف .. ليطفئ بصيص الأمل .. ويفسد جمال الوداع .. ويضيع حلاوة الذكرى .. ويطمس كل المعالم الطيبة الجميلة التى ميزت أجمل أيام عمره .

انتهى كل شىء .. وكأنه قد تحطم بيد هوجاء مجنونة .. أصرت على أن تقضى عليه وتعصف به .. فلا تبقى منه شيئا ولا تذر .

وكأنما أحست هى بهذا فاعتذرت عنه بمرارة بأنه كان يجب أن يحدث لكى ينتهى ما بينهما حقا .

وقد تكون على حق .

ولكنه حق الجلاد ، الذى يرى فى حد مقصلته .. حسما لكل شىء .

لا فارق بينهما إلا أن الجلاد .. جلاد .

أما هى فكانت حبيبته !!

حبيبته فقط !

لقد كانت أجمل ما فى حياته .. وأعز الناس لديه .

وكان أجمل ما فى حياتها .. وأعز الناس لديها .

أحقا كان ؟!

أيمكن أن نفعل فى أعز الناس لدينا .. ما فعلت به !؟

بعد كل هذا الحب والارتباط الذى جعلهما كأنهما مخلوق واحد .. تلقى به بمثل تلك البساطة .. لتضع مكانه إنسانا آخر .. تجرى به حياتها بيسر وسهولة وكأنها أبدلت مركبة بمركبة .. أو جوادا بجواد .

ولكن ماذا يروعه .. مما فعلت .. بعد أن أنذرته به ؟

ألم تخبره بأن إنسانا قد تقدم لزواجها .. وأنها قد وجدته ملائما لها .. ولم يعترض هو على ما قالت .. وودعها الوداع الأخير !

ألم يحس هو وقتذاك أن فى ذلك حلا لمشكلة مستعصية .. وانطلاقا له من عملية أسر .. وتحررا من استعباد ؟

جائز .

ولكنه إحساس مؤقت .. نتج عن فرط ما وقع عليه من ضغط .. وإرهاق .. وإجهاد .

إحساس لم يشعر قط أنه يمكن أن يتحكم فعلا فى مصيرهما معا .. ليضع له مثل هذه الخاتمة المريرة .

بدليل .. نكسته .. وعودته إليها .. بحنين أشد .. وشوق أحر .. وإحساس أجمح وأرهف .. ليجدها قد نفضت يدها من كل شيء .

وحتى لو كانت قد استقرت على إنهاء علاقتهما .

أيعنى ذلك إنهاء حبهما ؟

هل الحب ينتهى بمجرد قرار !؟

أهان عليها حبهما إلى هذا الحد ؟!

أهانت عليها الفرقة .. بلا شوق ولا لهفة .. ولا حنين .. بل عاشق يحل محل عاشق ، ومحب يشغل مكان محب .

ولماذا هذه العجلة ؟

ولماذا لم تتزوج .. كما قالت ؟

ولكن هبها تزوجت !!

ماذا كان يمكن أن يصبح موقفه وهو يقتحم بيتها بعد منتصف الليل ليفتحه بمفتاحه .. ويدخل حتى مخدعها ؟

أى حماقة كان يمكن أن يرتكبها ، وأى مأزق كان يمكن أن يزج به فيه .. لو أنها كانت متزوجة فعلا !

ماذا دفعه إلى مثل هذه الحماقة ؟

حبه ؟!

ثقته المفرطة فى حبها ؟!!

كان يظن أن بها من الحنين مثل ما به !

كان يظنها تتقلب على جمر الفرقة ، وشوك الحرمان .

كان يظنها ساهرة .. مسهدة .. مقروحة الجفن .. تنتظر أوبته فى كل لحظة .. لتضمه إليها فى لهفة وتسأله ألا يغيب عنها أبدا !؟

ذلك ما دفعه إلى العودة إليها .

لم يكن جنونا ولا حماقة .

ولكنها لهفة المحب .. أضناه الشوق .. ولم يستطع أن يفعل شيئا .. إلا أن

يعود .

ولقد عوّدته أن يعود .. ليجدها دائما فى انتظاره .. لترتمى بين أحضانه .

فى كل مرة كان يعود إليها .. على غير موعد .. ليجد ذراعيها مفتوحتين لضمه .. وشفتيها مضمومتين لتقبيله وكأنها لا عمل لها سوى انتظار عودته .

ذلك ما دفعه إلى العودة .

فرط الحب ، وفرط الشوق .. وفرط الثقة .

وعاد .. ليجد بين يديها سكين الجلاد .. لتجتث بها حبها من جذوره ، وتخنق فى جوفه كل ما يحتمل أن يتردد من أنفاس .

وغادرها .. ذبيحا .. يلم جراحه فى باطنه .. ويسير بين الناس .. كالسليم .. متئد الخطا .. مرفوع الرأس .. لا يتأوه ولا يتألم .. ولا يعرف كيف يريح نفسه من هذه الحرقة التى تكوى باطنه .

كان عليه أن يلقى الناس ويحدثهم ، ويستمع إليهم ، ويفهم ما يقولون ، وبباطنه ذلك العذاب المروّع الذى لم يخطر بباله أنه يمكن أن يصيب إنسانا .

لقد مرّ فى حياته بمحن كثيرة ، وذاق أنواعا من الآلام .. الجسمية ؛ والنفسية .

فقد أعزاء كثيرين .. أورثوه بفقدهم .. أحزانا أليمة . ولم ينج من آلام المرض ، ومرارة الهزيمة عبر مراحل حياته ، ولكن شيئا لم يصبه .. بمثل هذا الذى أصابه .

لم يشعر فى حياته قط .. أن شيئا يمكن أن يوجعه ، بمثل هذه القسوة ، والاستمرار ، والعجز عن برئه أو تخفيفه .

وجيعة .. لا يملك لها علاجا . ليس لها تخدير ، ولا تسكين ولا بتر .

بل إن شيئا ينخر فى باطنه .. بلا توقف .

ينام به ، ويصحو عليه .. علاجه مرفوض من مبدئه .

ويستمر فيه .

وكيف العلاج .. إذا كان الدواء هو سبب الوجيعة وأصل العلة ؟

وكل شيء يمكن التفكير فيه .. إلا أن يعود إليها .. أو يرفع السماعة ليسمع صوتها .

أيسألها لقاء ؟!!

أيستجديها .. كلمة حب ؟!!

وهل يستجدى الحب ؟.

ليس أمامه إلا أن يسير بآلامه .. يتعذب .. ويتعذب ، ويتعذب .. دون أن تند عن شفتيه صرخة .. أو يبدو على ملامحه ألم .

ليس أمامه إلا أن يتعذب وهو سائر فى حياته الطبيعية .. لأنه لا يستطيع أن يفعل غير هذا .

الذين تحدث لهم أمثال هذه الصدمات .. يفعلون شيئا .. يقاومون به ، ويغرقون عذابهم فيه .

شيئا كالخمر .. وكالقمار .. وكأحضان امرأة أخرى .

ولكنه لا يملك هذا .. لأنه لا يعرفه .. ولا يجسر أن يضع نفسه فيه .

إنه لا يستطيع إلا أن يكون هو .. الرجل السليم العاقل المتزن .

وهو فى باطنه أبعد ما يكون عن ذلك .

فى باطنه الدامى .. الموجع .. يريد أن يصرخ ويصرخ ، ويقول للناس .. إنى مجروح .. معذب .

يريد أن يقول .. آه .. ويغمض عينيه وينكفىء على وجهه ويبكى كالطفل .

أجل .. شيء ما لا بد أن يفعله لكى يخرج به تلك الجمرات التى تحرق صدره .

ولكنه لا يملك إلا أن يزدرد حرقته .. ويبتلع آهتهِ .. ويعمل .. كما تعوّد أن يعمل .. ويأكل ويشرب .. ويضحك أيضا .. إذا ما قال له أحدهم « نكتة » .

كان عليه أن يفعل كل ما يفعله الأحياء .

وهو أبعد ما يكون عن الأحياء .

كان عليه أن يحترق فى صمت وسكون .. دون أن يأمل فى منقذ له سوى الزمن .

وحتى هذا الزمن .. الذى تشبث به .. وجده يتسكع فى أيامه ، ويتهادى ، ويأبى أن يمر .

كان يريد من الزمن أن يجرى سريعا .

فقد كان يأمل أن يخف ما به يوما بعد يوم .. شهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام .

ولكن الأيام لم تحمل له إلا مزيدا من الوجيعة .. ومزيدا من الألم .

وحاول أن يجد فى السفر وسيلة للفرار من أوجاعه .

ولكن كيف ينجو منها وهى مستقرة فى باطنه ؟!

ذهب إلى القاهرة مرتين ، وإلى موسكو مرة .. وظن فى كل مرة أنه يهرب منها .. أنه يبتعد عن موطن العلة .. ولكنه لا يكاد يبتعد ، حتى يحس بالعلة تطارده ، وإذا باليأس الموجع يلازم تفكيره .. الذى لا يمكن أن يكون إلا جزءا منه .. فى دمشق ، أو فى القاهرة ، أو فى موسكو .

وسافر بوجيعته ، وعاد بوجيعته .

لو أنها كانت أكرم من هذا !

لو أنها صانت حبها ، فوقته من هذه الخاتمة المهينة .. ولم تلق به فى الوحل لتطأه بقدميها !

لو أنها منحته وداعا أجمل ، وذكرى أطيب !

لو أنها منحته شيئا جميلا يفكر فيه .. فى الوحشة المضنية !

لو أنها منحته فقط بعض الراحة فى التفكير !

لو أنها هيأت له بعض ما يضمد جراحه .. من أعذار جميلة ، واحتمالات مريحة !

لو .. لو ..

وكانت « لو » الممتنعة هى فى حد ذاتها سببا جديدا لوجيعته .

لو أنه يئس ؟!

لو أن هذا الذهن يكف عن التفكير فيها !!

ولكن كل شيء ممتنع مستعص .

ولا يبقى له بعد كل هذا سوى وجيعة فوق وجيعة ، وألم على ألم .

والطريق المظلم الموحش طويل ، والأيام بطيئة .

وعليه بعد هذا ، أن يعمل ، ويعمل .

فقد أخذ الصراع يشتد .

وأضحى عليه أن يواجه صراعا فى عمله ، كما يواجه صراعا فى باطنه .

فقد أخذ الضغط على سوريا يشتد من جميع النواحى .

وتعاونت قوى الاستعمار وأعوانهم ، لتكوّن ضغطا أمريكيا بريطانيا إسرائيليا تساندها حكومات الرجعية من العراق ولبنان ، لمقاومة ما سموه « بالخطر الشيوعى » الذى يحاول أن يجد فى سوريا منفذا إلى الوطن العربى ، وازداد الحشد التركى على حدود سوريا .. وزادت حدة الصراع ، وبدت كأن سوريا قد أضحت لقمة سائغة يفوز بها الأسبق إلى الالتهام .

وزاد العبء على الوطنيين .. ليخلصوا بوطنهم سليما من الصراع الدائر فيه وحوله .. وأخذت الحاجة تشتد إلى درع تقى الوطن العربى .

وبدأت درع الوحدة تتشكل وتتخذ سماتها الواضحة ، بعد الجهود التى بذلت من أجل توحيد الجيشين المصرى والسورى والتى انتهت باتفاق على توحيد الجيشين فى التسلح والتدريب لمواجهة الطوارئ المحتمل حدوثها ، وتبادل الضباط والخبراء وإرسال إمدادات من القوى الضاربة للجيش المصرى لتعزيز الجيش السورى المواجه للحشود التركية .

وأحس سامى بأول بوادر الوحدة العملية عندما وصلت القوات المصرية ،

إلى ميناء اللاذقية تحيط بها سفن الأسطول المصرى وتحلق فوقها طائراته ليتخذ المصرى مكانه بجوار السورى فى خطوط الدفاع على حدود تركيا وعلى حدود إسرائيل .

أحس سامى وسط أحزانه بشىء يبرق ليضئ الطريق .. ليس أمامه فقط بل أمام الأمة العربية كلها .

الأيادى المتشابكة على حدود الوطن العربى .. والدماء المعدّة لكى تختلط على أرض معركة واحدة .. للدفاع عن وطن واحد .. قد وثقت أول رباط للوحدة بين الشعبين .

ولم يدهش سامى وقتذاك من الضجة التى أحدثتها وصول القوات المصرية .. فقد كان يعرف معناها جيدا .

وملأت نفسه الغبطة وهو يجدها تصل سالمة رغم كل ما كان يزخر به البحر من إرهاب الأساطيل والطائرات ويجدها تواجه التجربة العنيفة وترسم أول معالم الوحدة وتوقد أول مشاعلها . وكانت قد دارت من قبل مباحثات اقتصادية بين وفد مصرى وبين الحكومة السورية لوضع أسس الوحدة الاقتصادية بين البلدين ، وانتهت بالاتفاق على تأليف لجنة مشتركة لدراسة الخطط العملية لتحقيق الوحدة الاقتصادية .

وأحس سامى أن المعركة تزداد احتداما ، وأن الخطوات التى تتخذ نحو الوحدة تزيدها حدة ، وأن الأيام المقبلة لا بد أن ترسم خطوطها العميقة .. وأنها ستظهر الذين يعملون فعلا من أجلها والذين يتخذونها مجرد وسيلة لغايات فى أنفسهم .

ولم يكن بد من متابعة النجاح .

وكان البرلمان السورى على وشك العودة إلى الاجتماع ، ولم تكن هناك أقوى من كلمة الشعب ليقولها حاسمة من أجل تحقيق الوحدة . فوجهت الدعوة إلى مجلس الأمة المصرى لإيفاد وفد من أعضائه لزيارة مجلس النواب السورى .

وبدت الوحدة وقتذاك إحساسا جارفا ، بين شعب وشعب . لم تكن قوانين تدرس ، ولا خطط تدبر ، بل كانت أقوى من كل ذلك . كانت تيارا من المشاعر يهدر ليجرف فى طريقه كل عقبة ، ويهدم كل حائل .

وتلقى الشعب السورى ، إخوانه المصريين ، بأذرع لهفى ، وكأنه يضم الشعب المصرى كله .

وقد شهد مطار « المزة » لأول مرة فى تاريخ الشعوب ، شعبا يعانق شعبا ، وأمة تحتضن أمة .

وفى قاعة مجلس النواب . جلس « سامى » يستمع إلى البيان المشترك .

جلس ينصت إليه ، شارد الذهن غارب البال .

كان يشعر أن حلما من أحلامه يتحقق ، وأن انتصارا ضخما طبوله تتعالى وبنوده تخفق .

ومع دقات الطبول التى كانت تتعالى من حوله ، مؤذنة بقرب ميلاد جديد ، كانت الأجراس الحزينة تئن فى باطنه .. مريرة موجعة .. من جرح لا يبل ، وقرح لا يشفى .

وعاد السؤال يلح على ذهنه مع الذكرى الموجعة .

لماذا فعلت به كل هذا ؟

كانت تحبه دائما ، وكانت تخشى عليه ، وتكره إيلامه .

كيف هان عليها أن توجه إلى قلبه الطعنة القاتلة .

أمعقول أن تفعل به هذا ، وهى ما زالت تحبه !

أم أن حبها قد ذرته الرياح !

ولكن أيمكن للحب أن يتبدد هكذا مرة واحدة ؟

ولماذا لم يحدث هذا معه ؟

لماذا لم يستطع نسيانها !؟

لماذا يظل ذهنه هكذا معلقا بها ، يرفض أن يبعد عنها ، عن حسناتها

وسيئاتها ، وحبها وهجرها .

لماذا يأبى أن ينكأ القرح فى كل لحظة ويدمى الجرح فى كل آونة ؟

لأنه ما زال يحبها ؟!

لا جدال فى ذلك مهما حاول الإنكار .

ولو أنه انتهى من حبها ، لانتهى أيضا من كرهها ، ومن متاعبها ، ومن آلامها .

متى ينعم الله عليه بالنسيان ؟

متى يمن الله عليه بالجمود والتبلد ؟

متى يستطيع أن يذكرها دون أن تثور فى نفسه الشجون ، وتتحرك الآلام ؟

لماذا لا يفعل الزمن شيئا ؟

لماذا لم تساعده كل هذه الأحداث الضخمة التى مر بها ؟

لماذا تصر على أن تبقى حية ، بارزة فى كل أحاسيسه ، ومشاعره ، وأفكاره .

لماذا لا تبهت !؟ لماذا لا تخبو !!

أتستحق هى منه كل هذه الوجيعة ، بعد أن فعلت ما فعلت .

كيف يعجز عن سلواها !

وكيف يستعصى عليه العزاء فى كل من حوله وما حوله ؟

لماذا يستعصى عليه .. أن يجد لها بديلا .

بديل ؟!

كيف ! وكل نظرة من حوله ، أو همسة ، تعيدها إلى ذهنه .

كيف ! والمقارنة بينها وبين الغير ، لا يكف عنها ذهنه وقلبه .

كيف ؟!

وهو لا يستطيع أن يشعر إلا بأنها الأصل ، وغيرها صورة باهتة زائفة .

وبعد كل هذا لا يجد هناك أبعد منها عنه فى هذه الحياة .

يجدها كشيء ميئوس من لقائه .. ميئوس من الحصول عليه .. لا أمل حلوا ينتظر ، ولا ذكرى طيبة تعود .

ولا يملك إلا أن يسير فى طريقه الموحش يائسا .. موجعا ، دون أن يحاول أن يجد لنفسه .. ملجأ ، أو ملاذا ، أو مستقرا .

مثل من ؟! أبمثل هذه السهولة يغير المحب مستقره ؟

ألم تفعل هى ؟!

ولكن أيستطيع هو ؟! وأين ؟

وتقف « فايزة » أمامه فى مكتبه ، ترمقه فى حنان وأسى ، وقد أغرق فى شروده الحزين ، وهى تكاد تهتف به : ها أنذا .

ولكنه لا يكاد يبصرها .

إنه لا يبصر إلا ما أوجعه وأضناه .

ويتمنى لو استطاع أن يجد صدرا يريحه ، ولكنه لا يحس بالراحة ، إلا لصدر هاجر ، ناء .

وتمد « فايزة » يدها إليه بالمظروف .. الذى ضم الرسالة فيلمح عليه خطا .. يصيبه برجفة .

أخيرا ذكرته .. وهى التى لم تنسها ذاكرته لحظة واحدة .

وأمسك بالأوراق .. كما تمسك الأم بوحيدها العائد .. فى لهفة وحرص ، وشك فى حقيقة عودته .

وأخذ يقرأ ..

أخذ يستمع منها إلى ما سمته فى رسالتها هذيان محموم .

أخذ يستمع إلى مناجاتها تروى له قصتها معه .

كيف رأته ؟ وكيف أحبته ؟

وانطلق به الذهن .. يردد المناجاة ويذكر قصته معها .

كيف رآها !؟ وكيف أحبها ! واسترسل ذهنه فى الذكرى حتى لا يجعل مناجاتها من طرف واحد .

أو كما سمتها هى .. هذيان محموم .

ثم عاد .. ليستقر بين السطور مرة أخرى .. ليستمع إلى مناجاتها الهامسة الحزينة .. لتكمل حديثها أو هذيانها .

٥٣

محاولة تضحية

عاد « سامى » ليستقر بصره على السطور اللهفى والكلمات الذائبة .. التى خطتها « هدى » فى رسالتها .. عاد ليرهف السمع إلى مناجاتها الرقيقة الحنون .. بعد شرود استرجع به فى ذهنه كل ما استرجعته فى رسالتها ، واستعاد الذكرى التى حاولت أن تستعيدها بكل ما فيها من حلاوة ومرارة .. ومتعة وألم .

عاد « سامى » إلى الأوراق .. لينصت إلى ما رددته من هذيان محموم .. إلى الصوت اليائس الذى يرجع الذكرى لينفس بها عن كربته ويفرج همه .. عاد ليستمع إلى الهمسات الحزينة التى تتشبث بالحب وتتلهف على العزاء .

عاد ليستمع مع الأوراق إلى أحب الأصوات يهتف به عبر البحار قائلا :

« وبعد .. يا أعز الناس .. ما كل هذا الذى كتبت ؟

ماذا استطعت أن أكتب إليك من جديد لا تعرفه .. وأنت ــ كما قلت لك ــ تعرف كل حركة فى حياتى وكل سكنة .

دعنى يا حبيبى ألتقط أنفاسى .. وأغمض عينى ، وأرخى جسدى .. وأوهم نفسى بأنى عدت لأستقر بين ذراعيك لحظة .

لحظة واحدة .. أسترخى فيها بين أحضانك .. ثم أعاود الحديث .

لحظة واحدة .. أنعم فيها بقربك .. حتى لو أشحت عنى بوجهك .. وجرمتنى ابتسامتك .

دعنى ألجأ إلى أحضانك .. علنى أنسى وحدتى ، وعلّنى أسكت دقات محرك الباخرة التى تتواتر على أذنى فى رتابة مخيفة .. لتذكرنى فى كل دقة بأنها تحملنى بعيدا عنك .. وأن كل أمل فى قربك يضيع .. دقة بعد دقة .

احتملنى يا حبيبى حتى النهاية .. احتمل هذيانى حتى أقول لك كل شىء .. احتملنى ولا تضجر .. فلم يبق من حديثى إلا القليل .

بقى القليل الذى قد لا تعرفه .

والذى قد يكون به بعض ما ينصفنى معك .. ويمنحنى غفرانك .. ويعيد ثقتك بى ، وحبك لى .

وكما قلت لك .. كل شىء يمكن احتماله فى هذه الحياة .. إلا فقد حبك .

البعد .. والحاجة .. والتشرد .. والحزن .. وكل ما بالحياة من ألوان الشقاء .. يمكن احتمالها .. ما دمت أشعر بأنك ما زلت تحبنى .. وبأن موقعى فى نفسك لم يمس .

ويعلم الله .. هل بقى لى بصيص أمل فى إنصافك وثقتك وحبك .. أم قد عفى على حبنا البعد ، وضيعته الوساوس والظنون .. وأضحى هباء تذروه ريح الفرقة والنسيان !؟

ولكن لماذا أثقل عليك بكل هذا !؟

لماذا لا أتمم حديثى .. ولم يبق منه .. إلا القليل !؟

لست أدرى .. هل تعرف أن « فايزة » قد زارتنى لتنبئنى أن علاقتى معك تنال من سمعتك وتزلزل مستقبلك .. ولتقوم بدورها فى خلاصك منى .

تركتنى ، وعواء النذير يدوى فى أذنى .. وريح خطرة تصفر من حولى .. وأجراس مفزعة تدق كيانى .. وشهب حمر تترصد فى طريقى .

ولم تكن وحدها التى تدق الأجراس .

كانت فى ذراعى ، آثار معركة استعدت بها الشريط حين حاول « رياض » أن يسرقه .. وقد عرفت أى خطر يمكن أن يأتيك من ناحيتى ، وأى استغلال سيئ يمكن أن يستغله خصومك لعلاقتى بك .

تجسد لى ما خلته من قبل أوهاما .. وأيقنت أن صديقك سليم كان يعرف الطريق الخطرة حين حذرنى ونحن عائدون من بيروت

وتنبهت لأرى نفسى .. بقعة سوداء فى حياتك الناصعة ، ومعول هدم يهدد بناء مستقبلك الشامخ الأشم .

وبدا لى وقتذاك .. أن أقوم بدور كريم .. نبيل .. وخيل إلىّ .. وسط أحزان فرقتك وأنت غائب .. أنه قد بات علىّ أن أستشهد فى حبى .. وأن أقدم نفسى قربانا على مذبح التضحية .

ولا أنكر أنى بكيت ، وأنا جالسة وحدى .. أستعيد لنفسى رسالة الفراق التى سأخطها إليك ، وأتصور نفسى وقد اختفيت عنك .. وقطعت عليك كل سبيل إلى لقائى .

وبكيت ثانية .. وأنا أتصور جزعك وآلامك .

ولكنى رحت فى وحدتى .. أستعذب آلام الاستشهاد الموهوم .. وأصوّر لنفسى ماذا يمكن أن أحققه لك من خير بالتضحية والاستشهاد .

وحاولت أن أمهد له .. بالعودة إلى حياتى الأولى .

حاولت أن أنغمر فى أضواء المسرح وأنهمك فى العمل وأحيط نفسى بثلة الأصدقاء القدامى .

ولم يشق الأمر علىّ فى غيبتك .

بل بدا طبيعيا .. فقد كان علىّ أن أفعل شيئا أشغل به فراغى العريض ، ولم يكن لدىّ من ميعاد أحرص على التقيد به .. بل كنت أحس فى غيابك بالضياع .. لا أنتظر من يومى شيئا ، ولا آمل فى شيء .

وأقبل علىّ « شكرى » .. يطرق بابى من جديد .

وأحسست أنى فى حاجة إلى متكأ أستند إليه ، وأنا أوشك أن أنزع نفسى من الطود الشامخ الذى تعلقت به ، واستقررت عليه .

فى حاجة إلى من يتلقفنى قبل أن أهوى من صخرة حبى التى اعتليتها ، ونأيت فيها عن كل ما حولى .. ونعمت فيها بقربى منك .

فى حاجة إلى حقنة مخدر .. قبل أن أقوم بعملية البتر التى أهم بالإقدام عليها .

ومرت بى الأيام قبل عودتك ، وأنا أمهد لعملية الاستشهاد .. التى أوشك أن أقوم بها .. كنت خلالها أروح وأغدو ، وأنا فى شبه غيبوبة .. أسهر وأشرب وأغنى ، وأندمج بين الأصدقاء ، وكأنى أدرب نفسى على حياة العذاب التى أوشك أن أحياها .

وأديت الدور كاملاً .. دور المساق إلى سيف الجلاد بقدم ثابتة ورأس مرفوع ، وابتسامة على الشفتين .

ولا أكتمك أنى كدت أخدع نفسى ، وكدت أتوهم فيها قدرة حقيقية على هذه الأشياء التى تسمع عنها فى القصص التضحية ، والاستشهاد ، والنبل .. إلخ .

حتى دق جرس التليفون .

وسمعت صوتك .

وأحسست بشىء يذوب فى باطنى .

ونسيت كل شىء .. إلا شوقى إليك ولهفتى عليك .

دكت حصون المقاومة التى شيدتها خلال غيبتك فى غمضة عين .. تداعت كأنها قلاع الثلوج .. سطعت عليها شمس الاستواء ، ووجدت نفسى أقف وحيدة فى الفضاء .. ممدودة الذراعين .. مسبلة العينين ، وصوت يضج بين الحنايا .. هاتفا بك : « ضمنى إليك .. شدنى إلى صدرك » .

والاستشهاد ؟! عليه العفاء .

والتضحية ؟! والنبل ؟! والكرم ؟! والواجب ؟!

ما عدت أذكرها ، ولا عاد لى بها شأن .

نسيت فى لمح البصر كل ما رسمت من خطط ، ودبرت من مشروعات ، ولم أعد أذكر .. إلا أنك حبيبى .

حبيبى فقط ؟!

حبيبى وحياتى ، وكل شىء فى دنياى .

وهتفت بك فى سماعة التليفون .. « تعال » .. بلا مناقشة ، ولا استفسار .
هتفت بها ببساطة ويسر . لأنى لم أجد على لسانى سواها .. لم يكن هناك مبرر للتفكير .. فقد كنت عندئذ واضحة لنفسى تمام الوضوح .
كنت لا أرى شيئا سواك .
أريدك .. ببساطة .. وبلا تفكير .. ولا صراع .
لقد طغى وجودك .. يا حبيبى .. على كل شيء .
حتى على خوفى عليك ، وحرصى على مستقبلك .
بدد ما ادعيته فى نفسى من نبل .. واستعداد للتضحية والاستشهاد .
لقد انكمشت كل هذه النوايا الطيبة والرغبات الخيرة .. أمام رغبتى فيك ، ولهفتى عليك .
ولم أستطع إلا أن أقول لك ببساطة « تعال » .
وأتيت .
أتيت إلىّ بعد طول غيبة ، وفرط شوق .. وشدة لهفة .
وكنت أنت نفسك هذه المرة .. نافخ صفارات الإنذار ، قارع نواقيس الخطر .
كنت حزينا منهكا مجهدا .
لم أجد اليأس والأسى فى وجهك كما وجدته حينذاك .
وأنت تعرف مدى إحساسى بك .. بأساك ، وضيقك ، ومتاعبك .
وكرهت نفسى .. وكرهت حبى .. وأنا أسمع منك كل ما سببته لك من مشكلات ، وما أحطتك به من متاعب .
وبدت لى فرحتى بلقائك ، واندفاعى إلى أحضانك ، وتشبثى بحبك .. كأن صحوة الموت .. تحاول التشبث بالحياة الذاهبة .
وعاد الطريق المعتم حيث كنت أسير إلى جلادى .. عاد ليبدو أشد وحشة وإفزاعا .

وجاءت الأفكار المتشائمة اليائسة تتواتر على ذهنى .

وألقى اليأس ظلالا قاتمة على كل شىء فى حياتى .. حتى حبى لك .

وعزّت علىّ نفسى وأنا ألهث وراءك .. أمنحك حبى .. وحياتى .. فأحملك بهما وزرا .. وأهيم كالشريدة الضائعة .. بلا أمل منك فى مستقر ، أو طمأنينة .

وبدأت أذكر وحدتى فى الليالى الطويلة .. عندما تتسلل من جوارى وتتركنى وحيدة .. أحتضن الوسادة .. أذكر قلقى المستمر .. وإحساسى الدائم بأنى أختلس .. وأنى أوشك أن أضبط .. وبأن يدا لا تبرح أن تنتزعك منى ، وتبعدك عن طريقى .. وتؤكد أنك لست لى .. وأنك حلم تبدده اليقظة .. ووهم تضيعه الحقائق .

وعاد صوت « أم حبيب » يتردد فى أذنى .. كأنه صوت النذير :

« ضعى بنفسك النهاية .. تجعلى من أيامك الخالية ذكرى جميلة .. تعاودك كالنسمة العطرة فى خريف عمرك .. كونى حازمة واطوى صفحة حبك قبل أن تتلفها الأيدى العابثة » .

وفى موجة اليأس الغامرة التى طوت كل بوارق الأمل من حولى .. وجدتنى أفتح شفتى لأهمس بما يشبه أنات المحتضر .. قائلة .. إننا يجب أن نفكر بشىء من العقل .. وإن ما بيننا لا يمكن أن يستمر .. ثم ذكرت .. أن هناك إنسانا تقدم للزواج منى .

وحتى هذه اللحظة .

حتى عندما قلت لك إنه من غير المعقول أن يستمر ما بيننا ، وإن إنسانا تقدم للزواج منى ..

لم أكن أحسست أن ما بيننا يمكن أن ينتهى فعلا .

رغم كل هذه الوساوس والهموم والأسى واليأس .. ورغم كل ما خطر ببالى من متاعب حبنا ، وضرورة إنهائه .

رغم كل هذا .. ورغم نواياى .. وخططى فى إنهائه ، لم أشعر أبدا أنى

سأنهيه .

كنت أشبه بالصبى الذى يهدد بالانتحار ، مقنعا نفسه أن هذا هو سبيله الوحيد إلى الخلاص .. ومقنعا من حوله أنه لا بد أن يضع حدا لحياته ، ويسير حتى حافة البحر .. ولكنه يعلم فى قرارة نفسه .. أن ثمة يدا ستمتد لمنعه وتوقف انتحاره .

وبهذا الإحساس .. جرؤت على أن أنبئك بأنى عزمت على أن أضع لحبنا نهاية .

وانتظرت أن تمتد يدك .. لتوقف هذا الانتحار الذى أوشك أن أسير إليه .

ولكنك تركتنى أسير .

وبكيت .

بكيت حبى .. وحياتى .. وأنا أجدك تسلم بالنهاية فى صمت وهدوء .

وببقية من حسن ظن .. وبذبالة أمل .. وبيقينى من أن موضعى فى مكانى سيبقى دائما بين ذراعيك .. أحسست أنك ستضمنى إليك ، وتمسح دمعى بشفتيك .. وتتحسس رأسى .. وتشدّنى إلى صدرك .

وتهدأ العاصفة ، وتنقشع السحب ، وتشرق بسمتك .

ويعود كل شىء إلى مكان عليه .

حتى هذه اللحظة .

حتى بعد أن انهرت باكية .. كان ثمة بصيص من أمل .. ما زال وهجه يكمن فى نفسى .

ولكنك تركتنى أبكى .

لأول مرة فى حبنا .

وزادت فى نفسى المرارة . وأنا أجد قلبك قد قسا علىّ .. ورحت أستجدى ضمتك .. لعلها تنقذنى من هلاك محتوم .

وضممتنى إليك .. وبعد لحظات أنبأتنى أنك ستتركنى إلى غير عودة .

كان كل ما دبرته من خطط ، وكل ما فهت به من أقوال يسعى بى إلى هذا الوداع الأليم .

إلا أنى أحسست مرة أخرى بلطمة قاسية .

عجبا لى !!

لماذا أفزع كل هذا الفزع .. أفزع من نتائج كنت أسير إليها وأسعى إلى دركها .

لماذا كنت كالطفل يقذف الآنية على الأرض .. ثم يغمض عينيه فزعا .. حين يسمع صوت ارتطامها .

ولكن ! أحقا كنت أتوقعها ؟!

أم حملت حبك لى فوق طاقته ؟!

أكنت أنا حمقاء ؟!

أم كنت أنت القاسى ؟!

لا عتاب .. ولا لوم .. ولا حساب .

فما كتبت إليك لأعتب عليك ، أو أحاسبك .. وإنما لأستجدى معونتك ، وأتلمس إنصافك .

وحاشا أن أتهمك بالقسوة .

أنت حبيبى .

وأكون ظالمة إن لم ألتمس لك عذرا فيما كنت عليه من إجهاد ويأس وأسى .

أكون كاذبة لو اتهمتك بالقسوة ، وأنت خير الناس .. وأطيبهم قلبا ، وأرقهم جانبا .

أكون جاحدة لو أنكرت حبك لى وخوفك علىّ .

فقد عدت إلىّ .

عدتَ ؟!

عجيب هذا القدر !!

يمعن فى السخرية منا .. يأتينا من حيث لا نتوقع .. ويجعل من أعذب ما نرد .. أمرّ ما نذوق ، ومن أجمل أمانينا ، أقسى صدماتنا .

أتدرى كم تمنيت أن تعود طوال الأسبوع الذى هجرتنى فيه ؟

فلما عدت تمنيت أن أموت قبل أن أواجهك .

تمنيت أن أسقط فاقدة الوعى .. حتى لا أواجه نظراتك اللائمة العاتبة .. اليائسة .

ومع ذلك لم أكن أملك إلا أن أفعل ما فعلت .. وأن أنتهى إلى ما انتهيت إليه !!

أتعرف كيف تركتنى أول مرة ؟

أتعرف كيف مرت بى أيام هجرك قبل عودتك الساخرة المشئومة ؟

حقيقة إننى قد دبرت خططى طوال مدة غيابك فى القاهرة ، على أساس الاستشهاد والتضحية والنبل و .. و ..

وحقيقة أنى تخيلت فى أوهامى .. كيف يمكن أن يحدث .

ولكنى لم أتوقع قط أن يحدث حقيقة .

لم أظنه بمثل هذه المرارة والعذاب .

أن أفقدك هكذا فجأة .. وبلا أمل فى عودة .

أمر غير معقول .

كنت أتوقع على الأقل .. أن يكون الأمر بالتدريج .. وأن نظل نلتقى .. ثم نقلل من مواعيد لقائنا .. شيئا فشيئا حتى نتعوّد البعد .

ولكنك أصررت أن ينتهى كل شىء مرة واحدة .

وذهبت وتركتنى .. كمن بترت ساقه .. أو على وجه أدق بتر قلبه إن صح التعبير .. بلا مخدر .. وبلا رباط أو غيار .

ولم أك أملك غير أنين جريح مجنون .

أجل يا حبيبى .. كان الجنون يتلمس طريقه إلى جوارحى .

أنت تعرف هذه الآلام .. فلا شك أنك قد قاسيت مثلها فقد كانت

مشاعرى دائما هى مشاعرك .. ولكنك كنت دائما أكثر جلدا وأشد صبرا .

تخيل ما قد تكون قاسيت من آلام .. وقد حاقت بى .. دون أن أملك جلدك ، وصبرك !

ولم أعرف ماذا أفعل .

لقد قلت لك إن هناك إنسانا تقدم للزواج منى .

وكان شكرى قد سألنى الزواج فعلا .

وأقبل علىّ فى محنتى .. يلح فى طلبه .

وحاولت أن أجد عنده سندا .. أتعلق به وأنا أسقط من حالق حبك نحو هذا المهوى السحيق .

حاولت أن أجد فيه المسكن لعملية بتر بلا مخدر ولا ضماد .

ومرت أيام .. وجرح القلب يدمى .. دون أن يفيد فيه مسكن .. وقرح الفؤاد ينكأ دون أن يفيد فيه ضماد .

وانطلقت كالمجنونة .. أشرب وأغنى وأرقص وأسهر .. وأحاول أن أهرب منك .. من إلحاحك على مشاعرى .. واحتلالك لذهنى .

أحاول أن أفلت من قبضة سيطرتك ، وقيد سلطانك .

وظللت أعدو وأعدو .. لا أستقر ولا أنام .. لأراك برغمى فى كل شبح يطوف بى ، وأسمعك فى كل صوت يهمس فى أذنى .

ولم أعرف ما آخرة كل هذا الذى أفعله ؟

أحقيقة أنوى الزواج من شكرى ؟

أيمكن أن أجد فى شىء من هذه الدنيا .. عزاء عنك وبديلا منك ؟

وخيل إلىّ وأنا أجيب نفسى باليأس المطلق .. أن أجرى عائدة إليك لأرتمى بين أحضانك وأهتف بك : لن أتركك أبدا .

ولكنى كنت أعود لنفسى فأسألها : أيحل هذا مشكلتنا ؟

أينهى المسألة مجرد عودتى إليك وارتمائى بين أحضانك ؟

وبعد ؟

نعود السيرة الأولى ؟

تأتيك من ناحيتى الهموم ، والمتاعب ، والمشكلات ، والشائعات ، والأقاويل ، وأعيد إليك البقعة السوداء التى حاولت أن أزيلها من صفحتك النقية .

وأنا ؟! أعود مرة أخرى إلى الخوف من أن أفقدك .. والقلق على ضياعك .

أعود إلى الأعصاب المشدودة فى غيبتك ، واللهفة الدائمة عليك .

أعود إلى التستر والخوف .. والحياة بلا أمل فى أكثر من حياة التستر والخوف .

ومع ذلك ..

ومع كل ما كنت أدركه من حقائق مريرة تكتنف حياتنا معا .. أحسست أن صبرى على فقدك قد نفد .. واحتمالى لبعدك قد وصل إلى أقصاه ، وبلغ بى عذاب فرقتك حدا .. جعلنى أسلم بكل شىء فى سبيل استعادتك .

وكنت قد حاولت أن أبتعد عن كل ما يذكرنى بك .. كنت لا أعود إلى البيت إلا لأرتمى فى الفراش .. وكنت أحاول أن أحيط نفسى دائما .. بضجيج يشتت فكرى .

حتى عصف بى الحنين .. وقبعت فى الدار .. وامتدت يدى إلى التسجيل .. وأخذت أستمع إليه .

وأفقدنى صوتك .. بقية الصبر الذى تمسكت به .

وامتدت يدى إلى السماعة .. أطلبك .

وقبل أن أرفعها دق جرس الباب ونهضت لأرى الطارق .

٥٤

اغفرلك !!

قلب « سامى » صفحات الرسالة وعاود القراءة :

« فتحت الباب فإذا بشكرى يقف أمامى .

أقبل بلا تكلف .. وهو يحس من طريقة حياتى .. ومن معاملتى له ، وملازمته لى .. أنه أضحى قريبا منى وأنه بات مشروع زوج .

وجلس فى حجرتنا .. على مقعدك ، ومد ساقيه كما تعوّدت أن تفعل .

وزاد بى الحنين إليك ، وأغمضت عينى ، وتمنيت لو أفتحهما لأجد معجزة قد حدثت ، وأجدك مكانه .

وتحققت المعجزة .

وبدل أن أراك .. سمعت صوتك .

وخلتنى واهمة أول الأمر .. حتى أبصرتك بالباب .

حسن .

أظنك تعرف تفاصيل الهنيهات القاتلة التى مرت بى بعد ذلك .

لست أدرى ماذا أقول فى وصفها .. أكثر من أنى تمنيت أن أدفع عمرى ثمنا لاجتنابها .

ولكن عمرى كان أرخص عند القدر من سحب هذه اللحظات .. فكان علىّ أن أحتملها .

وأحتمل بعدها .. نظراتك اليائسة اللائمة .. الحزينة .

وأحتمل .. أسوأ فراق .. وأنا أحاول الانزواء عن طريقك .

أنت .. يا أعز الناس .

وكان آخر ما سمعت منك ، هو رجاء بأن أتزوج « شكرى » ، حتى أضع لحبنا خاتمة أكرم .

أجل .. حاولت من بعد أن أسمع نصيحتك ، وألبى رجاءك الأخير ، وأن أتزوج منه .. لكى أضع لحبنا الخاتمة الكريمة التى ترضاها .

ولكنى .. أخفقت .

أترانى فى حاجة إلى الاعتذار عن هذا الإخفاق ؟

أترانى فى حاجة إلى تبريره ؟!

لا أظن .

بل أغلب ظنى أنك فى قرارة نفسك توقن بأن مثل هذا الزواج أمر محال .. محال أن أشد نفسى إلى مخلوق « كشكرى » فى حياة واحدة إلى الأبد .

لا أريد أن أجرحه .. فقد كان دائما ، مخلوقا طيبا ، وكان دائما عطوفا نحوى .

ولكن ذلك لم يكن أبدا ، ليبرر احتمالى له مدى الحياة . وحتى ولو من أجل خاتمتك الكريمة التى أردتها لحبنا . تركته .. لأنى أيقنت من استحالة ارتباطى به كزوج .. فقد كنا نختلف فى كل شىء ، وكان من العبث أن أوهم نفسى بحياة راضية قريرة .. معه .. أو مع غيره ، بعد أن عرف القلب حبك ووضع لمن أحب مقياسا .. يظلم كل من ألقى بعدك ، إذا ما حاولت المقارنة .

تركته .. لا من أجل أن أعود لك .. فقد أحرق اللقاء الأخير كل مراكبى .. وأضحت العودة إليك مستحيلة .

ولم أعد أطمع منك فى لقاء .

وإنما عدت أطمع فى صفح ومغفرة .

عدت أطمع فى أن تنصفنى ، وأن تحبنى كما أحببتنى دائما .

عدت أطمع فى الذكرى الجميلة ، التى تمنيت أن تكون دائما ، خاتمة حبنا .

هل تذكر جلستك وراء النافذة وأوراق الشجرة ومياه النهر وأضواء

الجبل ؟!

هل تذكر ما قلنا وقد أحسست ذات مرة .. أن هذه المرئيات الجميلة .. ستصبح ذكرى يوما ما ؟!

كم يعذبنى .. أن أشوّه لك هذه الذكريات !! كم يقض مضجعى وينغص عيشى أن أجدنى قد بت مخلوقة بغيضة كريهة عندما أطوف بذهنك .

وهممت ذات مرة أن أحدثك ، وأن ألقاك .. لأشرح لك حقيقتى .. لأنصف نفسى معك ، وأؤكد لك ، أنى حبيبتك دائما ، وأن حبى لك لن يهتز أبدا .

هممت بأن ألقاك ، ولكنى لم أجسر .. خشيت علىّ وعليك .. خشيت علىّ من ظلمك ، وخشيت عليك من حبى .

وأخيرا .. عزمت على الرحيل .

وإذا كنت قد وجدت لقائى بك مستحيلا .. فقد وجدت قربى منك أشد استحالة .

وسنحت الفرصة فى دعوة وجهها إلىّ « خالى » من المهجر . بعد أن ذهبت أمى إليه .. لتقيم عنده .

ووجدت فى المهجر خير مفر .. من العذاب الذى أعيش فيه .

وتمنيت أن أودعك .. وداعا غير هذا الوداع القاسى الذى تركتنى به .

ولم أعرف كيف .

حتى طلبتك فى الهاتف ، ورفعت السماعة ، وسمعت صوتك .. ثم وضعتها .

وبكيت .

هذا كل ما استطعت أن أودعك به ، وداع من جانب واحد ، ولكنه خير من لا شىء .

ورحلت .

حملتنى الباخرة .. إلى حيث أستريح من عناء اللهفة عليك ، والشوق إلى لقائك .

وأخذ الشاطئ يتباعد ، ودور بيروت تتضاءل ، وأنا أتسلل من دنياك .. بلا أمل فى عودة ، وصورتك تملأ عينى .. بنظرتك اللائمة العاتبة .

ودموعى تنساب ، ويدك بمنديل الدموع الذى تعوّدت أن تجفف به دمعى قد نأى عنى وكف عن عينى .

وتلاشت أشباح المدينة ، وسقط الظلام .

وتبدد كل شىء من حولى .. حتى طيفك .

وعدت إلى حجرتى .. لأكتب إليك .

وأستجدى صفحك ، وغفرانك .

ومسة من يدك .. تجفف الدمع .. الذى لا يجف .

وأخيرا يا حبيبى .

بعد كل ما كتبت .

لا أدرى إذا كنت قد أفلحت فى أن أفسر لك شيئا لم تعرفه .

هل أفلحت .. فى أن أنصف نفسى ، وأن أستعيد موقعى عندك ؟

أفلحت .. أم لم أفلح .

أنا أحبك .

أحبك كما أحببتك دائما .

ومهما بقى فى نفسك منى ومهما كانت ذكراى .. فلا أظننى أجد فى نفسى أسمى منك موضعا .. ولا أطيب ذكرى ، ولا أروع أثرا ، ولا أجمل صورة .

كل يوم يمر بى يؤكد أنى ما أحببت فى حياتى سواك .

فاغفر لى ، ورد إلىّ .. فى غربتى .. بعض حبك .. لعله يؤنس وحشتى ويجفف فى عينى الدمع الذى لا يجف » .

« هدى »

٥٥

الخاتمة

وضع « سامى » الأوراق على مكتبه .. وأزاح مقعده إلى الوراء ومد ساقيه وألقى برأسه إلى الوراء.. وبدا عليه كأنه قد فرغ من شوط طويل مجهد ، وأخذ يحملق فى قطرات الغاز المتساقطة فى بطء ورتابة فى المدفأة المعدنية اللامعة التى شعت منها حرارة ملأت الحجرة دفئا .

وشرد ذهن « سامى » منطلقا إلى النائية وراء البحار .

وأحس بالحنين يملأ نفسه .

حنين هادئ ، مريح .. مس قلبه فأطفأ حرقته ، وسكن لوعته .. وخفف وجيعته .

لأول مرة .. أحس بأن العويل فى باطنه قد صمت .. والإعصار فى جوفه قد سكن ، وأن الحمل الذى أثقل كاهله .. قد ألقى من عليه ، وأنه يستطيع أن يتحرك بين الناس .. ويتحدث إليهم .. كغيره من الأحياء .

كان يعرف أن كل شىء قد انتهى .. ولم تشعل الرسالة فى نفسه بارقة أمل .. فى عودة أو لقاء .. ولكنها مع ذلك دفعت فى نفسه شعورا عجيبا بالراحة والطمأنينة .. وإحساسا بأن الشىء الذى فقده .. لم يضع ، وأنه ما زال موجودا .. رغم بعد الشقة .. ونأى المزار .

وكان أشبه برجل فقد ابنه فى حرب .. ثم علم بوجوده أسيرا .. وشتان بين البعد والفقد ، والفرقة والضياع .

إحساس بالسكينة قد ملأه وهو يجد « حبه العزيز » لم يعبث به غدر ولم تدمره خيانة .. ويجد أيامه الحلوة .. لم تتلفها خديعة ولم يشوهها إثم .

وشعور بالاستقرار قد أراحه بعد طول ضياع وهو يحس أن أعز الناس عنده لم يخذله .. ولم يخيب فيه أمله .. وأنه لم يكف عن حبه لحظة .

ولم تعد تزعجه فرقة .. أو يوجعه بعد .. وأحس كأن أفق حياته قد أشرق من جديد ، وبأنه يستطيع أن يسير فى طريقه فى هدوء وقوة وثقة تظله أجمل ذكريات عمره .

ومرّت به الأيام وهو ينطلق فى كفاحه .. بلا حمل من هموم ينقض ظهره ، وبلا حرقة من يأس تكوى باطنه .

وأخذت الانتصارات فى سبيل الوحدة تتوالى .. تبادل مجلس النواب السورى مع مجلس الأمة المصرى الأعلام رمزا للكفاح المشترك .

وخطب رئيس مجلس الأمة المصرى ، بمناسبة إهداء العلم السورى ، فأيد القرار الذى أصدره مجلس النواب السورى كخطوة فى طريق الحرية والوحدة .. ودعوة للحكومتين المصرية والسورية لتحقيق الاتحاد .

ثم أذيع فى دمشق أن وفدا اقتصاديا سيسافر إلى القاهرة لبحث مشروع الوحدة الاقتصادية الذى أعدته الحكومة السورية مع المسئولين فى مصر ليكون خطوة تمهيدية للوحدة الكاملة .

وقبل أن يسافر الوفد أذاع بعض المسئولين أنه لا يمكن التعجيل بالوحدة الاقتصادية حتى لا تصاب بنكسة .

وأثار التصريح « سامي » وأنصاره وازدادت حماستهم للتعجيل بإعلان الوحدة وتحقيقها .. وإزالة كل العراقيل التى تنبتها المباحثات والمناقشات .

وأصرّ أنصار الوحدة .. على تحقيقها فورا .. وأيدهم الشعب كله بشعور جارف نحو أمل طالما سعى إليه وآمن به .

ودرس مجلس الوزراء مشروع الوحدة وأصدر قرارا بانتداب وزير الخارجية للسفر إلى القاهرة لمباحثة المسئولين .

ووصل الوزير إلى القاهرة واستقبله الرئيس « جمال » وتسلم قرار المجلس-

بطلب الوحدة .. واتفق على أن تكون قاعدة الوحدة دولة واحدة ، ورئيسا واحدا ، وتشريعا واحدا ، وتمثيلا سياسيا واحدا ، وسياسة اقتصادية واحدة ، وتعليما واحدا .

وأقر مجلس الوزراء القاعدة وانتقل إلى القاهرة لإنجاز مشروعها .

وذهب « سامى » إلى القاهرة مع هيئة الحكومة السورية ليشهد حلمه الأكبر يتحقق .. واستقبلهم الرئيس « جمال » مع وزرائه فى مطار القاهرة .

وعقد رجال الحكومتين فى أول فبراير اجتماعا مشتركا انتهى بتوقيع رجال الدولتين على وثيقة الوحدة أكدوا فيها أن الوحدة التى هى ثمرة القومية العربية هى طريق العرب إلى الحرية والسيادة وسبيل للتعاون والسلام ، وأن واجبهم أن يخرجوا الوحدة من نطاق الأمانى إلى حيز التنفيذ فى عزم ثابت وإصرار قوى ، وأن يفتحوا بابها لكل بلد عربى يريد أن يدفع عن العرب الأذى والسوء ، ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها .

وفى المساء خرج الرئيسان السورى والمصرى متعانقين ليعلنا للعالم كله مولد الجمهورية العربية المتحدة .

ومرت بضعة أيام وعاد « سامى » إلى دمشق .. تملؤه ثقة النصر .. وهو يحس أن الوحدة قد قلمت أظافر الخصوم .. وأدخلتهم الجحور .

وجلس إلى مكتبه يقلب بعض الأوراق ، ودخلت عليه « فايزة » فأدارت مفتاح الراديو وقالت باسمة :

ـــ خطبة الرئيس « جمال » فى مجلس الأمة .

وأخذ « سامى » ينصت إلى الصوت الهادئ العميق يحدد معالم المستقبل المشرق المجيد قائلا :

« فى حياة الشعوب أجيال يواعدها القدر ، ويختصها دون غيرها بأن تشهد نقطة التحول الحاسمة فى التاريخ .

« إنه يتيح لها أن تشهد المراحل الفاصلة فى الحياة الخالدة . تلك المراحل تشبه

مهرجان الشروق ، حيث يحدث الانتقال العظيم ساعة الفجر من ظلام الليل إلى ضوء النهار .

« إن هذه الأجيال الموعودة تعيش لحظات رائعة .

« إنها تشهد لحظات انتصار عظيم لم تصنعه وحدها ، ولم تتحمل تضحياته بمفردها ، وإنما هى تشهد النتيجة المجيدة لتفاعل عوامل أخرى كثيرة واصلت حركتها فى ظلام الليل ووحشته ، وعملت وسهرت ، وظلت تدفع الثوانى بعد الثوانى إلى الانتقال العظيم ساعة الفجر .

« لقد عشنا ساعة الفجر ورأينا انتصار النور الطالع على ظلمات الليل الطويل » .

وفى نفس الوقت كانت يد أخرى تمتد لمفتاح الراديو تديره محاولة أن تضبط المؤشر .

فى مكان ناء بالمهجر .. جلست « هدى » تستجدى الجهاز صوتا عربيا .

وبين الحشرجات ، والذبذبات ، والأصوات المختلطة المتشابكة .. استطاعت « هدى » أن تلتقط صوتا عربيا واضحا ، أوقفت عليه المؤشر ، وأخذت تنصت إليه فى لهفة وهو يقول :

« لقد أكد شعب سورية بتجارب الأيام .. تجربة بعد تجربة أنه طليعة القومية العربية ، وأنه رأس حربة فى اندفاعها وأنه الحارس الأمين لتراثها المجيد .

« أيها المواطنون : لقد بزغ أفق جديد على أمل هذا الشرق .

« إن دولة جديدة تنبعث فى قلبه .

« لقد قامت دولة كبرى فى هذا الشرق ، ليست دخيلة فيه ولا غاصبة ، ليست عادية عليه ولا مستعدية .

« دولة تحمى ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوى ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تتحيز ولا تتعصب .. لا تنحرف ولا تنحاز .. تؤكد العدل .. تدعم السلام ، توفر الرخاء لها ولمن

حولها .. للبشر جميعا بقدر ما تحتمل وتطيق .

« أيها المواطنون أعضاء مجلس الشعب . وفقكم الله ، وبارك لكم وحدتكم ، وحمى جمهوريتكم العربية المتحدة » .

وصمت الصوت .

وأحست « هدى » بذهنها يحملها بعيدا .. بعيدا .. إلى مكان حبيب إلى قلبها .. استقر به من لا تعرف له صفة إلا « أعز الناس » .

وذكرت أمانيه وأحلامه .. وكفاحه من أجل هذا الشيء الذى تسمعه يتحقق الآن .

وأحست برجفة تسرى فى كيانها .

أتراها قد أسهمت بسعادتها من أجل تحقيق ذلك الشيء الذى آمن به وكافح من أجله ؟

أترى حقا .. لم تذهب تضحيتها سدى ؟

أتراه سيذكر لها ذلك .. ويغفر لها .. ويصفح عنها ؟

لماذا لم يكتب لها إذن ؟

أتراه استكثر عليها فى وحدتها وغربتها كلمة غفران ؟

لو عرف ماذا يمكن أن تفعل بها كتابته .. لما تردد فى الرد .

عجيب هذا الإنسان !

تريحه مجرد كلمة تأتى إليه عبر مئات الأميال .. يتلهف عليها لترأب صدعه ، وتلم جرحه .

وأحست بشيء ساخن يسيل على خدها .

ما آخرة كل هذه الدموع ؟

لماذا تأبى أن تجف ؟

لماذا تدرّها .. مسة ذكرى .. ولمسة حنين ؟

ليته يكتب إليها .. عله يكفكف عبراتها ويجفف دمعها .

وفى نفس اللحظة نادى « سامى » « فايزة » لتطفئ الراديو .

وشرد به الذهن برهة .. عقب الانتهاء من سماع الخطبة .

ووقفت فايزة تنتظر أوامره .

ورفع إليها بصره قائلا وكأنه قد نوى أمرا :

ـــ أعطينى ورقا وقلما .

ـــ هل ستكتب الافتتاحية ؟

ـــ سأكتب رسالة .

وعادت « فايزة » تحمل الورق والقلم .

وأمسك « سامى » بالقلم وبلا تفكير خط أول كلمة .

« يا أعز الناس ..

« أكتب إليك ومنديل الدموع فى يدى .. أكفكف ما بقى من دمعى .. ومن دمعك » .

واسترسل سامى فى الكتابة .

وفى الخارج جلست فايزة وقد أسندت رأسها إلى كفيها .

هذا الإنسان العجيب !

لماذا لا يريد أن ينسى ؟

وهزت رأسها ثم تنهدت فى شىء من الارتياح .

لماذا تحاول هى أن تتعجل ؟.

لقد فعل الزمن شيئا كثيرا .

وسيفعل الزمن أكثر .. وأكثر .

لماذا لا تصبر ؟

الصبر والزمن يفعلان المعجزات .

وملأها إحساس بالثقة .

وعادت تتنهد فى ارتياح .. وعلت بسمة الأمل شفتيها .

(تمت)

فهرست الجزء الثانى

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع : ٨٦ / ٧٧٤٨
الترقيم الدولى : ٩٧٧ ــ ١١ ــ ٠٢٧٣ ــ ٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٦٠٠ قرش